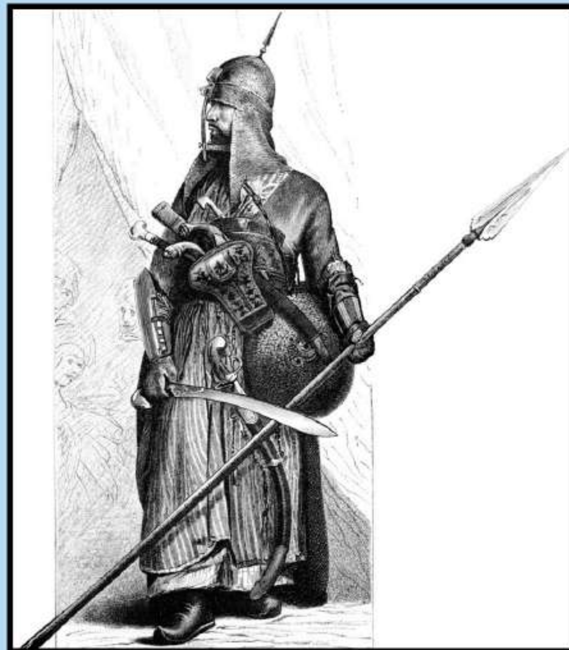
٢٥ صفحات من تاريخ مصر

تاريخ
دولة المماليك في مصر

تأليف
السير وليم موير

ترجمة
محمود عابدين و سليم حسن



الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

تاريخ

دولة المماليك في مصر

صفحات من تاريخ مصر

(٢٥)

تاريخ
دولة المماليك في مصر

تأليف

السير وليم موير

ترجمة

محمود عابدين و سليم حسن

مكتبة مدبولي

القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

الناشـــر

مكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد ،

فهذا كتاب في تاريخ عصر من عصور مصر الشيقة تهم قراءته كل شرقي وخاصة من كان له ولع بتاريخ هذا البلد ، وهو لا يخلو في كل أطواره من لذة أو فائدة . دفعنا إلى ترجمة هذا الكتاب عن الإنجليزية «أولاً» ما نراه الآن في قومنا من الروح الوطنية العالية ، والميل الشديد إلى تحصيل العلم ، والرغبة العظيمة في الوقوف على تاريخ بلادنا ، ذلك الذي نحن أولى الناس بتفهمه وتتبع الخطوات التي سار فيها ، لأن من أقوى دعائم الرقي الفكري والتقدم السياسي في أي أمة معرفة تاريخها . و «ثانياً» شعورنا بأن هذا الكتاب يسد فراغاً عظيماً في عالم التأليف عندنا إذ لا يوجد كتاب خاص بهذا العصر وضع باللغة العربية على النمط الحديث . و«ثالثاً» لأنه أخصر مؤلف مفيد في موضوعه على ما في الأصل الإنجليزي من هفوات قليلة تداركناها .

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ الفاضل السير وليم موير المستشرق . وقد وجه لقراء الإنجليزية ليسد به في لغته بعض الفراغ الذي تتمنى أن نسده نحن أيضاً في العربية . وقد إستعان مؤلفه بخير ما كتب في هذا الموضوع باللغة العربية والألمانية والفرنسية والتركية كما تجد ذلك في المقدمة التى صدره بها .

وقد توخينا فيه سهولة العبارة مع سلامة التركيب ولم نحد قيد أنملة عن إيراد المعنى الذي قصده المؤلف ، ولم نتقهقر أمام ماكنا نجده أحياناً في أسلوبه من غموض بل بذلنا كل ما نملك من مجهود في بيانه . ولم يفتنا ، مع هذا ، أن نرجع إلى المصادر العربية التي أشار إليها المؤلف في مقدمة الكتاب خوفاً من الاغراق ، وإستيثاقاً من المسميات والأعلام ـ حتى لا ينبو عنه الذوق العربي وحتي لا نرمى بما يرمى به بعض المترجمين غير المدققين من الإهمال . على أننا لا ندعى العصمة لأن الخطأ قد ينال المرء وهو أحذر ما يكون . وقد أضفنا إلى الكتاب بعض الحواشى التي لم نر بداً من إيرادها لزيادة توضيح الموضوع .

وقد حليناه بالصور التي إختارها له مؤلفه ، وصدرناه بخريطة واضحة رسمها حضرة الأستاذ محمد فهيم مدير حسابات المعارف ، فله منا مزيد الشكر جزاء صنيعه واننا نقدم شكرنا لحضرتى الأستاذين الفاضلين الشيخ عبد الرحيم محمود الوقفى والشيخ علي السباعي على قراءتهما الكتاب قبل طبعه والله نسأل أن يجعله كتاباً مفيداً لأهل العلم ومحبى الإطلاع ، آمين .

محمود عابدين   سليم حسن

مقدمة المؤلف

يشمل هذا الكتاب نظرة عامة في تاريخ أسرة المماليك الذين إبتدأ حكمهم ببيبرس عام ١٢٦٠ م. وإنتهى على يد السلطان سليم العثماني عام ١٥١٧ م، كما يتمم تاريخ الخلافة العباسية إلى الوقت الذي إستولى فيه سلاطين العثمانيين على لقب الخلافة .

وإني يسرني بداءة الأمر أن أعترف بالشكر الجميل للمرحوم الدكتور ويل فاني مدين له بمواد هذا الكتاب إذ إقتبستها من كتابيه الأخيرين من مؤلفه العظيم «تاريخ الخلفاء» فقد وفق هذا الكاتب العالم ، بما أوتى من مهارة وما بذل من مجهود ، أن يجعله كتاباً جامعاً شاملاً ، وهو لم يكتف بالإشارة إلى المصادر التي إستقى منها وإعتمد عليها بل كان يقتبس ما هو هام بعبارة المؤلف وكلماته نفسها .

ومعظم هذه المصادر حصل عليها الدكتور ويل من المخطوطات اليدوية العربية النادرة الوجود بعد العناء والبحث الطويل في دور كتب جوتا ومونيخ وبرلين وليدن وباريس . وفيما عدا حوادث الخمسين عاماً الأخيرة من تاريخ هذه الأسرة (التي إعتمدنا فيها تاريخ ابن إياس وكتاب الأتراك) فأن هذا التاريخ قد إعتمد في تحقيقه على ما خطه الكتاب المعاصرون الذين من أشهرهم :

أبو الفداء	ولد عام ١٢٧٣	وتوفي عام ١٣٣١ م.
النويوري	ولد عام ١٢٨٠	وتوفي عام ١٣٣٢ م.
ابن بطوطة	ولد عام ١٣٠٢	وتوفي عام ١٣٧٧ م.
المقريزي	ولد عام ١٣٥٨ أو ١٣٦٤	وتوفي عام ١٤٤١ م.
أبو المحاسن	ولد عام ١٤٠٩	وتوفي عام ١٤٧٠ م.
ابن إياس	ولد عام ١٤٤٨	وتوفي عام ١٥٢٤ م.

ونحو أثني عشر غير هؤلاء . ولكن أوثق هذه المصادر المذكورة الثلاثة الأخيرون . وقد ترجم م. كاترمير[١] جزءًا من كتاب المقريزي المؤرخ الكبير ، الخاص بعصره وبالأزمنة السابقة له الى الفرنسية . والكتاب على العموم نفيس جداً لأن كثيراً من فقراته الهامة قد ذكرت باللغة الأصلية العربية كأنها حواشٍ أو ملاحظات .

والمقريزي (سمى بهذا الاسم نسبة إلى الجهة التى نشأت فيها إسرته في بعلبك) كان من أهل مصر ، وكان يشغل مركزاً في شرطة القاهرة ، وكان مراقباً على الهبات في دمشق . وكتاباته الكثيرة لها مكانتها العظيمة من الإحترام ، وتمتاز سجلات حوادث الأزمنة السابقة بأنها نتيجة بحث مجهد وتدقيق تاريخي . أما حوادث زمنه فكان فيها شاهد عدل فذكرها غير متحيز .

أما أبو المحاسن فقد عاش بعد المقريزي نحو ثلاثين سنة ؛ وهو ابن الأمير تعري بردي الذي كان مملوكاً يونانياً للسلطان برقوق . وقد لعب أبوه هذا دوراً هاماً في الحوادث التي وقعت للسلطان فرج . وقد عفا عنه مرة

(١) وجزء من هذا نشرته إدارة الترجمة الشرقية في جزأين . باريس ١٨٣٧ و ١٨٤٠ .

برجاء أم هذا السلطان وهي من سبي اليونان أيضاً . وأبو المحاسن باعتباره مؤلفاً مكثراً قوى الذكاء يوثق به كثيراً . وله ميزة خاصة هي إستمراره بعد المقريزي في تكميل تاريخه . وقد كان محبباً إلى بيت الملك ، وقد يدع هذا سبيلاً للشك في حكمه ، ولكن يقطع طريق هذا الشك كونه عالماً مؤرخاً معاصراً .

أما ابن إياس فهو الكاتب العمدة الوحيد الذي نجعل إعتمادنا عليه في تاريخ الجزء الأخير من إسرة المماليك ، وبما أنه عاش بعد سقوطها فكتابه يمدنا بمعلومات قيمة عن عصر تعوزنا فيه الكتب الأخرى[1] .

وهذا رأى الدكتور ويل في التاريخ الذي كتبه ، وقد ذكره في مقدمة الجزء الخامس ، قال : «هذا الجزء مثل سابقه قد خصص جله لتاريخ مصر وسورية ، ولكن القارىء سيجد أيضاً شيئاً خاصاً بالولايات الآسيية المجاورة مثل إسرات تيمور وعثمان والتركمان وبنى ذى الغادر وكرمان وشريف مكة ، وكذلك فيه بحث دقيق طريف في علاقات سلاطين المماليك برودس وقبرس والبرتغال والبندقية والبابوية وبعض ممالك أوريا الأخرى . وإني على يقين تام من أن هناك أشياء كثيرة لا زالت تستدعى التفصيل والشرح الطويل بدرجة أكبر مما في المصادر التي بين يدى ، وكان في مقدوري أن أملأ الفراغ بالحدس والتخمين وأضعه في قالب تاريخي ولكنى لم أرد أن أضع كتاباً بهذا الشكل ، بل أردت أن أشرح يسهولة حوادث ووقائع كثير منها مجهول إلى الآن ، وكان لا بد لى من جمعها من المخطوطات المبعثرة ثم أعرضها للتحليل والنقد . وأن القاريء الكريم سيتجاوز عن هفواتى لما لقيت في هذا العمل من مشقة إذ ليس له أن ينتظر من المستشرق ، الذي كان عليه أن يستخلص مثل هذه المواد الجديدة من منابعها ، مؤلفاً تاماً شاملاً كالذي

(١) نشر كتاب ابن أياس في ثلاثة أجزاء في القاهرة . وقد حصلت على نسخة منه بفضل أرتين باشا ، ولكن ذلك كان بعد اتمام هذا الكتاب ولذا لم أستفد منه شيئاً يذكر .

ينتظره من المؤرخ الذي وجدها كاملة تحت يده» .

فاذا كان ما تقدم هو إعتراف المؤلف بالتواضع ، عند نظره إلى مؤلفه الذي إعتمدت أنا على ما فيه من مادة في إخراج كتابي هذا ، فلي الحق أن أطلب إلى قرائي نظرة العطف والصفح . وقيمة هذا الكتاب تنحصر في أنه وضع ليسد ثلمة في لغتنا[1] ، ثلمة في تاريخ أسرة من السلاطين الأرقاء النشأة الفريدين في تاريخ العالم .

ولما كانت أسرة المماليك تسير في خطوات صلاح الدين وخلفائه ـ إذ أنها نشأت في الحقيقة من سلطنة الأيوبيين ـ كانت لها علاقة مباشرة بالأيام الأخيرة للحروب الصليبية ، ولبيان هذه العلاقة تجاسرت فوضعت تمهيداً لهذا التاريخ جزءًا من محاضرة تشتمل على سرد حوادث تاريخية للمشاحات الطويلة، مشاحات«جنود الصليب» ونتيجتها الختامية . ولعل القارىء يجد هذا مفيداً في الإبتداء إذ أنه يفسر أصل ومنشأ القواد الذين كان عليهم أن يقضوا القضاء الأخير على المجهودات التي كانت في النزع الأخير لجيوش المسيحية السيئة القيادة مع حسن إستعدادها .

وتجد في دائرة المعارف البريطانية مقالاً قيماً عن مصر وهو مقال جدير بالاعتناء وله قيمة خاصة من جهة إرتباطه بأواخر عهد أسرة المماليك ومصيرها . وكذلك نشر البعث الأثري الفرنسى جملة نشرات شيقة جداً زينها بالصور عن العصر الذي نتكلم فيه وقد إستعرت بعضاً منها . وهناك أيضاً بحث ممتع في رسالة وضعها م. ماكس هرتز عن متحف القاهرة محلاة بالصور متعلقة بما إحتوي من الآثار .

---

(١) هكذا يقول المؤلف عن لغته الإنجليزية الغنية بمؤلفاتها في كل علم وخاصة في التاريخ فماذا عسانا نقول نحن وليس في كتبنا التاريخية ما يملأ مثل هذا الفراغ أو يبحث في عصر كالذي ترجمناه بحثاً مستفيضاً خاصاً ؟ إننا نأمل أن يقدر القراء الأفاضل قيمة هذا السفر الذي نقلناه إلى العربية خدمة للعلم .

وفي الختام لا يسعنى إلا اسداء شكري إلى صاحب السعادة يعقوب أرتين على ما نشره عن القاهرة وأسرة المماليك ، وعلى الصور الشمسية لبعض الأبنية القديمة التي أوردنا نماذج لها في هذا الكتاب ، وأضاعف شكري له على مذكراته البديعه في عادات المماليك والتي تجدها في الملحق الثاني في ختام الجزء الثاني من هذا الكتاب .

جامعة ادنبرغ عام ١٨٩٥

و٠م٠

تـمهـيـد
مختصر تاريخي للحروب الصليبية

(مقتبس من محاضرة ألقيت على طلبة جامعة ادنبرغ عام ١٨٩٤ م.) .

تجد الفقرة التالية في مقدمة كتاب نهوض وإنحطاط وسقوط الخلافة :

وقد يجوز لي أن آسف في هذا المقام ، إذ لا يوجد كتاب جامع شامل ثقة في لغتنا ، في الحروب الصليبية وفي أسرة المماليك ، وإسقاط العثمانيين لها . وهذه فصول ليست شيقة في موضوعها فحسب ، بل شيقة أيضاً لارتباطها بشئون الكنائس الشرقية وبانماء العلائق السياسية بين أوروبا وآسيا ومصر .

إني أريد أن أوجه نظرك إلى هذا الموضوع مبيناً النقص الحالي في أدبياتنا ، مشيراً إلى المصادر التي يمكن الإعتماد عليها فيه ، حاثاً على البحث في الموضوع : في لغتنا تاريخ «جبون» لهذا العصر وهو مع أنه جلي ومفيد ، ومع ما فيه من محاسن كثيرة لايزال يعد نتفاً غير تامة . وهو في ذلك مثل سائر المؤلفات الإنجليزية بل هو في الحقيقة مثل معظم المؤلفات الأوربية قد كتب من وجهة نظر غربية . وخير كتاب متقن شامل في هذا الموضوع هو كتاب ولْكِنْ الذي جاء في ثمانية مجلدات . وليس في وسع أي طالب أن يدعى العلم الكامل بهذا التاريخ من وجهة النظر الشرقية أو الغربية

من غير أن يدرس هذا المؤلف دراسة تامة[1] . وأهم من هذا من الوجهة الشرقية «تاريخ الخلفاء[1]» تأليف ويل الذي يعد إلى هذا العصر (الخلافة العباسية إنحطت وأمحت من الوجود تقريباً) تاريخاً حقيقياً للأمبراطورية الشرقية : السلاجقة والمغول والمماليك . والجزء الأخير من مجلد ويل الثالث وأول المجلد الرابع ضروريان لمعرفة الحروب الصليبية المتتابعة وعلاقاتها بانتهاء أسرة السلاجقة وبظهور أسرة أُرتك وسقوط الخلافة الفاطمية ونهوض أسرة المماليك .

لم يتعمق كاتب من الكتاب تعمق ويل في مؤلفاته الشرقية التي كثيراً ما تخالف ما كتبه مؤلفو الغرب في هذا الموضوع ، أو بعبارة أخري التي تناولت الحروب الصليبية المتتابعة بحثاً وتدقيقاً من وجهة آسيية ومصرية . ولهذا أوصى كل طالب يريد الإضطلاع بهذا الموضوع أن يتقن معرفة كل ما كتبه ولكن وويل فيه .

وإني أرى أن سرد كل الحوادث وشرحها في محاضرة كمحاضرتنا التي كل الغرض منها توجيه النظر إلى تاريخ الحروب الصليبية ونتائجها ، مما لا داعي إليه . وعلى هذا سأقتصر على إيراد لمحة تاريخية مختصرة . . . .

تتضح لنا أهمية دراسة الموضوع (أولاً) عندما نتذكر أن بيت المقدس

---

(1) Geschichte der Kreuzzüge nach Morgenländischen und abendlandischen Berrichten, 1807 - 1832.

إني أمتدح قراءة هذه الأجزاء الثمانية مع أنها طويلة مملة ، وأحث على قراءتها كل إنسان يبغي الحصول على المعلومات التامة في هذا الموضوع .

(1) Geschichte der Chalifen ,von dr . Gustav weil .

السلسلة الأولى ثلاثة أجزاء ، ١٢٤٦ و ١٧٥١ من ظهور الإسلام إلى آخر الخلافة العباسية والسلسلة الثانية تشمل أسرة المماليك إلى غزو العثمانيين لهم ـ المجلدان الرابع والخامس ، ١٨٦٠ ـ ١٨٦٢ .

كان في قبضة ملك مسيحى نحو قرن من الزمان ، وأن سورية حكمها حكام مسيحيون نحو قرنين أي من عام ١٠٩٧ إلى عام ١٢٩١ م. وذلك حينما سقطت عكاء وأخرج الصليبيون من البلاد و(ثانياً) عند ما نتذكر أن الجماهير الكثيرة التي نزحت مدة قرنين من الزمان من ديارها إلى فلسطين قد بلغ عددها جميعاً مالا يقل عن بضعة ملايين . ويجب ألا ننسى التأثير العكسى (رد الفعل) الذي حدث لأوربا إذ له أهمية تاريخية عظيمة .

نشأت أول فكرة لحرب صليبية من الرغبة في حماية الحجاج الذاهبين إلى البلاد المقدسة وقد زاد عدد هؤلاء الحجاج زيادة ظاهرة خلال القرنين العاشر والحادى عشر وذلك لسببين : إنتظار ظهور المسيح على رأس الألف من التاريخ الميلادي ، وإعتناق البلغارين للدين المسيحى وهو ما مكن الحجاج أن يسيروا آمنين في بلادهم في ذهابهم إلى القسطنطينية ، ثم إلى سواحل فلسطين فيتقون بذلك مخاطر السفر في البحر . ونحن نعلم أن إحدى هذه الحملات خرجت في منتصف القرن الرابع وعددها سبعة آلاف فلم يرجع منهم غير الربع ، وان ما أتاه الحاكم ببيت المقدس من المظالم ، وما جاء به السلاجقة الذين إستولوا بعده على بيت المقدس عام ١٠٧٠ م. قد جرح قلوب أهل العالم المسيحى وملأها حفيظة ، وكان بطرس الناسك بأخباره المفصلة المروعة ، يثير ما كمن في صدور الناس جميعاً حتي خشاشهم من رغبته في الإنتقام . وعمل البابا أوريان في مجمعى بلاشنزا [١٠٩٥ م] وكليرمنت على إهتياج عواطف ألوف من رجال الدين وعامة الناس وأثارة نخوتهم وحماسهم . وقد وعد هذا البابا بالخلاص وتكفير الذنوب والمساعدة الربانية كل من إشترك في هذا العمل ، وبشر شهداء الصليب بأن لهم الجنة ، فكانت نتيجة هذه العوامل عظيمة جداً ، وكان نداؤهم الحماسي «الله يريده» يرن صداه في كل الأرجاء فهرع الناس رجالاً ونساء وأطفالاً من كل حدب وصوب ليتسموا بسمة الصليب باعتبارهم حجاجاً ، وقام الإستعداد على قدم وساق لكل الفرق من مختلف البلدان ، على أن يكون موعدهم القسطنطينية في قابل .

[١٠٩٦ م] وخرجت في الحال الطبقة الدنيا في جموع غفيرة متبعين بطرس الناسك وغيره من القواد ومدفوعين بالتعصب الشديد ، ولكن لم يلبثوا أن ظهروا عبيداً للشهوات والميول الدنيئة . ساروا جماعات جماعات مخترقين هنكاريا (المجر) فجر عليهم سلوكهم الشائن سخط أهل البلاد فثاروا عليهم وأبادوا العدد الأكبر منهم ؛ وهذا أمر لم يكن منتظراً ؛ كانت أولى الجماعات بقيادة ولتر ، والثانية بامرة بطرس . ومالوا جميعاً كل الميل للنهب والسلب ، ولم يصل إلى القسطنطينية منهم غير النزر اليسير . ومن هناك عبروا إلى بيتينيا وإستولوا على نيقية ؛ وعند ذلك ظهر الحسد والمنافسة بين الأجناس المختلفة منها فمزقها الأتراك شر ممزق وجعلوا من عظامهم هرماً . وهذا كان نتيجة لازمة لسوء إستعمال غيرتهم . وقد نجى القيصر عدة آلاف ؛ ولكن الفتيان والفتيات ، الذين كانوا فاتحة محزنة ، أخذوا إلى (البلاط) التركي . وبعد ذلك قام جيش عدده خمسة عشر ألفاً ، وآخر عدده عشرون ألفاً ، وساروا في طريق جرمانيا . وهناك جردوا سيوفهم وأتوا من الفظائع مع اليهود ما لم يسمع به فأستاء الناس منهم وإقتفوا أثرهم إلى المجر يذبحون ويقتلون ؛ غير أن بقية منهم هربت إلى القسطنطينية والباقون ، وهم عدد داع السخرية ، عادوا أدراجهم إلى أوطانهم ؛ ولهذا قال جبون «قد فقد هؤلاء الصليبيون ثلثمائة ألف قبل أن يخلصوا مدينة واحدة من يد (الكفار) ، وقبل أن يتم اخوانهم الصليبيون الذين هم أرون وأنيل ، استعدادهم» .

الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٧ م

كانت تلك المأساة سبباً في إستعجال قيام القوات الجديدة المنظمة وعددها ستون ألفاً غير النساء والقساوسة وذيول المعسكرات . وكان قواد هذه الحملة أمراء عظاماً يحيط بهم أتباعهم وجماعات من الفرسان ، فان «الحروب الصليبية في ذلك الوقت كانت نتيجة وسبباً لهذا النظام العجيب

نظام الفروسية» . سار هؤلاء جماعات ثلاثاً كما فعل التعسون الذين من قبلهم ، وفي نفس الطريق التي سلكوها ، فوصلوا بعد لأى وتكبد خسائر عظيمة إلى البسفور فقابلهم القيصر ألكسيوس بعداء وقد وقع بين هذا الجيش وبين الاغريق كثير من المناوشات قبل أن يعبروا إلى آسيا الصغرى .

وكان طريق اليونان هو الطريق المعروف في ذلك العهد إلى آسيا الصغرى حتى أن كل الحملات التي تتابعت عدة سنوات ، منظمة وغير منظمة ، كانت تسير فيه متجهة نحو سورية . ولكن إتخذ الصليبيون فيما بعد طريقاً سهلاً هو طريق البحر فلا عجب أن نرى الآن الكسيوس قد روع كثيراً [١٠٩٧ م] من دوام مرور الجموع المسلحة ببلاده . والواقع أنه كثيراً ما طلب من الدول الأوربية العظيمة المساعدة على الترك ولكن الحال المنغصة التي جاءت بها تلك الجموع التي يخطئها العد أدخلت على قلبه الخوف ، هذا إلى أن الحسد الذي جعل البلاط البيزنطى يعوق تقدم الصليبين أثار حقدهم فأدى أخيراً إلى ضياع المعقل الشرقى للدين .

وحوالى ختام عام ١٠٩٧ م. نقص عدد القوة الفاتحة الغازية وهي في طريقها إلى آسيا الصغرى بسبب القتال والفرار إلى أن صار ثلثمائة ألف مقاتل فنزلت على أنطاكية ثم إستولت عليها عنوة بعد حصار دام تسعة أشهر . [١٠٩٨ م] وكذلك إستولت على أذاسا وما حوالها . وبعيد ذلك كانوا عرضة لخطر عظيم جداً من السلاجقة ولكنهم تمكنوا من ردهم نهائياً . ثم قام بعد زمن قليل عشرون ألف جندى يتبعهم مثلهم من الحجاج وساروا محاذين لساحل الأرض المقدسة من غير أن يلقوا مقاومة . وقد وصلوا في منتصف الصيف إلى بيت المقدس الذي كان تحت يد الفاطميين فحاصروه سبعة أسابيع ثم إستولوا عليه عنوة فسالت الدماء أنهاراً داخل المدينة المقدسة ، ولجأ اليهود [١٥ يوليه ١٠٩٠ م] إلى معبدهم فأحرق عليهم فماتوا وسط اللهب . وفي خلال ثلاثة الأيام التالية قتل سبعون ألف مسلم لم تراع فيهم حرمة للشيوخ أو النساء . وبعد أن أشبع جنود الصليب شهواتهم الوحشية أوفوا بنذورهم وقبلوا الحجر الذي

كان قد غطى المسيح الذي قال «إن مملكتى ليست من هذا العالم وإلا لما قاتل أتباعى» . وقد كانت الميزة العجيبة لهذه الحرب المقدسة ، الوحشية والقساوة اللتان سارتاً جنباً لجنب مع التقوى المشوبة بالتعصب . وسنرى بعد أن الحسد والخصام والخيانة والطمع والخلاعة والدعارة كثيراً ما كانت تفشو كلها بين رجال الدين وغيرهم طوال هذه الحروب الصليبية . وكانت بالفعل عاملاً من العوامل الهامة التي قضت نهائياً على الدعوة قبل الأوان .

وقد إنتخب جودفرى وقتئذ ملكا ، وبهذا نرى أن أميراً مسيحياً ، مع أنه ضعيف وفقير ، ولم يكن إلا واحداً من البارونات المستقلين الذين ملكوا المدن والمعاقل في الأرض ، جلس على عرش المدينة المقدسة مدة ٨٨ سنة حتى سقطت على أيدى جيوش صلاح الدين .

وقد غزا الصليبيون في بادىء الأمر الجزء الأكبر من سورية ولكنهم لم يفلحوا مطلقاً في الإستيلاء على دمشق وكان خلفاء بغداد إذ ذاك يعتمدون إعتماداً مزرياً على السلاطين الشرقيين فلم يهتموا أبداً بالحرب الصليبية وكان السلاجقة مشغولين بتنازعهم وتحاسدهم فلم يوجهوا جيشاً إلى الأراضى المقدسة ، ولكن حكاماً من نسلهم وأمراء من العرب النازلين في الأرض المجاورة قاتلوا الصليبيين من حين إلى آخر قتالاً عنيفاً كان النصر فيه سجالاً . وفي وقت ما لاح أن تُنكِرد ، وبَلْدُوِين كانا سيقضيان على كل ما أمامهما ، ولكنهما على عادتهما ، إنقسم بعضهما على بعض . وقد إنقسم الصليبيون إلى حلفين يناصر كلاهما جنود مسلمون قاتلوا قتالاً شديداً أصاب شره الفريقين . وقد أصبح تنكرد سيداً في سورية حتى أن رضوان [١١١٢ م] وغيره من أمراء السلاجقة أرادوا أن يدفعوا إليه أموالاً كثيرة إغراء له على مهادنتهم ، غير أن هذا النجاح ما عتم أن أزعج أهل الشرق . ومع أن خليفة بغداد لم يعر إستصراخهم إياه أذناً مصغية . فأن المسلمين جمعوا جيشاً عظيماً ووفقوا إلى طرد الصليبيين الذين كان يقودهم بلدوين بشجاعة ، وفر هو أمامهم . ولكن هذا الجيش الظافر دب الإنقسام بين رجاله فانفصمت عرا [١١١٨ م] إتحاده فاستطاع الصليبيون ، مع ما هم عليه من الضعف وفقدانهم معاقل

كثيرة ، أن يقاوموا . وحوالى هذا الوقت أيضاً قام بلدوين الأول بغارة مظفرة على مصر وكان على وشك أن يستولى على القاهرة لولا أن عاجله الموت .

وفي خلال هذه العشرين السنة الأولى من الحروب الصليبية كان يتدفق بانتظام على الأرض المقدسة سيل من الفرسان وجنود الصليب . وكثيراً ما كانوا يفقدون جموعاً عديدة . ونخص بالذكر من بين هؤلاء ريموند الذي [١١٠٣ م] زحف بجيش عدده ثلثماية ألف جندي وحاول أن يدور من شمال آسية الصغرى لمهاجمة بغداد ولكنه شتت تشتيتاً مروعاً فى أرمينياً حتى لم يفلت من جيشه إلا عدد قليل لجأ الى شواطيء البحر الأسود . وكذلك حق الفتك على جيشين عظيمين أحدهما بلغ عدده مائة ألف جندي فمزقا شر ممزق في محاولتهم العبور من البسفور . فالمرور من أسية الصغرى إلى سورية ، ومن أخطأه الموت من هذين الجيشين ، ذكراناً أو اناثاً ، شيباً أو شباباً ، بيعوا بيع الرقيق . كذلكم كانت الغيرة الوحشية العمياء التى بها أجج البلاط البابوى النيران في العالم المسيحى بدعوى أنها وعود سماوية .

والآن نأتى على ذكر عصر إستفاد فيه أمراء الحدود من الخلاف الذي وقع في بيت السلاجقة وبدأوا ينزلون أولى الهزائم الحاسمة والضربات التى إنتهت بابادة الصليبين : فأن هؤلاء الأمراء أثاروا من حولهم من السكان المسلمين فكانت نتيجة عملهم سيئة على الافرنجة الذين هزموا مراراً وتكراراً . قامت قبيلة أرتك وعلى رأسها الغازى فهزموا روجرز حاكم إنطاكية وقد ساعدهم السكان حتى المسيحيون فأستولوا على المدينة حيناما ، وبعد ذلك إستعد الفريقان لمعركة «دانيت» الدموية . وفيها هزم [١١١٩ م] المسلمون الصليبيين هزيمة منكرة فقتلوا منهم عدداً عظيماً من الفرسان والحاكم روجرز نفسه الذي تروى عنه في إعترافه الأخير قبل وقوع القتال [١١٢٣ م] عبارة مؤثرة جداً . وفي مصيبة أخرى محزنة أسر جوسلين . أما الملك بلدوين فقد سيق مصفداً إلى حرّان ولم ينل حريته إلا بمعاهدة لم يستطع الوفاء بشروطها . وفي خلال هذه المصائب كلها لم ينجح الصليبيون إلا في [١١٢٣ م]

الإستيلاء على صور ، وفيما عدا ذلك لم يستطيعوا الإنتقام اللهم إلا بتخريب الأرض بقسوة .

وفي ذلك الوقت ظهر على المسرح عدو الصليبيين المخيف زنكى : كان زنكي أتابكاً أي خازناً عاماً في بلاط السلاجقة . وكان أيضاً مشغولاً [١١٢٦ - ١١٢٨ م] يشئون الخلافة العباسية في بغداد ، فلما أرتقى رئيساً في الموصل إشترك في غزوة على سورية فهزم الافرنجة أينما نازلوه وإستولى على كثير من معاقلهم ، وبينما هو متابع إنتصاراته إستدعى إلى بغداد فبقى فيها بضع سنين [١١٣٤ م] غارقاً في مشاغل الخلافة المتداعية للسقوط .ولما إستولى ١١٣٤ ـ ١١٣٥ م السلاجقة نهائياً على المدينة فر هارباً مع الخليفة إلى الموصل . وكانت أواسط آسية في ذلك الحين مسرح إضطرابات وثورات بين الغزنويين [١١٣٦ م] والغورانيين والأغوز والخوارزميين وغيرهم من قبائل التركمان الذين قضوا على أسرة السلاجقة ، فلما نفض زنكى عن نفسه غبار السيادة بسم الحظ له وأصبح حاكماً على الأراضى الواقعة غربي الفرات ، وعند ذلك نزل على سورية كأنه الريح القاصف وإجتاح الأقاليم المسيحية وأعمل السيف في الجيوش الصليبية فأخرجها مدحورة بعد أن قتل منها عدد عظيم وأسر الكثيرون من فرسانها ، وقد إقتفى أثر الملك فولكو حتى قبض عليه ، ثم عفا عنه الفاتح .

وحوالى ذلك الوقت كان القيصر قد تملكته الغيرة من الصليبيين [١١٣٧ م] لادعائهم ملك ولاية إنطاكية ، وأراد هو أن ينال لقب الحاكم عليها ، ذلك اللقب الذي اعترف له به عند أول فتحها ، فزحف بجنوده في آسية الصغرى وحاصر إنطاكية . ثم أنه إتحد هو وريموند ووجها جيشيهما البالغ عددهم مائتى ألف لمهاجمة حلب . فهال ذلك زنكى ، وقام يستصرخ الممالك التي حوله عليهما ، فجاءه المدد من جهات مختلفة ، من ذلك عشرون ألفاً من [١١٣٨ م] الجياد من بغداد ، وهي كل المساعدة التى أمدت بها الخلافة العباسية المسلمين مدة الحروب الصليبية . فلما أنس زنكى من نفسه القوة هاجم

العدوين المتحدين فدحرهما وردهما يتعثران في أذيال الخيبة إلى إنطاكية .
ثم أنه سير جنوده على دمشق ولكن حاكمها ، بمساعدة الفرنجة له ، (وهذا غريب) إستطاع المقاومة . وبعد أن إنتصر زنكى عدة انتصارات في كل البلدان المجاورة إستولى عنوة على أذاسا التي كان قد تركها جوسلين عزلاء فهب جنوده ما فيها وخربوا ما شاءُوا ، غير أن زنكى عطف على سكانها [١١٤٣ - ١١٤٤ م] المسيحيين وأسقفهم . وبعد ذلك بقليل قتل زنكياً مماليكه ، ففرح بذلك الصليبيون أيما فرح ، ولكنه كان فرحاً قصير الأمد ، ذلك أن جوسلين أسرع في العودة بفرسانه وإسترد المدينة بمساعدة الاغريق الذين نسوا بسرعة عدل زنكى وعفوه . ولكن ظهر لهم من هو أعظم من زنكى ، ذلك هو ابنه نور الدين أذ جاءهم من الأمام وهاجمهم في حين أن حامية حصن المدينة أوقعت بهم من الخلف ، ودارت رحا حرب إستمرت طول الليل ، وذاق الصليبيون فيها النكال وكادوا يفنون على بكرة أبيهم ، الإجوسلين ويعض الفرسان الذين أفسحوا لأنفسهم طريقاً بين الأعداء هاربين إلى ساموساتا . أما سكان إذاسا المسيحيون فقد كان نحس الطالع ينتظرهم ، لأن نور الدين ساءه منهم نكرهم للجميل فلم يرحمهم بل قتل منهم على ما يقال ثلاثين ألفاً ، وباع [١١٤٤ م] خمسة عشر ألفاً بيع الرقيق .

الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧ م

هبت أوربا بأجمعها عند سماعها بتلك الكوارث المروعة وأهاب البابا ثانية بالناس للجهاد في سبيل الصليب ، وقام برنارد كما قام بطرس الناسك من قبل وجعل أوربا تثور من جديد بالدعوة . وما هذا في الواقع إلا تكرار لما حدث من خمسين عاماً خلت . قاد لويس وكنراد الجيوش المتكاثفة ، التى تجمعت ، وساروا بقضهم وقضيضهم في موكب فاخر ومعهم عقيلات النساء فارتكبوا الفظائع مع اليهود في جرمانيا كما أرتكبها معهم من سبقوا . ولما وصلوا إلى أسية الصغرى كبدهم الأتراك خسائر عظيمة من جراء خيانة

القيصر لهم ، ولم يكدد يصل إلى الأرض المقدسة إلا نحو عشرهم . ومع هذا كان الفرنجة لا يزالون يتقوون بما يأتيهم من المدد حتى حاولوا الإستيلاء على دمشق[1] عنوة . ولكن بارونات المشرق قد رشاهم (نذكر هذا بأسف) الحاكم فلم يعملوا مع اخوانهم باخلاص وأمانة فتراجعت القوة خاسرة والقادمون الجدد من الصليبيين سئموا خيانة ودعارة من حولهم فحنوا إلى العودة ثانية إلى أوطانهم حنين الآسف المتألم . وأذا إستثنينا نجاحهم في الإستيلاء على عسقلان كانت هذه الحملة إحدى الحملات التعسة . هوجم بيت المقدس مرتين ، والأراضى التى حوله إجتاحها نور الدين ولم يبق غير بعض المعاقل القليلة في الشمال أو الجنوب للصليبيين الذين جرت عليهم منافساتهم بعضهم لبعض ، وكذلك حياتهم الرخيصة ، الهزيمة التى حالفتها ، وقد أساءُوا بما صنعوا إلى سمعة المسيحية . وفي إحدى المعارك ذُبح ريموند صاحب إنطاكية هو وكل أتباعه وسحب جوسلين الثاني في السلاسل أسيراً وبقى حتى أدركه الموت .

[١١٤٩ ـ ١١٥٢ م]

[١١٥٦ م]

وبعد أن إستولى نور الدين على دمشق تزايدت قوته يوماً بعد يوم ، وفي هذا الوقت عقد مهادنة مع الملك بلدوين فلم يرع هذا حرمتها ، وإنقض على معسكر إسلامى لم يكن يتوقع هذه الخيانة ، غير أن الفرنجة ما لبثو أن دفعوا ثمن هذه الخيانة غالياً ، ونجا الملك بحياته بكل صعوبة من يدى نور الدين ، ولكن قبض على كتيبة من فرسانه فشهر بهم في شوارع دمشق ، ثم قتلوا انتقاماً . ولما كان النجاح قريباً من الصليبيين كما حصل في محاصرتهم

(١) كان صلاح الدين حاضراً هذه المعركة مع أبيه . وأنه لمن العجب أن نسمع أن حماس الناس قد تحرك واشتد برفع مصحف عثمان اللذي فقد أخيراً في حريق الجامع الأعظم .... لست أرى وجهاً يدعو المؤلف إلى العجب من هذا والحرب دينية ، وتأثير الدين لا ينكره أحد في هذه الظروف . على أنه يذكر في حوادث عام ١١٧٦ في الحروب الصليبية الثالثة شيئاً مثل هذا فعله الصليبيون ولم يدهش له . وعلى كل حال فالمقام لا يستدعى هذا التعليق (المعرب) .

لقيسارية (الشمالية) ، أضاع عليهم فرصة نيله حسد البارونات بعضهم لبعض .

الحرب الصليبية الثالثة ١١٥٨ م

ولكن الروح الصليبية التى إنحطت أيقظها من رقادها ديتريتش الفلمنكى بمدد جديد . . وساعد على ذلك مرض نور الدين نفسه الذي كاد يؤسر في إحدى المعارك غير أن الحظ عاوده لأن رينولد ، في إحدى غزاوته في أرمينية ، وقع في يد الأعداء وسيق مكبلاً إلى حلب . ثم تلا ذلك سكون إستمر سنة أو سنتين . وقد إستفاد نور الدين من هذه الفترة بتقوية مملكته التي كانت تتزايد بسرعة وتتماسك أجزاؤها .

[١١٦٩ م] في هذا الوقت تظهر مصر على المسرح لارتباط نتيجة هذه الحرب الصليبية بها : ففي شيخوخة الدولة الفاطمية تطلع إليها كل من نور الدين والملك أملريك ، فما كان من وزير الخليفة إلا أن استعان بأحدهما على الآخر ، فغزا كل منهما الديار المصرية الواحد بعد الآخر . وفي نهاية الأمر أمضيت معاهدة ودية مع الاثنين ، ولكن أملريك كان أول من نقض ميثاقه الذي عاهد المصريين عليه وأطلق يد النهب والتخريب في المملكة وانتزع من البلاط الهدايا انتزاعاً ، فاستغاث الخليفة التعس بنور الدين وأرسل قائده شيركوه للنجدة فتسلل أمامه أملريك مخذولاً ، وبذا أصبح شيركوه صاحب الكلمة . وبعد ذلك بقليل خلفه في مركزه ابن أخيه صلاح الدين . وفي قابل [١١٧٠ م] مات الخليفة فانتهت بموته الدولة الفاطمية[١] وأصبح صلاح الدين حاكم مصر ، وهو من دم كردي . ومع أنه كان بادىء أمره جندياً صغيراً ، لم يلبث أن أظهر نفسه ونبه في مدافعة الفرنجة في دمياط بمقدرة فائقة ؛ ثم سرعان ما ظهر بمظهر الحاكم القدير في السياسة والحرب ، فحسد نور الدين نائبه على

(١) بعد أن عمرت ٢٧٢ سنة .

ظهوره بمظهر المستقل في مصر ، ودعاه إلى الخضوع مراراً فتحرج مركز صلاح الدين باطراد ، إلا أنه لحسن الحظ نجا من الخطر إذ مات في تلك الآونة نور الدين ذلك الأمير العظيم المخلص الصادق وبذلك بقي صلاح الدين سالماً آمناً في مصر حيث امتاز حكمه بفتح المدارس وإقامة المستوصفات وغيرها من الإصلاحات . [١١٧٤ م]

[١١٧٦ م] بسم الحظ لصلاح الدين بوقوع الشقاق بين أفراد أسرة نور الدين فأستطاع أن يمد نفوذه في سورية ، ومازال يزيد فيه حتى بلغ أرض الجزيرة (ميزوبتاميا) والموصل . وقد إستدعى إلى سورية لقيام الفرنجة بغزوها من جديد إذ كانوا قد وصلوا إليها جماعات من طريق البر والبحر وإستطاعوا في بادىء الأمر أن يتغلبوا على كل ما أمامهم بفضل سر (بقية من الصليب المقدس) كانوا يحملونها ، ولكنهم ، كما هي عادتهم ، أضاعوا مجهوداً في المشاحنات ، وفي القيام بغزوات لا فائدة فيها . ولما هوجموا لدى بانياس هزموا هزيمة منكرة . وقتل هنفروى وعدد كبير من الفرسان ، وقد دمرت [١١٨٠ م] عليهم القلعة التى بنوها على الأردن ليهددوا بها دمشق . وفي إحدى المواطن نجا الملك بحياته بصعوبة بالغة . وهوى الفرنجة بسرعة . وأصبحوا لا حول لهم ولا طول . وكان أوصياء العرش في ذلك الوقت (كما يقول جبون) على التتابع ما بين معتوه وطفل وامرأة وجبان وخائن . أما البارونات والفرسان مهما كانت طبقتهم فلم يكن همهم غير التنازع على السيادة ، والواقع أنه قضى عليهم الشره والغيرة والخصام والمبالغة في الترف ـ وهؤلاء الحماة الدنسون هم حماة الأرض المقدسة : أما البولانيون أيضاً (وهم ذرارى النصارى من أمهات وطنيات شرقيات) فأنهم كانوا قد شبوا حينذاك ونشأوا خاملى الذكر متمردين فزادوا في خطر الفرنجة والعجب أن المملكة ظلت متماسكة طول هذه المدة مع أن هذا لم يكن في الواقع ليحدث لو لم يستمر توافد عدد من الفرسان والحجاج على تلك البلاد من عام لآخر ليدافعوا عنها . ومع ذلك نرى الحالة تصل إلى خاتمة محزنة .

[١١٨٢ م] ولما قنع صلاح الدين بانتصاراته تهادن ورجع إلى مصر ، ولكنه لم

يكد يستقر بها حتى إستدعى إلى الحجاز للانتقام من رينولد لاغارته على ضواحى الأرض المقدسة ، بعد أن جهز أسطولاً في أيلة ، وخرب سواحل [١١٨٣ م] مكة والمدينة ، فذهبت إليه قوة دحرته ، فرد على أعقابه بخسائر عظيمة ، ووقع في الأسر عدد كبير من أتباعه على الولايات أمام محراب منى . [١١٨٦ م] وغضب صلاح الدين لامتهان دينه فأنتقم بالاغارة على الولايات الصليبية . ثم لما وجد نفسه آمناً في كل الشرق جمع الجموع من كل البلدان وهم بالقضاء على حكم الصليبيين القضاء الأخير . وكان غضبه عظيماً جداً على رينولد بصفة خاصة ، لا لمهاجمته بلاد العرب فحسب بل لتكرر قبضه على قوافل المسلمين الذاهبة إلى مكة لآداء فريضة الحج ، مخالفاً نصيحة ريموند الذي تصالح أخيراً مع صلاح الدين . وقد سار الملك ويت إلى طبرية حيث كان صلاح الدين نازلاً بعد إستيلائه عليها ، وحيث كان يغزو ما حولها ، فتراءت الجيوش لدى حطين حيث هزم الصليبيون هزيمة منكرة من جرّاء [١١٨٧ م] الدخان والحرارة الشديدة المتصاعدة من الحشائش التي أحرقها المسلمون فعميت أبصارهم عن مشاهدة المسلمين . وقبض على الملك وعلى عظيم الهيكليين ، وكل من بقى صاروا أُسارى . وقام صلاح الدين نفسه بذبح رينولد براً بقسمه الذي أقسم به ، وبيع الاسرى بيع الرقيق . أما فرسان الطائفتين فقد قطعوا إرباً إرباً على مشهد من صلاح الدين ، إنتقاماً منهم على إغارتهم على البلاد المقدسة ومهاجمتهم حجاج المسلمين . وأخذ الملك وحده باحترام إلى دمشق ، وإطلق سراحه بعد أن وعد بتسليم عسقلان .

إستولى صلاح الدين وقتئذ على الأرض ، وإسترد معظم المعاقل التى كانت باقية في حوزة الصليبيين ، ولم يرد أن يحاصر المدينة المقدسة ، وقبل أن ينزل عن شيء إذا سلمت إليه من غير حرب . فرفض طلبه ، فأحاط ببيت المقدس في آخر الأمر ، وبعد حصار دام ثمانية أيام ضعفت عن [اوكتوبر ١١٨٧ م] المقاومة ، وسلمت المفاتيح إلى صلاح الدين وعند ذلك صاح السكان التعسون[١] صياح الألم والضجر وولول النساء اللابسات الخيش فأن الأمكنة

(١) هم السكان المسيحيون .

المقدسة قد دنست ، وحولت الكنائس إلى مساجد ، وكسرت الصلبان . وحطمت النواقيس ، غير أنه سمح للناس بالهجرة نظير دفع فدية قليلة . وقد إمتدح بحق سلوك صلاح الدين وسلوك أخيه العادل في تلك الآونة لرأفتهما ورعايتهما لفقراء المسيحيين ولاعداد معدات الرحيل لهم .

[١١٨٨ م] وقد عرف صلاح الدين كيف يستفيد من إنتصاره ذلك . فلم يترك شيئاً هاماً من سورية في يد الصليبيين سوى أنطاكية وصور وطرابلس . وقد حوصر بومند في أنطاكية ، ولكنه عندما أطلق سراح كل الأسارى المسلمين الذين كانوا تحت يده ، ووعد أن يتراجع إذا لم يأته المدد في الحال ، منحه صلاح الدين مهادنة لمدة سبعة أشهر . على أن حملة صليبية أخرى كانت قريبة لأن ضياع بيت المقدس ، وإنتهاك حرمته بعد أن بقي عاصمة مسيحية نحو قرن ، وذبح الفرسان ، وضياع سورية كل هذا وقع كالصاعقة على أوربا فقام البابا يصدر نشراته ودعوته من جديد ، مبشراً بمساعدة الله ونصره (متناسياً في ذلك الماضى) ، وفرض على الناس أحمالاً ثقالاً منها (عشُر صلاح الدين) الذي لا تزال بقاياه دخلاً مقبولاً إلى خزانة روما . وكان لدعوة البابا صدى في كل أنحاء أوربا ، ومع أن روح التذمر كانت بادية في أول الأمر ، ولا سيما لعدم اخلاص البولانيين ، فأن الجماهير تجمعت أخيراً وخرجت كمن سبقهم للحرب الصليبية .

الحرب الصليبية الرابعة ١١٨٩ م

خرج الناس لهذه الحرب ورائدهم القسوة والتخريب . ومعظم هذه الحملة سلك طريق البحر ، والباقون طريق البر ، فاقتتلوا مع الاغريق كما إقتتل الذين من قبلهم من مائة عام خلت ، وقاسوا الأخطار والحرمان مثل ما قاسوا ، ولم يصل منهم إلى الأرض المقدسة إلا قليل كان مدداً للفرنجة ، ثم هاجموا جميعاً عكاء ، فأوقع بهم صلاح الدين خسارة كبيرة ولكن لما رأى كثرة عددهم تخاذل عنهم وإنسحب من الميدان متقهقراً . أما الفرنجة فحاصروا المدينة بحماسة وتحمل الجنود بشجاعة ألم الجوع والمشقة وهم

محتفظون بمراكزهم حول المدينة . ولكن رجع الفرنجة إلى ما إعتادوه من خلاف : مثال ذلك أن قلب الأسد والملك ويت إصطفا مع جنودهما حاملين أسلحتهم في وجه كنراد وفيلب ملك فرنسا . وحدثت نفس تلك القصة المخزية في جميع الجيش الذي هو خليط من متعصبين وآثمين وأتقياء ومن أهل الرذيلة والشغب . وبعد سنتين إضطرت الحاجة الحامية الإسلامية إلى [١١٩١ م] أن تسلم بشروط ملائمة ، إحترمها صلاح الدين وعمل بموجبها فأطلق سراح الأسارى المسيحيين ، في حين أن رتشارد القاسى عرض الحامية كلها ، وعددها ثلاثة أو أربعة آلاف ، للموت إلا من إستطاع منهم أن يدفع فداء كبيراً . وبعد حروب جديدة إنتقم فيها صلاح الدين من كل صليبى وقع في قبضة يده ، وبعد ضياع عسقلان (التى إستولى عليها صلاح الدين ومحا [١١٩٣ م] أثرها من الوجود على كره منه لدرء الخطر عن مصر) ، تم الإتفاق بين المتحاربين على مهادنة تدوم ثلاث سنين ، ولكن بعد ذلك بقليل مات صلاح الدين . وإنه لذلكم الأمير النبيل . . . والحق أن حياته الفاضلة لا توازن بحياة نور الدين لأنه كان وديعاً ، عظيم الإحتمال والصفح ، وإن كانت تحرك نفسه الآمال الكبار والروح الإسلامية «العاتية» .

كانت هذه المهادنة من حسن حظ المسلمين الذين خفض من شوكتهم [١١٩٤ - ١١٩٦ م] كثيراً موت صلاح الدين ، والنزاعُ الذي مزق شمل أسرته الكبيرة ، كما هى العادة ، إلى أن فاز أخوه العادل في آخر الأمر بالسيادة . أما الصليبيون فلم يستفيدوا مطلقاً من مثل هذه الفرصة ، ويمكننا أن نقول إن الحرب الصليبية منذ هذا العهد كانت معلومة العاقبة ، فأرض الصليبيين أقفرت ولم يكن ثباتهم إلا بما في أيديهم من المعاقل القليلة وبمساعدة شراذم صليبية كانت تهاجر إليهم على الدوام .

الحرب الصليبية الخامسة ١١٩٧ م

وأما الحملة الخامسة المكونة من جموع جرمانية بقيادة هنرى السادس

فقابلها الايطاليون والفرنسيون والإنجليز بفتور . وقد شل مجهوداتهم الخلاف والحقد الرديء ، ولم يربحوا شيئاً غير الإستيلاء على بيروت[1] وكان كل من يأتي إليهم من الصليبيين لا يجد مشجعاً فيعود أدراجه مسرعاً إلى أوربا . وفي أثناء ذلك كان العادل يمد نفوذه الذي لا ينازعه فيه أحد فيما بين جورجيا وعدن ، فكانت مجهودات الفرنجة الضئيلة المنقسمة المتقطعة غير منتجة معه .

الحرب الصليبية السادسة ١٢٠٠ م

تحولت الحملة الصليبية السادسة ، وهي قوة كبيرة ، عن الأرض المقدسة ، عند وصولها إلى البندقية ، وذلك للعداوة الكامنة للكنيسة الإغريقية . فحوصرت القسطنطينية وأخذت بالذبح والمصائب وبقيت تحت نفوذ الكنيسة الرومانية نحو نصف قرن حتى رجعت إلى الاغريق . وهذه الحرب الصليبية ، من أولها إلى آخرها ، مع معاضدة البلاط البابوى لها ، كانت شراً إذ أدت إلى إنهيار ركن الجامعة الشرقية المسيحية نهائياً . ونقرأ حوالى ذلك الوقت أيضاً عن حج الأطفال الذي أنزل المصائب بأرواح [١٢١٢ م] وطهارة ألوف من البنات والأولاد . وقد قبض على نحو ثلاثين ألفاً من هؤلاء ، وهم في طريقهم البحري إلى مصر ، وبيعوا ، وهذا بيان محزن للتعصب الشنيع ، الذي نرى فيه الروح الصليبية شملت كل أوربا ، وبيان لنتائجه المحزنة .

الحرب الصليبية السابعة ١٢١٧

ولم ينقض وقت قصير حتى حدثت إغارة جديدة على سورية إذ خرج

---

(١) بقيت سفينتان منتظرتين مدة طويلة خارج الميناء لمساعدة سفن الصليبيين ونقل ركابها إلى بيروت حيث بلغ عددهم نحو أربعة عشر ألفاً وقعوا في الأسر عند الاستيلاء على المدينة ويقدره بعضهم بأكثر من هذا .

جيش عظيم على رأسه أربعة ملوك إجتمعوا في عكاء ، وبعد أن خربوا
الأرض المقدسة تقدموا نحو مصر وحاصروا دمياط ، وفي شهور قلائل [١٢١٨ م]
إقتحموا الحواجز ودخلوا المدينة فلما بلغ البابا نجاحهم ، أرسل الكردينال
بيلاغيوس نائباً عنه ، فأخذ إدارة الأعمال في يده ، وبعد القتال الشديد ،
وإهراق الدماء مدة سنتين ، سقطت المدينة نهائياً فالقلعة في إيديهم . وعند [١٢٢٠ م]
ذلك مجد البابا اسم بيلاغيوس في كل أوربا كأنه يوشع الثاني . وتصرمت
سنة أخري فضاعت على الصليبين فرصة أكثر من هذا بسبب ما شجر بينهم
من النزاع والحسد اللذين كانا من عادتهم ، وقد صرف بيلاغيوس وقتاً كبيراً
إقتصده من صيامه وصلاته في الخلاف الشديد الذي كان بينه وبين القواد
الآخرين . ولما إستولى الخوف والوجل على سلطان مصر عرض عليهم
مراراً أن يسلمهم بيت المقدس إذا هم جلوا عن بلاده ، فرفض الكردينال هذا
مخالفاً نصيحة الملك جون ، فتخلى الملك عنه مغضباً ومعه ألوف كثيرة .
أما بيلاغيوس فقد زحف أخيراً من دمياط إلى القاهرة ، ولكن المصريين
هاجموا جنوده من الأمام والخلف فقطعوا عليهم خطى التقدم والتقهقر ،
ومع أن حالهم ساءت جد السّوء فأنه لم يقض عليهم تماماً إذ رأف بهم
سلطان مصر ، وسمح لهم بالعودة آمنين إلى سورية دون أن يضايقهم أحد . [١٢٢١ م]
وهكذا إنتهى مشروع البلاط البابوى العظيم . وضاعت كل فرصة للنجاح
بطمع بيلاغيوس وحماقته ، في حين أن تسامح السلطان الذي منح هدنة
ثمانية أعوام قوبل بالمدح والثناء من الناس جميعاً .

وبعد موت العادل كمداً على ضياع دمياط دب بين أبنائه دبيب الشجار [١٢٢٢ م]
والخلاف ولكن لم يستفد الصليبيون من هذه الفرصة حتى تغلب الكامل في [١٢٢٧ م]
آخر الأمر وأصبح صاحب السيادة العليا . وقد نشأت العلائق الحسنة بينه
وبين فردريك الثاني الذي قام بحملته الصليبية في ذلك الوقت وإعيد إليه بيت [١٢٢٩ م]
المقدس وما حوله على شريطة منح المسلمين الحرية والمساواة في
الحقوق ، وأن تبقى المدينة غير محصنة . ثم توج فردريك ملكا للمدينة
المقدسة وتمتع بهذا اللقب خمسة عشر عاماً حتى جاء المغول وإكتسحوا كل

شيء أمامهم . ولما كان فردريك غير حائز لرضاء البابا صارت الأمكنة المقدسة حيناً ما موضع اللعنة البابوية . فكانت نتيجة هذا أن قابل الفرسان فردريك مقابلة سيئة ، ويقال إنهم اتمروا بقتله . أما رؤساء إنطاكية وطرابلس وبيروت فلاستقلال بعضهم عن بعض ، لم يفكروا إلا قليلاً في العمل معاً . وقد كانت مشاحناتهم التعسة وحياتهم المستهترة سبباً في اضعاف قوة الصليبيين فلم يحاولوا أكثر من القيام بشن الغارات والنهب . وفي هذا كانت تنالهم الخسارة غالباً[1] وفي أثناء ذلك كانت الدعوة للحرب الصليبية قائمة على قدم وساق في أوربا . غير أن البابا وجه هذه الجيوش الجديدة ، في العشر أو الخمس عشرة سنة التالية ، إلى محاربة طوائف الألبيجنسر[2] ووثنيي الشمال ، وإلى غير ذلك من الأغراض التى أرتآها .

[١٢٣٩ م] وحوالى ذلك الوقت إنجاز الفرنجة إلى جانب إسماعيل الذي خرج [١٢٤٠ م] على ابن أخيه السلطان أيوب وهو إنحياز كرهه حتى أتباع إسماعيل الذين أدى فرارهم من ميدان عسقلان إلى سقوط المسيحية الشائن . ومع كل هذا فقد صالحهم السلطان ولكن الفرسان المحبين للحرب إستمروا في غاراتهم [١٢٤٣ م] العدائية على الكرك وفي النزاع فيما بينهم . وإنا ليدركنا الخجل عند ما نقرأ أنهم قتلوا ألفي اسير في عكاء . وأسوأ من هذا أن جيء بطائفة من الاسرى بعد ان أعطوا عهداً بأن يتنصروا فقتلوا أيضاً . ثم إقتربت بعد هذا ساعة خطيرة جداً إذ ثارت الجيوش الخوارزمية التى وصلت في ذلك الوقت إلى سورية وإنقضت عليها كالسيل الجارف وخربت بيت المقدس بوحشية مروعة ، وقتلوا سبعة آلاف مسيحى ، وسَبَوا الفتيات . هؤلاء البرابرة تحالفوا مع سلطان مصر فجعلهم تحت امرة بيبرس قائده المملوك ، فأنقض

---

(١) في صد غارة مغولية على بيت المقدس قطع البولانيون ألفى مسلم ارباً ارباً بدون رحمة . وكان هؤلاء يخافهم سكان سورية أكثر من خيفتهم الجيوش المغولية .

(٢) هي طوائف مسيحية إجتمعت في مدينة ألبي في جنوبي فرنسا على أن تعبد الله على طريقة اعتقدت صحتها وتخالف في كثير من أحوالها طريقة كنيسة روما .

بهم على جيش متحد من الفرنجة والمسلمين ودحرهم قريباً من جوبا (يافا) حيث لقي المسيحيون ، بعد أن تركهم ثانياً رفاقهم المسلمون ، هزيمة منكرة .

[١٢٤٧ م] والآن نصل إلى ما نسميه الحملة الصليبية الأخيرة على الأرض المقدسة ، أي أول حملة للويس . سار لويس إلى مصر وهاجم دمياط ، ونجح في ذلك كما نجح أولاً ، ولكنه لقي نفس الخاتمة المحزنة التي لقيها بيلاغيوس منذ ثلاثين عاماً . هزم الجيش في تقدمه نحو القاهرة ودمر الأسطول ، وأسر لويس . غير أن توران شاه عامله معاملة حسنة . فكان جزاءه على هذه المعاملة أن ذبحه بيبرس ، وبذبحه آلت السلطنة إليه ، فكان أول أسرة المماليك . رجع لويس في حالة سيئة هو وباروناته إلى سورية ، ثم رجع إلى وطنه فرنسا بعد أن لاقى من المصائب ما لاقى . وبعد ذلك بزمن طويل أخذ لويس يعد العدة لحرب صليبية ثانية . وبما أنه قصد بها [١٢٧٠ م] تونس فلا نجد ما يجدر ذكره بجانبها أكثر من القول بأنه وقع فيها ، كما وقع في غيرها الخلاف . ولذلك كانت نتيجتها سيئة .

[١٢٦٣ م] وباقي موضوعنا قصة إندحار محزنة عجّل بها الخلاف القتال والحرب الداخلية بين فرسان الهيكليين والهوسبتاليين[1] وقد قال بيبرس «إنهم أعداء لأنفسهم ، ونزاعهم وحمقهم هما سبب فشلهم» . دمر بيبرس في غزواته [١٢٦٣ - ١٢٦٩ م] الأربع الشهيرة معاقلهم الهامة الباقية عدا طرابلس وعكاء وأرسل النساء والأطفال من كل الأصقاع عبيداً إلى صور . ووقعت في إنطاكية قصة محزنة عند سقوطها ، فان جميع الصليبيين من جنود وقسيسين ورهبان وسكان قتلوا أو أخذوا سبياً .

وفي عام ١٢٨٩ م. دمرت طرابلس في مذبحة هائلة ، وسيق الوف من النساء والأطفال سبياً . ومع هذا فالفرسان والبارونات تلقوا هجمات على

(١) ولكن ص ٧٩٣ الجزء الثامن .

أمكنتهم الباقية على الساحل بشن غارات كثيرة ويخرق حرمة الهدنة حتى لم يبق في أيديهم في آخر الأمر غير عكاء وحدها فكانت المركز الذي إحتمى فيه كل الصليبيين ، ثم حوصرت عندئذ . ولقد كانت هذه المدينة في العظم كما وصفها ولكن وصفاً كاشفاً ، مدينة كبيرة ، فخمة ، مترفة ، هرع إليها الفرنجة من كل صوب وحدب ، إذ كانت آخر مأوى لهم . ومع أنهم كلهم صليبيون ، لم يزالوا ، كما يحدثنا المؤرخ ، فريسة للانقسام والتحاسد ، والشره والخلاعة ، حتى في النزع الأخير . ولما كان زعيم الهيكليين يحرص على إنقاذ هذه المدينة العظيمة ذهب إلى السلطان وحصل منه على شروط مسالمة ، ولكن صنيعه لم يرق القواد ، فخلعوه وعدُّوه خائناً وردوه إلى قصر السلطان ثم قاموا يصدون هجمة عليهم ، على أنهم خسروا فيها ألفى نفس . وقد صممت هذه الفئة الصليبية ، بعد أن تسرب إليها اليأس ، على أن تستميت في الدفاع ، وكان ذلك منظراً مؤثراً عند إعترافهم الأخير . ومن [١٢٩١ م] العجيب أن المدينة سقطت في نفس اليوم الذي إستولى عليها المسلمون فيه منذ مائه من السنين بل وفي الساعة نفسها وقد هرب قليل ممن كانوا بها في السفن والتجأ ألف منهم مؤقتاً إلى مكان حصين ولكنهم لقوا أخيراً حتفهم جميعاً إلا واحداً ـ قصة محزنة .

وهكذا إنتهت هذه الحروب الصليبية العظيمة «وقد أمر السلطان بهدم كنائس وحصون المدن اللاتينية» وكان الحجاج المتدينون العزل لا يزالون يلتجئون إلى الضريح المقدس إما بسبب الجشع أو الخوف . (وختم جبون هذه القصة المحزنة بقوله) : ساد سكون محزن غريب مظلم على طول ذلك الشاطيء الذي ظل زماناً طويلاً تتردد فيه أصداء النزاع العالمى «الحروب الصليبية» .

ما تقدم هو ملخص مختصر للحروب الصليبية . وقد كانت الفرصة مؤاتية لى مراراً أن أذكر الحسد والشقاق اللذين أديا إلى النكبة والهزيمة ، ولكن هناك سبباً أعظم من الحسد والشقاق وأبعد منهما أثراً في جعل النجاح

مستحيلاً وهو عدم وجود حاكم مسيطر معترف به ، ولم تكن هناك من البداءة إلى النهاية سلطة تمنع سوء النظام وتجبر على الطاعة وتسيطر على وحدة العمل . أتى الصليبيون من ممالك أوربا المختلفة ولهذا كانت مصالحهم متشعبة . وهكذا كانت حال هيئات الفرسان المختلفين ، وكثيراً ما رأيناهم يقاتل بعضهم بعضاً ، ولم يكن«الملك» بيت المقدس نفوذ يذكر على ماوراء حدوده . وكانت أنطاكية وطرابلس وأذاسا وغيرها من المعاقل مستقلاً بعضها عن بعض ، بل متعادية أحياناً . وقد كان القيصر يحسدهم جميعاً . ولقد كان النجاح ميسوراً لهم لو تولى قيادتهم جميعاً أمير معترف به . ولكن الإنقسام وتضارب المصالح مزقا شملهم فكان الفشل المحتوم نصيبهم .

والحروب الصليبية من أولها إلى آخرها فصل فريد في تاريخ الدنيا ، وهو فصل كما قلت عنه «إن الحاجة ماسة إلى وجود كتاب متقن فيه بلغتنا وخاصة من الوجهة الشرقية للحروب الصليبية» فان كتاباً كهذا يهيىء الفرصة أيضاً لفحص نتيجة الحروب العظيمة الطويلة وتأثيرها في حياة أوربا الإجتماعية وكذلك في كنائس الشرق وجماعاته المسيحية فان الأخيرة قد أصابها الإضطهاد والخسارة والتدهور ، ونال الأولى قليل من الخير وكثير من الشر .

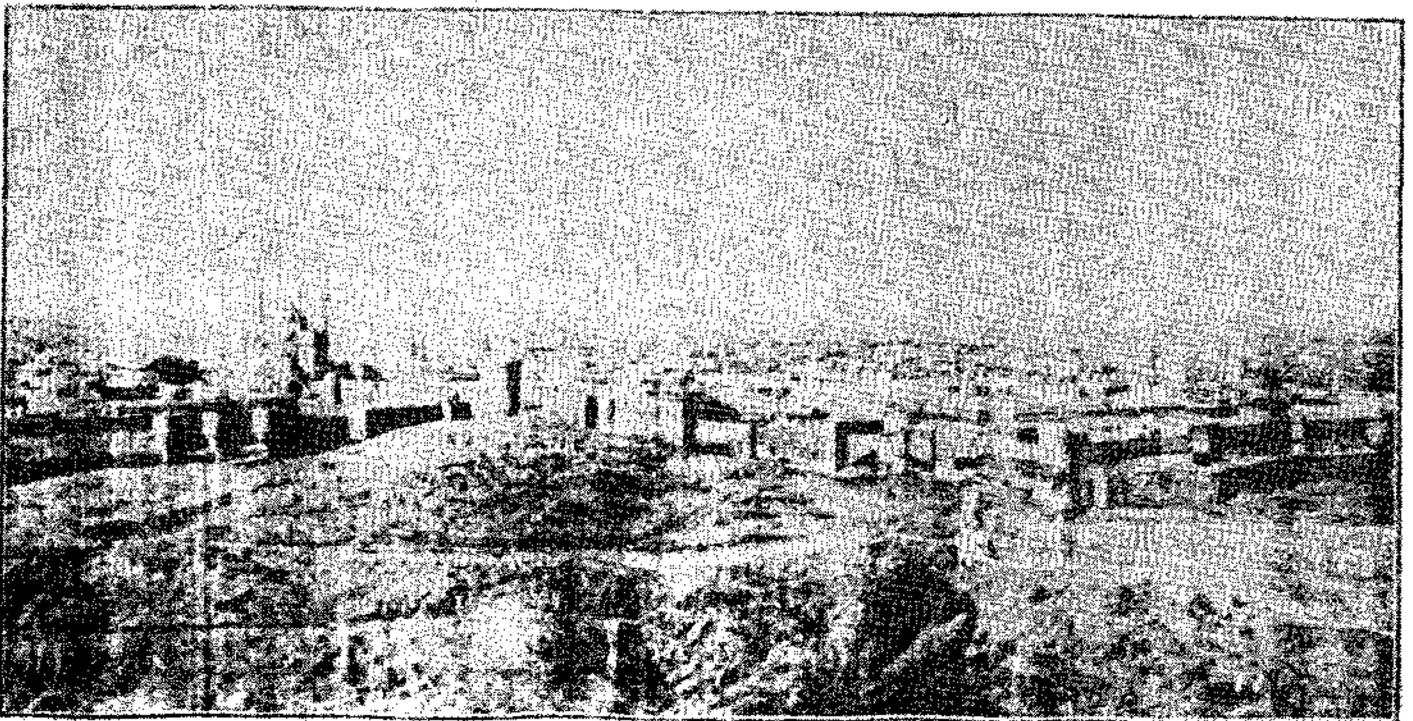
والحروب الصليبية هي التي أيقظت العالم الغربي من سباته العميق سبات الغفلة . وهي التي كان لها فضل السبق في جمع الممالك الأوربية المختلفة على عمل مشترك كان الغرض منه عظيماً ولكن أسيىء تنفيذه فبعث في نفوسهم حياة سياسية جديدة ثم ميلاً نحو الشرق كان من آثاره زيادة في المعلومات التاريخية والجغرافية عن البلدان والناس ، ووسعت الأفكار من جهة اللغة ، وعادات وطبائع العالم الأسيوى . يضاف إلى ذلك أن الحروب ، مع أنها كشفت الستار عن معايب الدين الإسلامي[١] . قد جاءتنا

---

(١) هذا رأي المؤلف المسيحى .

بأمثلة حية عن كرم المسلمين وفضيلتهم حتى في ميدان القتال . وهي التي أعلت من شأن التجارة والملاحة فزادت في موارد أوربا وثروتها . وهي التي ساعدت على إحياء الفنون الجميلة والسير في علوم الفلك والرياضة والطب والصيدلة والتاريخ الطبيعي ـ وفوق كل هذا قد ضربت النظام الإقطاعي ضربة قضت عليه ، ذلك أن جماهير الموالى الذين إجتمعوا تحت لواء الصليب أطَّرحوا جانباً اغلال العبودية وإتخذوا موقف المستقلين ، في حين أن هذا النظام وهت أركانه بخروج الفرسان والبارونات إلى الشرق وكثرة بيعهم ممتلكاتهم .

ولكنها من جهة أخرى زادت الإضطهاد الدينى الذي كان وقتئذ ، وساعدت على القسوة وإراقة الدماء في صفوف الجيوش المسيحية التي كانت لا تقل في بعض الأوقات عما يحدث في جيوش أعدائهم ، في حين نجد كذلك التناقض الغريب الذي جمع بين التعصب الشنيع وأحط رذائل الإنسانية . والحق أنه من الصعب غالباً أن نتبين دين المسيح أهو الدين الذي كان البابوات ومجامعهم الدينية يحاولون رده إلى الأرض التى نشأ فيها أم الطرق التي حاولوا بها تثبيته هناك طوال هذين القرنين ؟ وبينما كان المتوقع أن تضعف أكاذيب رجال الكنيسة الرومانية بالوعود الربانية إن لم تقض نهائياً على الإيمان بالكنيسة الغربية ، نجد ، وهذا الغريب ، العاطفة الصليبية أتت بنتيجة مخالفة لذلك تماماً إذ جاءت بفظائع محاكم التفتيش وملأت خزائن البابا بالأموال وثبتت أركان السيادة البابوية .



منظر القلعة من الجنوب الشرقي ـ مسجد الناصر بن قلاوون

أسرة المماليك
١٢٦٠ ـ ١٥١٧

الفصـــل الأول
مصر والمماليك

بعيد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) فتح عمرو بن العاص البلاد [٦٤٠ م] المصرية وإنتزعها من المقوقس حاكمها من قبل الرومان وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وقد بقيت جزءًا من المملكة الإسلامية مدة قرنين من الزمان . وعند ختام القرن التاسع الميلادى قام حاكمها أحمد بن طولون [٨٦٨ - ٩٠٥م] وهو من سلالة المماليك التركية وخلع نير المملكة الإسلامية التي كانت إذ ذاك منهوكة القوي متداعية الأركان وإعتلى عرش البلاد ، ولا تزال آثار حكمه الزاهر ظاهرة واضحة في جامعه الذي أسسه بالفسطاط[1] والذي لا يزال يسمى باسم مؤسسه العظيم . ولكن الطولونيين مالبثوا أن رجعوا الى ولائهم للخليفة . ثم أن البلاد استقلت مرة أخرى تحت حاكم تركى آخر وهو (ابن طغج) أول أسرة الأخشيديين وسموا بذلك نسبة إلى أسرة ملوك [٩٣٣ - ٩٨٠م] فرغانة (وكان هذا لقباً لملوكهم) . وفي نهاية هذه الأسرة قام خلفاء الفاطميين بعد أن قهروا الأغالبة على أمرهم في طرابلس والقيروان وولوا وجوههم شطر المشرق ففتحوا مصر وجنوبي سورية وإتخذوا القاهرة حاضرة لملكهم فبقيت من ذلك العهد مقراً للحكومة المصرية ، ولا تزال آثار حكمهم للبلاد خالدة في الجامع الأزهر . وقد بقى صولجان الملك في

---

(١) هذا المسجد شمالي الفسطاط الحاضرة القديمة وموقعة الآن جنوبي القاهرة على جبل يشكر . وقد جاء في دائرة المعارف البرطانية «أنه أكبر مسجد في القاهرة وأنه جدير بالذكر في تاريخ فن البناء لما يحويه من نمازج الاقبية القديمة» .

أيديهم قرنين من الزمان كانوا في نهايتهما قد لحقهم الضعف وإعتورهم الخوف شأن الخلفاء العباسيين في أخريات أيامهم فغلب عليهم وزراؤهم الذين علت كلمتهم وهيب سلطانهم فصارت إدارة البلاد في أيديهم[1] . تلك كانت حال البلاد في الوقت الذي سنكتب تاريخه . ولكن قبل الخوض فيه يجدر بنا أن نلمع بايجاز إلى أصل المماليك الذين سنتحدث عنهم ، حتى يكون القارىء على بينة من جنسهم :

إتخذ خلفاء بغداد منذ أجيال عدة عادة سيئة هددت عرش خلافتهم بالزوال وهي جلب الألوف من العبيد ذوى الأسماء الحوشية من قبائل التركمان والمغول وإستخدموهم حرساً لهم ومادة لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فأستفحل أمرهم وقتئذ وأصبحوا سدى الجيش ولحمته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثون أن يصبحوا ذوى الأمر والنهى في بيت الملك يشعلون نيران الفتن والقلاقل حتى عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة وسلك سبيلهم في ذلك خلفاء الفاطميين فأصابهم مثل ما أصاب من قبلهم . وقد نحت دولة الأيوبيين بعدهم هذا النحو إذ كانوا غرباء في البلاد فاحتاجوا إلى الإعتزاز بأمثال هؤلاء . ان القبائل المقهورة في أواسط آسية كانت لا ترى غضاضة في بيع أفلاذ أكبادها للنخاسين الذين كانوا يعدونهم حسن المستقبل والسعادة في الغرب . وقد سهل عمل النخاسين ما كان يذاع عن الثروة الكبيرة التي يمكن الحصول عليها بأقل جهد ، لذلك لم يقتصر الأمر على سبايا الحرب وأساراها بل كان يتدفق على البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء على شرائهم أحياناً بأثمان باهظة .

---

(١) كان الخلفاء الفاطميون من نسل طوائف الإسماعيلية الشيعيين وقد نشأت من بربر شمالي أفريقية واجتمعت على رجل اسمه المهدي كان قد فر من بلاد العرب في أوائل القرن العاشر صار خليفة عليهم في طرابلس . وبعد ستين عاماً من ذلك التاريخ غزا الخلفاء الفاطميون ،(سموا كذلك لأنهم من سلالة فاطمة الزهراء ابنة النبي صلى الله عليه وسلم) الديار المصرية وجنوبي سورية .

ولما كانت هذه الفئة تنشّأ نشأة حربية كان أسعدهم حظاً وأعظمهم مقدرة من تفك رقبته بأمر السلطان فيصبح أميراً على عشرة أو خمسين أو مائة ، وقد يثب أحدهم وثبة واحدة تجعله أمير ألف . وأخذ عددهم يتضاعف بشراء مماليك جدد كانوا ينالون ما نال أمراؤهم من الحرية والثراء . وقد كان السلاطين بطبيعة الحال أكثر الناس إنكباباً على شراء الأرقاء ، ولذلك إستخدموا موارد الحكومة في إحاطة أنفسهم بجمع عظيم من هؤلاء المماليك . فقد علمنا أن أحد السلاطين إشترى منهم نحو ستة آلاف . وبينما كان السواد الأعظم من الأمة يعيش عيشة التعس غارقاً في حمأة الجهاله كان المماليك المقربون لدى الأمراء ، ولا سيما غاشية الملك يتعلمون علوم السلم والحرب ، وكان الواحد منهم ينهض من درجة حاجب أو تابع تدريجاً حتى يصل إلى مرتبة سيده. فمملوك اليوم هو قائد الغد بل ليس بعزيز عليه أن يصبح سلطاناً .

وقد كان المماليك في بادىء أمرهم متصفين بالوقاحة وشراسة الأخلاق فأخذوا على مر الأيام يشعرون بما لديهم من القوة وشدة البأس فأزداد هياجهم وإشتد ثورانهم وساموا الناس الخسف بما كان يتكرر منهم من صنوف التخريب والتعذيب ولما كانوا منقسمين إلى أحزاب وشيع كل منها منتم إلى اسم سلطان أو قائد كانت حالتهم الطبيعية عبارة عن حروب داخلية وأحقاد متأججة على أن هؤلاء المماليك حينما كانوا ينغمسون في شهواتهم وملاذهم لا يلبثون غالباً أن يثوروا على سيدهم ، بيد أن بعض السلاطين الأشداء كان في مقدورهم أن يكبحوا جماحهم ويجعلوهم طوع إرادتهم ، لذلك كانت السكينة تعاود البلاد من آونة إلى أخرى فينشر لواؤها حيناً يكون فيه الإضطراب والهياج كامنين فلا يأمن الناس ظهورهما في أي لحظة .

وقد أسكن أمراء الأيوبيين مماليكهم من الترك والمغول بجزيرة في النيل (جزيرة الروضة) ليكونوا بعيدين عن المدينة ولذلك سموا بالمماليك البحرية . وأول أسر المماليك (١٢٦٠ ـ ١٣٨٢ م) كانت من هذه الطائفة . أما المماليك الآخرون فأنهم جلبوا إلى البلاد بعد ذلك وسموا البرجية نسبة

إلى الأبراج التى كانوا يقطنونها في القلعة أو في أرجاء المدينة . ومعظمهم ينتسب إلى الجنس الجركسي ، ومن هؤلاء كانت أسرة المماليك الثانية (١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م) .

على أن معظم المماليك كانوا مخلصين لأمرائهم متعلقين بأهدابهم . وقد أثرى الأمراء باستخدام هؤلاء في إمتصاص دم الأهلين وبالانتفاع من وظيفتهم وبالاستيلاء على إقطاعات من الحكومة . والواقع أنه كان للمماليك في مجموعهم مكانة سامية ومركز قوى لا سيما في مدتهم الأخيرة إذ كانوا يرغمون السلطان على الخضوع لارادتهم . هؤلاء هم القوم الذين قبضوا على مصر بيد من حديد مدة قرنين ونصف قرن من الزمان وهم الذين سنشرع الآن في قص تاريخهم .

الفصل الثاني

الدولة الأيوبية وسلطنة أيبك وقطـز

(١١٧١ ـ ١٢٦٠ م)

[١١٦٩ م] حوالى منتصف القرن الثانى عشر حين كانت الدولة الفاطمية خائرة القوى والنزاع فيها قائماً على قدم وساق ، والفوضى ضاربة أطنابها ، أخذ كل من نور الدين والملك أملريك يرنو إلى مصر ويطمع في أن يستحوذ عليها ، فأثار ذلك ذعر الخليفة وطلب من نور الدين أولاً أن يناصره، ثم ما لبث أن لجأ الى إلى أملريك وطلب منه ما طلب من نور الدين، وفي كلتا الحالتين دخل كل منهما مصر وغرضه الظاهر حمايتها ونيته إمتلاكها ، وإنتهى الأمر بعقد مهادنة ودية بين الطرفين ، غير أن أملريك نقض عهده وأغار على البلاد وفرض عليها غرامة فادحة فلم يسع الخليفة إزاء ذلك الخطر إلا أن يستنصر نور الدين وبعث إليه بخصلة من شعر زوجه إشارة إلى الخطر المحدق به فسر نور الدين لتلك الفرصة وأرسل قائده شيركوه للنجدة فهزم أملريك وشتت شمله ، فنال شيركوه بذلك النصر الذي نجى به الخليفة ، العطف الكبير وعين وزيراً فقبض على أزمة الأمور في البلاد غير أنه لم يعمر طويلاً بل عاجلته المنية مخلفة في منصب الوزارة ابن أخيه صلاح الدين .

وفي السنة التالية مات الخليفة الفاطمي أيضاً ، وكان صلاح الدين قد أعد العدة الفعالة لاخماد كل معارضة توجه إليه فاستولى على زمام الأمور

وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد . وبهذا إنتهت الدولة الفاطمية التي حكمت البلاد المصرية قرنين[1] .

وكان صلاح الدين بن أيوب أحد رؤساء القبائل الكردية . وقد أطلق على دولته «الأيوبية» . وكانت القاهرة حاضرة البلاد فحصنها بأحجار الهرم الأصغر . وقد قصور الفاطميين الفخمة وبنى قلعة الجبل على أقرب أكمة من سلسلة تلال المقطم وإتخذها مقراً . وبعد أن حكم البلاد المصرية والسورية نيفاً وعشرين سنة حكماً ناجحاً مات وترك أسرة كثيرة العدد فوقع النزاع بين [١١٩٣ م] أفرادها وإنتهى الأمر بغلبة أخيه العادل وأصبح صاحب الكلمة النافذة وحكم حكماً زاهراً في مصر وفي الشرق من بلاد جورجيا إلى عدن . وفي آخر أيامه إستولى الصليبيون على دمياط فاشتد به الحزن والكمد حتى مات فخلفه حفيده الملك (الصالح نجم الدين أيوب) . [١٢١٨ م]

وفي هذه الآونة إنقضت القبائل الخوارزمية على سورية وسلبوا بيت المقدس بكل وحشية . وقد عقد السلطان مع هؤلاء البربر معاهدة ، وسير [١٢٤٠ م] قائده الظاهر بيبرس لينضم إليهم على عمه إسماعيل حاكم سورية وكان صديقاً للصليبيين . فتقابلت جموع الفرنجة والمسلمين مع جيوش بيبرس والخوارزمية عند يافا فهزمهما بيبرس هزيمة منكرة وبذا أصبحت سورية في قبضة مصر ثانية . [١٢٤٦ م]

أراد السلطان بعد ذلك أن يقوى نفوذه في داخل البلاد وفي ممتلكاته فأشتري عدداً عظيماً من المماليك التركية (وكان هو أول من أسكنهم جزيرة الروضة في النيل) . وكان ابنه «توران» آخر سلاطين هذه الدولة وهو الذي في عهده غزا لويس ملك فرنسا البلاد المصرية غير أنه هزم وسجن أثناء مروره إلى القاهرة ، ومع هذا فان توران شاه أطلق سراحه . وقد أثار هذا العمل الإنساني حقد المماليك البحرية عليه ، وكذلك أهاج غضبهم تمكنه

---

(١) قد تجاسرت فأتيت هنا بكثير من المحاضرة المتقدمة .

من ردع العصاة منهم ، فدبروا مؤامرة ضده وذبحوه وقبضوا على زمام الأمور [١٢٥٠ م] في البلاد .

إنتخب رؤساء المماليك من بينهم الأمير (أيبك) ليدير أمور البلاد فاكتفى في بادىء الأمر بأن يحكم باسم زوج سيده (الصالح أيوب) وكانت في الحقيقة قد اشتركت في المؤامرة على قتل ابن زوجها . ولكن الخليفة العباسي لم يوافق على أن تتولى إمرأة الحكم ولو صورياً فتزوجها أيبك . ثم أنه إرضاء للأيوبيين في بلاد سورية ، والكرك أجلس طفلاً من نسل الأيوبيين على عرش مصر سلطاناً . ورغم هذه الترضية فان ناصرا الأيوبي حاكم دمشق [١٢٥١ م] زحف بجيوشه على مصر ولكن مماليكه من الترك خذلوه فرده أيبك على أعقابه مخذولاً ورجع هو إلى العاصمة ودخلها مظفراً . وبعد قليل اتضح له أنه من المستحيل أن يكسر من حدة المماليك الثائرين الذين سخروا من كل نظام وإحتقروا كل سلطة وقاوموها ، وكان على رأسهم قائد لهم يدعى (أقطاي) فدس أيبك عليه من قتله فثار لذلك كل أمراء المماليك البحرية ولكن أيبك رد كيدهم في نحورهم وغلبهم على أمرهم وذبح منهم عدداً كثيراً [١٢٥٤ م] وسجن آخرين وفرّ من بقى منهم إلى ناصر ثم إلى الكرك ، وكان بين هؤلاء بيبرس وقلاوون وسنعرف عنهما الكثير فيما بعد .

بعد ذلك أصبح أيبك سلطانا على البلاد لا ينازعه فيها منازع وإعترف به كل من حوله من الدول . عند ذلك فكر أيبك في التزوج ثانية من أميرة من الموصل فأغضب ذلك السلطانة وكانت محنقة من قبل فدست عليه من [١٢٥٧ م] قتله ، ولكنها لم تنج من زوابع العاصفة التى أعقبت قتله فان بعض جوارى إحدى زوجاته قمن إليها فقتلنها . وبعد موت أيبك نصب أمراء المماليك أبنه الأصغر سلطاناً على البلاد ، وقد عرضت الوصية عليه على قطز[1] أحد مشهورى المماليك الخورازمية فقبلها بعد اباء شديد . وكان لدى أمير الكرك

---

(١) وهو ينتسب إلى بيت الملك في خوارزم . ولما هزموا كان قطز من السبايا الذين حملوا إلى مصر وهناك بيع بيع الرقيق .

الأيوبي عدد عظيم من المماليك البحرية ، فسعى بمعونتهم للإستيلاء على مصر . وقد حاول ذلك مرتين ولكنه رد في كلتيهما خائباً مخذولاً بفضل شجاعة قطز واقدامه . فإضطر أمير الكرك إلى طرد المماليك البحرية من بلاده فرجعوا إلى ولائهم لمصر وكان رجوعهم إليها طالع سعد لها إذ جاءُوها في وقت عصيب وذلك أن هولاكو وأتباعه من قبائل المغول ، بعد أن إجتاحوا بغداد وذبحوا آخر الخلفاء العباسيين ، اندفعوا بجيوشهم المتوحشة إلى الغرب ، ثم أرسل إلى ناصر الأيوبي حاكم سورية رسالة ادعى فيها أنه «سوط عذاب أرسله الله إلى أمم الأرض العاتية لينفذ قضاءه فيها» فأجابه الناصر الأيوبي بألفاظ غليظة تلائم لهجته . ولما لم يجد من قطز معضداً كان من المحتم عليه الفرار من دمشق ، ولكن طاغية المغول إستولى عليها وأتى فيها من صنوف التدمير والتخريب ما إقتضته وحشيته ثم إستدعى إلى أواسط آسيا لموت زعيمهم العظيم فيهم (منجو) فترك الجيش بعد أن عين (كَتْبغُاَ) قائداً له فأرسل إلى مصر رسالة لا تقل في شدتها وخشونتها عن رسالته إلى الناصر الأيوبى صاحب الشام .

[١٢٥٩ م]

[١٢٦٠ م]

وكان قطز وقتئذ قد خلع السلطان الصغير وقبض على صولجان الملك في البلاد فلما أتاه البعث يحمل الرسالة عقد مجلساً من الكبراء ، وبعد المفاوضة قتل الرسل ، ثم أنه حذر مما عساه أن يحدث في المستقبل فأثار نخوة الأمراء وإستنهض هممهم بخطبة حماسية نبههم فيها إلى الخطر المحدق بمصر وبأسرهم ودينهم . وبعد ذلك جمع جيشاً قوي البأس شديد البطش وسار به نحو عكاء حيث وجد المصريون الصليبيين وقد واثقوا المغول على أن يلزموا الحيدة ، فالتقى جمع مصر بجمع المغول عند عين جالوت ، وبعد موقعة ناضل الفريقان فيها نضالاً عنيفاً دارت الدائرة على المغول وذبح قائدهم كتبغا . ويرجع الفضل في ذلك إلى شجاعة بيبرس وبأس قطز . ولما وصلت أخبار هذه الهزيمة إلى دمشق قام أهالى المدينة على من فيها من المغول الطغاة ، وكذلك اليهود والنصارى الذين إنشقوا على المسلمين في خلال الفترة التى إستولى فيها المغول على المدينة

وأعملوا فيهم السيف فذبحوا وقتلوا عدداً عظيماً .

ولم تكف الجيوش المصرية عن القتال بعد تلك الموقعة بل أتبعوا إنتصارهم بطردهم المغول من سورية وإقتفاء أثرهم إلى مدينة أذاسا (الرّها) .

ولما أصبح قطز صاحب السيادة في سورية أعاد إليها ولاتها السابقين بعد أن أخذ عليهم المواثيق بالولاء . وكان قطز قد وعد بيبرس ، جزاء خدمته الجليلة ، ولاية حلب ، ولكنه خاف أطماعه فولى عليها غيره . لذلك حنق عليه بيبرس ، وخاف إن رجع إلى القاهرة أن يدهمه خطر ، فدبر حيلة بينه وبين نفر من أصحابه لاغتيال قطز وذلك أنه أثناء عودتهم إلى الديار المصرية كان قطز يخرج أحياناً للصيد والقنص فانتهز بيبرس فرصة إنفراده وطلب منه أمرأة من سبى التتار فأنعم بها عليه فتقدم ليقبل يده فقبض عليها وانهال أصدقاؤه يضربون قطز بالسيوف من خلفه حتى مات . وفي الحال أعلن بيبرس ولايته على البلاد ودخل القاهرة بين هتاف الأهلين ، وأقيمت له الزينة والولائم كما أقيمت لسلفه المقتول من قبل .

[٢ أكتوبر ١٢٦٠ م]



القلعة كما كانت عام (١٧٩٨) باب الرميلة

الجزء الأول

دولة المماليك البحرية

أو الأسرة التركية

١٢٦٠ ـ ١٣٨٢ م

الفصل الثالث

بيبرس

١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م.

كان السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى[١] أول سلاطين دولة المماليك البحرية الذين تبوءوا عرش مصر مدة قرن من الزمان ، عبداً مملوكاً إشتراه السلطان الصالح أيوب وقد أظهر نفسه في ميعة شبابه في الحروب التى شنتها مصر على إسماعيل والصليبيين ، وبعد ذلك رقى في مدارج المناصب السامية وكان الظاهر بيبرس أحد الذين أتمروا باغتيال حياة السلطان توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، وفي مدة سلطنة أيبك إنضم إلى جماعة أقطاي الخارجين عليه ، وبعد قتل أقطاي فر من البلاد هو والهاربون من المماليك البحرية . أما في عهد قطز فأنه صار كما رأينا قائداً للجيش مرة ثانية وعلى أثر قتل قطز بويع له بالسلطنة بالاجماع .

بعد أن إستقبل الأهلون بيبرس إستقبال الظافر المنتصر في حاضرة البلاد أخذ هو يستهوي القلوب ويكفر عن السيئات التى إرتكبها فيما سلف هو واخوانه من الأسرة البحرية ، ولاغرو فأنه بإتباعه طريق الحكمة في إدارة

---

(١) لفظة فارسية معناها حامل البندقية .

شؤون البلاد أفلح في إكتساب محبة الأهلين وإستمالتهم إليه وبسط نفوذه في داخل بلاده وخارجها فخفف الضرائب التى كانت سبباً في تنغيص حكم سلفه إلى الأمة ، ونال الثقة التامة بما كان يسنه من القوانين العادلة وبالاعتدال في ترقية مماليكه ، وهدأ خاطر السوريين بإعترافه بحكامهم المحليين وحسن معاملته لهم ولم يخرج عن طاعته إلا ولاية دمشق ، ومع ذلك فان الأمراء لم يلبثوا أن دخلوا في طاعته وحمل حاكم البلاد الخارج أسيراً إلى القاهرة وقد شجع بيبرس القيام بالأعمال العامة فشيد المساجد وزخرفها وأسس المعاهد الدينية وكرى الترع وأصلح الثغور والمعاقل وزاد في إستتباب الأمن في مملكته بترتيب خيل البريد فكانت تصل الأخبار بسرعة بين دمشق وحاضرة البلاد[1] .

وقد فكر بيبرس في السنة التالية من توليه عرش مصر في إرجاع الخلافة العباسية إلى مكانتها ، وكان هولاكو قد إجتاحها جملة من بغداد وقضى على الأسرة العباسية . وكان غرض بيبرس من ذلك أن يقوى عرشه ضد أحقاد نظرائه سابقاً من المماليك وكذلك خوفاً من قيام الشيعة لارجاع الدولة الفاطمية . فظن أنه لو نصب خليفة من السنيين فانه يقضى على مثل هذه الدسيسة ، ويجعل حكمه في مصر شرعياً لذلك لما سمع أن أحد العباسيين أخطأته مذبحة المغول ، جد في إستحضاره من سورية إلى مصر في موكب حافل . ولما إقترب العباسى من البلاد خرج السلطان وحاشيته في موكب لمقابلته . وقد تبع السلطان في موكبه اليهود والنصارى رافعين على أيديهم التوراة والأنجيل . بويع للعباسى بالخلافة وأقسم له بيبرس ورجال حكومته على الطاعة أما الخليفة «المستنصر بالله» فأنه قلد بيبرس سلطنة البلاد وعند صلاة الجمعة بدأ قراءة ما تيسر من القرآن والخطبة والصلاة على النبي «ﷺ» والدعاء له ولآل عباس دعا الخليفة للسلطان بدوام العز والبقاء. وبعد بضعة أسابيع شاهدت وليجة السلطان حفلة مبارزة حبية على النيل وإجتمعت بالبستان الكبير خارج القاهرة حيث خلع الخليفة على السلطان

(١) كانت الرسائل تصل في مدة ستين ساعة .

الخلع «وهي جبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من ذهب وقلد سيفاً عربياً» ثم أهداه تقليد المملكة بعد أن قرأه عليه وفيه يحض الخليفة السلطان باسهاب على واجبه نحو الحرب ذوداً عن الدين وما أثقل به عاتقه من المسؤلية . وبعد ذلك دقت الطبول وعزفت الزمور وهتف الجميع فرحاً وحبوراً ثم سار الموكب في طريقه المفروشة بالبسط إلى القلعة وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالوزير على متون الجياد وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظراً لايحيط به الوصف . بعد ذلك خرج السلطان بجيش قوي البأس ليجلس الخليفة العباسى على عرشه في بغداد كما كان من قبل . غير أنه لما وصل إلى دمشق في طريقه قيل له أن تأسيس خلافة قوية الأركان في بغداد قد تكون خطراً على إستقلال مصر فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك . وفي أثناء سيره إنقض عليه الحاكم المغولى فتخلى عنه أتباعه ومات في طريقه .

ولما وصلت أخبار هذه الفاجعة إلى مصر ولّى السلطان بيبرس أحد سلائل العباسيين الخلافة (١٢٦٣ م) . ومع أن هذا الخليفة كان يقوم بكل ما يتعلق بوظيفته فأن بيبرس أخذ لنفسه الحيطة حتى لا يجعله يشغل المكانة التى كان يتمتع بها سلفه ، فجعله شخصاً عادياً مراقباً سجيناً في القلعة . وقد بقى الخلفاء طوال حكم دولة المماليك وليس لهم من الخلافة إلا اسمها وان كان ذلك لا ينطبق على حكم كل سلاطينهم . والواقع أن الخليفة كان يؤتى به في المواقف الرسمية الهامة ليتمم الحاشية ، وكذلك كان يؤتى به عند تولية سلطان جديد بصفته الرئيس الدينى للمسلمين ليعترف بلقب السلطان . وهذا كل ما كان له من الأمر .

على أن بيبرس رغم عدله في إدارة شؤون البلاد كان لا يتأخر ، عند إثارة نار حقده ، عن الغدر والخيانة والإستهانة بالأرواح والأنفس . وتلك طبيعة خاصة بجنسه فكان سريع التصديق لما يلقى إليه من الوشاية ، وكان لا يكتفى بتغيير وزرائه وحكامه من وقت لآخر مخافة أن يشتد بأسهم عليه

فحسب ، بل كان يودعهم أعماق السجن وربما كانوا لا يخرجون منه أبداً .
وكان أشد أخلاقه إيلاماً غدره فإنه لم يتأخر أو يتردد في إستخدامه لقضاء مآربه ، وشواهد ذلك عدة . وأعظمها فظاعة وخسة تلك الأحبولة التي أوقع بها مغيثاً الأيوبي صاحب الكرك فانه بعد أن سعى مراراً في إيقاعه ، أرسل إليه رسالة أغلظ فيها الأيمان والمواثيق أنه يرعى ذمته ولا يمسه بأذى[1] . ومع ذلك كان مغيث لا يزال يشك في مواثيق بيبرس غير أنه لم يجد بداً من الإجابة ، وإضطر إلى الذهاب إلى معسكر السلطان في سورية فقابله بيبرس بكل تجلة وإحترام ورافقه على ظهور الخيل إلى سرادقه وهناك قبض عليه على حين غفلة منه وأرسل مصفداً إلى القاهرة حيث قتل جوعاً . أما الوالى الذي خلفه مغيث وراءه على الكرك فانه أبى تسليم القلعة إلى ذلك السلطان الخائن ، ولذلك كان ابنه لما بلغ أشده وإستوى زج في أعماق السجن لمجرد الظنة . ولا حاجة بنا بعد ذلك إلى سرد حوادث غدره . غير أن المكر السيء الذي أبداه في المثل الآتي يبرر لنا ذكره : ذلك أنه أراد أن يتخلص من بطريق النصاري ببغداد بسبب ما راعه من مصادقته للمغول فإصطنع بيبرس له رسالة يشكره فيها على ما يقفه عليه من الأخبار السرية ، ثم دبر أن يكشف أمر حامل الرسالة ، فلما جيءَ بالكتاب بين يدي حاكم بغداد المغولى أمر بحز رأس البطريق لخيانته .

وكان الظاهر بيبرس على خوف ووجل شديدين من المغول الذين كانت لهم دولة تمتد من نهر جيحون إلى المحيط الهندي رئيسها أبغا ، فدعاه [١٢٦٣ م] ذلك إلى مصافاة برخ صاحب قبجاق عدو أبغا وإلى مصادقة القيصر الذي كان قد أخذ يفيق من أضرار الحرب الصليبية السادسة ومن المصائب العظيمة

(١) وقد رأي النويري المؤرخ هذه الرسالة ونقلها عن الأصل ووصفها في كتابة كلمة كلمة وترجمها الأستاذ ويل فوقعت في صحيفتين . وحلف بيبرس أنه إذا نقض مواثيقه فانه يترك مماليكه وجواريه ويخرج إلى البيت الحرام عارى القدم مذنباً ثلاثين مرة . أما مغيث فقد اتهمه بيبرس بارسال ابنه إلى هولاكو ليتوسل إليه أن يبقى على الكرك . ومع التسليم بهذا فانه لا يبرر حنثه بيمينه .

التى أنزلتها البابوية بالقسطنطينية وقد إستحكمت بين الدولتين عرى المصافاة والمصادقة ، حتى أن القيصر بنى مسجداً للمسلمين في حاضرة ملكه وحصل [١٢٦٣ م] من السلطان بيبرس على بطريق من الطائفة الملكانية لمن يعتنقون هذا المذهب في دولته . ولم تقف مساعي بيبرس عند هذا الحد بل أرسل إلى إسبانيا ونابلى وإلى سلاجقة آسيا الصغرى ، وفي الواقع إلى أي ناحية كان يرى أنه يجد فيها سنداً ينصره على أعدائه المغول الأشداء . ومهما كان من الأمر فأنه لم يكن هنالك سبب يدعو إلى القلق في تلك الآونة إذ كان لدى المغول في بلادهم ما يشغلهم عنه ، وقد بقى الحال كذلك إلى أواخر حكمه .

والآن نرجع إلى الحرب الصليبية العظيمة ، وإلى الغزوات الأربع [١٢٦٣ حملة أولى] الشهيرة التى بها قرب بيبرس أجل القضاء على سلطان الصليبيين ، وذلك أنه لما رأى الكرك قد غلبت على أمرها وأن برخ واقف بالمرصاد للمغول آنس أن في إستطاعته إذ ذاك أن يزحف بكل جنوده على الصليبيين الذين كانوا ـ فضلاً عن أسباب العداء المستحكمة بينهم ـ على تصادق وتواد مع المغول . وكان قد سبق لبيبرس أن طلب مبادلة الأسرى ولكن الفرنجة أبوا ذلك فعنفهم لقسوة قلوبهم على إخوانهم في الدين ثم أخذ يسخر كل من لديه من الأسرى المسيحيين في حصون دمشق . على أن السبب المباشر في إغارته الأولى عليهم نقضهم العهود إذ أبوا تسليم بعض المعاقل . فقام بيبرس ، إظهاراً لسخطه ، وأوقع التخريب في أرجاء كل البلاد المسيحية وهدم كنيسة الناصرة .

وابتدأت الغزوة الثانية في أوائل السنة التالية بحصار قيسارية التى [فبراير ١٢٦٥ م] [حملة ثانية] سقطت بعد هجوم دام خمسة أيام وهدمت أسوارها رغم تحصينات لويس العظيمة لها . ولم يكن بيبرس يشجع الجنود أثناء ذلك ببسالته المعهودة لخوض غمار الحرب فحسب بل كان يشاركهم في هدم الأسوار بنفسه . ثم إنقض على قلعة أرسوف البحرية الواقعة جنوبي قيسارية ، وقد دافع عنها

[ابريل] الفرسان الهوسبتاليون دفاع الأبطال مدة أربعين يوماً . وبينما كان السلطان يهاجم المدينة من البحر كان الحماس الديني بالغاً أشده في الفقراء والدراويش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفي النهاية أضطر بيبرس للمفاوضة مع الحامية فأمنهم على حياتهم . ولكنه بعد أن أكرههم على العمل في تخريب حصنهم بأيديهم ، أخذهم غنائم حرب ليزين بهم موكبة وهو راجع إلى القاهرة ، وصلبانهم مكسرة وأعلامهم منكسة . وقبل أن يترك بيبرس ساحة القتال أجزل العطاء لكبار الأمراء وكان عددهم يختلف بين الخمسين والستين فأقطعهم القطائع من أرض فلسطين الخصبة التربة التى إنتزعها من الصليبيين . وقد وزع نسخاً من الصحيفة التى سجل فيها العطايا التى منحها لأتباعه . وهذه الصحيفة تحتوى على وصف حكم هذا السلطان وعظمته بألفاظ تنم عن الفخر والأبهة ، وأنه بلا مراء هو الذي وطد دعائم الدين الحق بهزيمة أعدائه من التتار والصليبيين . وسجل

[١٢٦٥ م] في الصحيفة كذلك خدمات أمرائه المطيعين «الذين يتلألأون كالنجوم في

[١٢٦٦ م] القبة الزرقاء» وأنهم قد نالوا ما يستحقون من المكافأة[١] .

حملة ثالثة

في ربيع عام ١٢٦٦ م. هاجم بومند السادس ملك إنطاكية مدينة حمص فأرسل إليها بيبرس قوة لنجدتها ، وبعد ذلك سار بكل ما لديه من الجنود لغزوته الثالثة فزار في طريقه بيت المقدس ، ولما وصل إلى حبرون أغدق على حراس قبر إبراهيم من فيض عطائه ، ولكنه في الوقت عينه حرم عليهم السماح للحجاج بزيارة هذا الضريح . وبعد ذلك عبر نهر الأردن على قنطرة كان قد بناها حديثاً[١] على مسافة قريبة من شمالى البحر الميت ، ومن

---

(١) وقد كتب بيبرس هذه العبارة بأسلوبه المبالغ فيه واقتبسها المقريزى وفيها أسماء الذين منحوا هبات وأسماء الضياع التى منحت لهم وهي تشغل عدة صحائف من كتاب المقريزي، طبع كاتر مير جزء ٢ من ص ١١ إلى ص ١٥ .

(٢) ولا تزال هذه القنطرة باقية إلى يومنا هذا . وقد كتب على العقد الأوسط منها اسم المهندس الذي بناها بأمر بيبرس . وهي مؤرخة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) . راجع الصورة والمقال الذي كتبه كلير مونت جانو في المجلة الأسيوية سنة ١٨٨٨ ص ٣٠٥ Pont)

ثم تقدم نحو عين جالوت وبحيرة طبرية . وفي ذلك الوقت كانت النجدة التي سيرت لتخليص حمص قد قامت بمهمتها وعاثت في أرض الصليبيين فساداً من شماليها إلى جنوبيها وتجمعت أمام صفد وهي قلعة على جبل خلف بحيرة طبريه . وقد شدد بيبرس عليها الحصار بما كان مطبوعاً عليه من الغيرة والإنهماك ، إذ كان يشتغل بنفسه في ضرب المدينة ويبذل جهده في العناية بالموضى والجرحى ، وحمى وطيس الحرب وجرت فيها الدماء وإستعان المصريون «بالنار الاغريقية» في الإستيلاء على القلعة . وبعد إنقضاء ثلاثة أسابيع على هذه الحال أعطاهم أماناً على أن تخرج الحامية من القلعة فارغة الأيدي . غير أن السلطان قتل أهلها جميعاً على أكمة قريبة من القلعة وهم نحو الفين من الصليبيين وغيرهم . وقد عزى إرتكاب هذا الجرم الفظيع إلى ان الأسرى حين خروجهم حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم .

---

de Lydda) وهذه الكتابة بخط عربي واضح في أربعة أسطر يكتنفها أسدان . وكذلك راجع المقريزي طبعة كاتر مير جزء ٢ ص ٢٦ و (Palestine Exploration Fund) يوليه عام ١٨٩٥ ص ٢٥٣ وفيها مقال عنوانه «سد الأردن في عام ١٢٦٧» . وقد نقل الكولونيل واتسن عن النويري عام ١٣٣٢ كيفية قطع الأردن لمدة ما كما حدث به أيام يوشع . ومؤدى العبارة كما يلي :

«في شهر فبراير عام ١٢٦٦ أمر السلطان بيبرس ببناء قنطرة ذات خمسة أقبية على نهر الأردن قريباً من دومة وقد حدث عند ذلك شيء عجيب لم يحصل أن حدث من قبل أو سمع بمثله وذلك أنه بعد أن تم البناء أنهار أحد الأرصفة فغضب السلطان لذلك وأرسل البنائين لاصلاحه ولكن اندفاع الماء كان قوياً فتعطل العمل ومن العجيب أنه حدث بعد مدة في ليل ٨ دسمبر سنة ١٢٦٧ أن وقف جريان الماء وجف المجرى فاشعلوا النيران والمشاعل وانتهزوا الفرصة بسرعة وأتموا الجزء المتصدع ولولا ذلك لما أمكنهم أن يتموه . وقد أرسل إناس على ظهر الجياد كي يستطلعوا سبب توقف الماء فوجدوا أن تلاً قد سقط في النهر وسد على الماء طريقه . وفي الساعة الرابعة من اليوم التالي تدفق الماء بشدة على القنطرة كأنه السيل الجارف غير أن الإصلاح كان قد تم ولم ينل التيار شيئاً غير أنه حمل السقالات» . وقد ختم النويري هذه القصة بما معناه «حقاً أن هذا لشيء عجاب وأن القنطرة لا تزال قائمة إلى اليوم» .

وينسبه فريق إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين في القلعة ، على أن هذه الأسباب لا تمحو عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التى لصقت بانسانيته بل إيمانه[1] بعد ذلك أعيد بناء صفد ونقش على جدرانها قصة تدل على الفخر والصلف منها أنه «إسكندر زمانه وعماد الدين الذي حول الكنائس إلى مساجد ، ورنين النوافيس إلى أصوات المؤذنين ، وقراءة الإنجيل إلى ترتيل القرآن» وهلم جرا . وفي آخر القصة «نصر الله المؤمنين إلى يوم القيامة» .

[١٢٦٣ و ١٢٦٤ م] وفي هذا الوقت إبتدأت تظهر العلائق لأول مرة بين المماليك وأرمينية . ففى عام ١٢٦٢ م . قام هيثوم ملك أرمينية يشد أزره سلاجقة آسيا الصغرى وكان كل من الفريقين تحت نفوذ التتار وغزوا سواحل سورية وهددوا مدينة عينتاب فسير عليهم بيبرس جيشاً ، وعندئذ طلب الأرمن المساعدة من تتار آسيا الصغري ومن الصليبيين الذين في أنطاكية . ولما وصل اليهم المدد قاموا بهجمة جديدة على الحدود وحاصروا بلدة حارم ، غير أن تساقط الثلج وزمهرير الشتاء إضطرهم إلى التراجع ثانية . أما بيبرس فقد قام ينتقم لنفسه فلم يكتف بتخريب المدن الواقعة على الحدود ونهبها ، بل عاث فساداً في ولاية إنطاكية الصليبية وعكاء وقيسارية . وبعد عامين من الإستيلاء على صفد ، أرسل حملة في فصل الخريف إخترقت مضايق كليكيا ونفذت إلى أرمينية حيث التقت مع الملك هيثوم ، ولم يكن المغول قد مدوه في تلك الأزمة فهزم ، وذبح أحد أولاده وسحب الثاني في السلاسل إلى القاهرة ، وإجتيحت كل البلاد من أطنة إلى جبال طرسوس . أما عاصمة ملكهم سيس فكان كل ما فيها غنيمة الحرب . وقد كان فرسان الهيكليين [١٢٦٦ م]

---

(١) لقد لخص ويل الأسباب التى دعت إلى تلك القسوة التى لا يكاد يصدقها العقل . وقد كتبها بدون محاباة فوقعت في نحو صحيفتين من كتابه جزء ٤ ص ٥٤ . وقد عفى عن إثنين من رجال الحامية بتوسط أحد الأمراء . ويقول المقريزى أن أحدهما أسلم وأن الآخر استخدم لتلمس أخبار الجيش الصليبي .

يدافعون عن أحد المعاقل الآمنة فإستولى المصريون عليه عنوة بعد حصار ، وذبحوا رجاله وأسروا نساءه وأطفاله . على أن بيبرس نفسه ضرب أهل «قارا» ضربة شديدة . (وقارا هذه قرية مسيحية على ربوة شمالى دمشق) . وسبب ذلك أنهم كانوا يسرقون عابرى السبيل من المسلمين ويبيعونهم بيع الرقيق فحرقت صوامعهم وبيع الأهالى ومزقت أوصال رهبانهم . وحولت كنيستهم إلى مسجد وأخذ صبيانهم مماليك فتربوا في مصر وكان منهم أجناد وأمراء . وفي أثناء عودة الظاهر إلى الديار المصرية كبا جواده (فكسر فخذه) فحمل في محفة إلى مصر . وفي خلال السنة التالية إستسلم الملك هيثوم لمطالب السلطان فأفرج هذا عن ابنه ورجع السلم بينهماإلى نصابه وحينئذ إضطر إلى نقض عهده مع المغول وإلى النزول عن كثير من معاقل الحدود التى كان قد أخذها منهم . ولو تحاشى الأرمن والصليبيون الخضوع لنفوذ المغول لكان خيراً لهم فان هذا الخضوع كان لابد أن يثير حقد المصريين عليهم وتكون عاقبته سقوطهم . وفي عام ١٢٦٧ قامت الجنود السورية من جديد بتخريب كل ما في طريقها حتى وصلت إلى أبواب عكاء غير أنه لم يكن لذلك من نتيجة ظاهرة .

[١٢٦٨ حملة رابعة]

وفي السنة التالية كانت حملة رابعة شهيرة . ففى باكورة ربيع ذلك العام زحف بيبرس على طرابلس وإنطاكية بعد إستيلائه على «شقيف» ، وإنقضاضه على «يافا» بدون إنذار وقد لاقى شدة في الإستيلاء عليها فعقد العزم على أن ينتقم من بومند صاحبهما لمساعدته المغول في هجومهم على سورية فخرب كل ما حوالى طرابلس من الأراضى وسلب كل المدن والقرى ، وذبح كل من وقع في الأسر من الفرنجة . ثم تقدم الجيش إلى إنطاكية فأسر حاكم المدينة في إحدى هجماته على العدو . وكان بيبرس وقتئذ يرغب في الصلح فحاول أن يوسط ذلك الحاكم (الأسير) في أن يلقوا أسلحتهم ويسلموا المدينة . ولما خاب مسعاه من تلك الناحية غزا المدينة وهاجم أسوارها ثم أوصد أبوابها في وجه السكان وذبح من ذبح ، ومن بقى أخذه أسيراً وكان عددهم نيفاً ومائة ألف نسمة يدخل في ذلك الرهبان

[١٩ مايو]

والقسيسون . وفي اليوم التالى سلم رجال الحامية هاربين وكان عددهم نحو ثمانية آلاف عدا النساء والأطفال ، وقد وزعوا جميعاً مع من بقى من سكان المدينة سبايا حرب على رجال الجيش . أما المعقل فأشعلت فيه النار ومنه إمتد اللهيب إلى أنحاء المدينة فتركها أثراً بعد عين . وبعد ذلك أرسل بيبرس رسالة تهكم إلى بومند يشاطره فيها الحزن والأسى على مصير حاضرة ملكه المضيع . وعبارة الرسالة تنم عن الصلف والتقريع والسخرية .

[١٢٦٩ - ١٢٧١ م]

وفي خلال السنتين أو ثلاث السنوات التى تلت المعركة لم تفتر همة بيبرس الحربية عن دوام مناوأة الصليبيين فكان يستولى على معاقلهم معقلاً فمعقلاً رغم ما كان يصل إليهم من المدد من أوربا . وقد أملى بنفسه رسالة إلى بومند تيهاً وعجباً بنفسه وخاصة بعد إستيلائه على (عكّار) الواقعة بين طرابلس وحمص ، قال فيها «إن رايتنا الصفراء قد هزمت رايتكم الحمراء وأن «الله أكبر» قد أسكتت نواقيس كنائسكم»(١) .

وفي وسط هذه المعمعة جهز بيبرس أسطولاً لغزو جزيرة قبرس التى كانت ساعدت عكاء مساعدة جدية . غير أن عاصفة هبت عليه ، فحطمته قريباً من الجزيرة . هذه كانت خاتمة الأعمال التى حدثت ضد الفرنجة في حكم هذا السلطان ، غير أن عدم إنقطاع المدد الجديد من أوربا والخوف مما عساه يحدث في الشرق جعل بيبرس يعقد هدنة لمدة عشر سنوات بينه وبين مدينتى صور وعكاء . وبعد ذلك بقليل هلك بومند فدخلت طرابلس أيضاً في مهادنة مع بيبرس ، على أنه لم يبق للصليبيين من البقاع بعد هذه المدن الثلاث الاّ شيء قليل .

[١٢٧٥ م]

وكانت طائفة الإسماعيلية من الشيعة تقطن سورية إذ ذاك وكانت

---

(١) ومما يجب ملاحظته أن بلدة تسمى قصير كانت تابعة لامير يدعى ولهلم لم يصلها شرر هذه العاصفة لانها قدمت إلى المغير وثيقة قديمة فيها أن سيدنا عمر رضى الله عنه قد أوصى بأن تبقى هذه المدينة للمسيحيين فاحترم بيبرس هذه الوصية ولكنه احتال بعد قليل في سلبها وحمل ولهلم إلى دمشق .

خاضعة للصليبيين مقابل أن يحموها ، وقد كانوا من أشد أعداء بيبرس ومن أكبر خصومه فكانت هجماته على حصونهم تترى . ولما عقدت الهدنة بين الصليبيين والسلطان أصبح الإسماعيليون رعاياه ، وإنتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم فمنحهم السلطان مقابل ذلك بعض الأراضي في مصر ، فقضى بذلك على قوتهم وإختفوا شيئاً فشيئاً ، وان كنا لا نزال نسمع ذكرهم في القرن الرابع عشر . والواقع أنه لا يزال بعضهم إلى يومنا هذا[1] . ومن العجيب في أخلاق بيبرس أنه لا يترفع عن إستخدام خناجرهم في قضاء أغراضه .

[١٢٧٣ ـ ١٢٧٥] بعد أن أمن بيبرس كل المخاوف التى كان يتوقعها من جانب الفرنجة أصبح في وسعه أن يوجه كل قوته الحربية إلى المغول الذين أخذوا يزحفون على الغرب ، فسار بنفسه على رأس حملة قوية وإنقض عليهم بقلب ثبت عند نهر الفرات عام ١٢٧٣ م. وشتت شملهم وأجلاهم عن البلاد تماماً . ثم قضى السنتين التاليتين في القيام بحملات عدة على حدود آسيا الصغرى كللت كلها بالنجاح . وفي إحدى غزواته المروّعة التي قام بها على الأرمن لنقضهم العهود كانت مدينتا «سيس» «والمصيصة» مسرحاً للسلب والنيران ، وعاثت جنود الظاهر فساداً في كل البلاد من طرسوس إلى أطنه ، وكانت غنائمهم عظيمة حتى لقد ملأت فضاء أنطاكية .

وقد قام بيبرس في نهاية حكمه بأعمال حربية على بلاد النوبة ليثأر منهم لغزواتهم التى كانت تترى على صعيد مصر فكللت أعماله أيضاً بالنجاح العظيم ولا سيما لما كان قائماً من المشاحات بين أعضاء الأسرة المالكة وقتئذ ، وأصبحت هذه البلاد منذ ذلك العهد خاضعة تمام الخضوع لحكم المصريين بعد أن هزموا هزيمة منكرة في ملحمة دارت رحاها جنوبي دنقلة . ولما رفضوا إعتناق الإسلام إضطروا إلى دفع ضريبة الرؤس التي كانت تفرض على أهل الذمة . وأن يقدموا عدداً من الفيلة والزرافى وتحف النوبة

---

(١) ذكر برخارد عدة مئات من الأسر الإسماعيلية في مصيات .

مضافاً إلى ذلك نصف محصول الأراضي الزراعية وقد رجع الجيش المصري مثقلاً بالغنائم والسبايا . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن هذه أول مرة خضعت فيها بلاد النوبة حقيقة للنفوذ الإسلامى منذ ظهوره رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليهم من حين إلى حين .

[١٢٧٦ - ١٢٧٧ م] على أن الغزوة الأخيرة تعتبر من بعض الوجوه أعظم غزواته ، وسببها أنه قبل مماته بعام واحد سير جيشاً عظيماً لمؤازرة السلاجقة في قيسارية ضد أحد نواب المغول الذي غلبهم على حكومة البلاد . وفي الربيع التالى بعد أن أقام بيبرس إستعراضاً عظيماً سار في جيش عرمرم زاحفاً على كليكيا فهزم المغول هزيمة منكرة عند «أبلستين» . ولما دنا في زحفه من قيسارية خرج الأهالى يتقدمهم القضاة والأشراف وقابلوه في موكب حافل تصدح فيه [ابريل] الموسيقى ويعلو هتاف الفرح ودخلوا به كذلك إلى مدينتهم . وبعد أن قضى في المدينة بضعة أيام رأي أن مركزه فيها مهدد فرحل بطريق النهر الأزرق إلى حارم وقضى بها مدة . وكان «أبغا» وقتئذ قد سار على جناحي نعامة من الشرق ليثأر لجيشه المهزوم ويرجع نفوذ المغول وحكمهم . فلما وصل إلى قيسارية ، وكان بيبرس قد برحها ، إنتقم من مسلميها شر إنتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجلة والترحاب فقتل خلقاً كثيراً من المدينة وما حواليها[١] - هذه هي فظائع المغول في أرمينية وتلك كانت خيانة بيبرس الذي غادر المدينة التى إحتفت به نهب القضاء والقدر . وسره أن العدو الذي كان يخافه على سورية قد ولى بوجهه عنها إلى آسيا الصغرى .

[يونيه ١٩ منه] [يوليه ١٢٧٧] رجع بعد ذلك بيبرس وهو خالى البال إلى أنطاكية حيث قضى في الخمائل التى حول المدينة شهراً ، ثم قفل راجعاً إلى دمشق وإستراح هناك وأقام وليمة لامرائه من «البن القمر» وهو طعام تتاري وكان شديد الشغف به فأكثر منه فحم وقضى نحبه بعد أسبوعين ، وفي رواية أخرى أن القدح الذي

(١) قد ذكر بعض المؤرخين أن عدد القتلى كان مائتى ألف وبعضهم أبلغه إلى نحو خمسمائة ألف فلو سلمنا بهذه المبالغات لا يسعنا إلا القول بأن المذبحة كانت شنيعة .

شرب منه كان قد دس فيه السم لأمير من الأيوبيين فشرب منه الظاهر ساهياً ناسياً .

وهكذا مات الظاهر بيبرس وهو في أوج عظمته . وأصله مملوك قبجاقي أحضره أحد النخاسين ومملوكاً آخر ، وكان قد بيع قديماً في دمشق بثمانمائة قطعة من الفضة ثم رد إلى صاحبه لعيب في إحدى عينيه الزرقاوين . وكان أسمر اللون طويل القامة جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً خفيف الركاب يحب السفر والحركة . ومن عادته أن يشرف على كل شيء بنفسه سواء أكان بالقاهرة أم بالإسكندرية أم بأي مكان آخر راكباً جواداً أو هجيناً . والخلاصة أنه مولعاً بالسفر حتى قيل فيه :

يوماً بمصر ويوماً بالشام وبالـ فرات يوماً ويوماً في قرى حلب

وكان مغرماً بلعبة تتارية تشبه لعبة «التنس» عند الإنكليز وتدعى «القبق» كان يخصص لها يومين من كل أسبوع . ولما أخذ في بداءة أمره يرقى إلى مدارج القوة كان هو أو من تآمر معه اليد الفعالة في قتل سلطانين من سلاطين مصر . وفي النهاية أصبح مملوك الأمس نبيلاً وملكاً عظيماً اليوم ، يمتد سلطانه بلا منازع من الفرات إلى النيل ومن تخوم آسيا إلى سواكن على البحر الأحمر ، ولم تكن همته محصورة في تضييقه على الصليبيين وسده السبل في وجوههم وضغطه عليهم فيما بقي لهم من المعاقل القليلة العدد بل كان سلطانه نافذاً في كل البقاع .

وكان شديد العداوة للشيعة ومن أكبر المناصرين لأهل السنة . ومن جليل أعماله أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين كما ذكرنا وإن كان الخليفة ليس له من الأمر شيء إلا أسم الخلافة . وكان بيبرس يخضع لأحكام الشريعة ويقدس فرائضها وقد حج البيت الحرام وشيد كثيراً من المعاهد الدينية وتزوج أربعاً من عقائل التتار ـ عدا من كن في بيته من الجواري الحسان ـ فرزق منهن عدة أولاد ذكور وإناث . ومعرفة ذلك عنه مما يشرفه ولو أن العادة لدى المسلمين ـ وخاصة المماليك ـ أن يكتم أمر النساء فلا يعرف أحد

شيئاً عن الحياة المنزلية في بيت أمير أو سلطان . وكان بيبرس نموذجاً للمماليك في فضائله ورذائله فلم يخل من تلك الرذيلة التي لا تكاد تسمع بها في العالم الغربي . وعلى ما كان عليه من العسف في إبتزاز الأموال والغدر والقتل مما شوه إسمه ، كان ملكاً عاقلاً قوي الشكيمة[1] . على أن ما قام به من جليل الأعمال وعظيمها ونشاطه الذي لا يتسرب إليه الفتور وأعماله العامة ومبراته الحسان وظهوره بين جمهور الناس على الدوام وتألفه كل من كان حواليه كل ذلك حمل الناس على تناسي قساوته وغلظته فلا يزال أسمه يتغنى به إلى يومنا هذا في قهوات القاهرة ، وهو يعد من أحسن وأعظم السلاطين الذين تبوأوا عرش مصر .

[١٢٧٧ م] ومما لا شك فيه أنه كان يتطلع إلى حصر وراثة العرش في أسرته ولذلك أعلن قبل وفاته ببضع سنين أن ابنه سعيداً أكبر أنجاله خلف له على عرش مصر . وقبل مماته بعام زوج ولي عهده هذا من إحدي بنات قلاوون في إحتفال فخم راجياً من ذلك الزواج أن يكون هذا الأمير عضداً لابنه في إدارة شئون البلاد .

وقد حنطت جثة بيبرس ودفنت بدمشق ، على أن نعيه كتم عن الجمهور مدة شهر بأن حملت محفة خالية إلى القاهرة وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض ولذلك لم يعتل عرش[2] السلطنة ابنه سعيد إلا في الثلاثين من شهر يوليه .

---

(١) عند ذكر مجمل أخلاقه قال المقريزي «أنه كان عسوفاً عجولا كثير المصادرات لاغنياء رعيته حتى أن الكثير منهم مات من شدة معاملته» . وقد ارتكب فظائع مع اليهود والنصارى لم يسمع بمثلها فقد أشعل الحطب في تنور وأراد أن يلقي هؤلاء التعاعسين فيه فرجاه الأتابك فعفا عنهم واكتفى بضربهم بالسياط حتى مات الكثيرون منهم .

(٢) وبهذه المناسبة نقول انه قبل ممات بيبرس بتسع سنوات غادر معسكره عند «أرسوف» وسافر مستخفياً إلى القاهرة ليرى سير الأحوال فيها وقد بقي كذلك طوال إقامته بالقاهرة مختفياً في القلعة وقد ظن الجيش طول مدة غيابه أنه مريض في المعسكر .

الفصـل الرابع

السلطان السعيد ـ السلطان قلاوون

١٢٧٧ ـ ١٢٩٠ م

كان السلطان السعيد شاباً غراً طائشاً لم يعد التاسع عشر ربيعاً عند إعتلائه العرش ، ورث عن أبيه القسوة والغدر بيد أنه لم يكن على شيء مما كان لوالده من القدرة والعزم ، وكان منقاداً لنفوذ والدته . فلم يمض على قبضه على صولجان الملك بضعة أسابيع حتى سمم وزير والده (أتابك) ، وزج بغيره من ضباطه في غيابات السجون . ثم أخذ ينقاد لآراء صغار مماليكه ، فتباعد عنه جماعة الأمراء وأخذوا يحذرون نكاياته ، فلما أحس السلطان منهم ذلك أراد أن يشغلهم بما يلهيهم فأعد حملة على بلاد الأرمن وتخلف هو ووالدته بدمشق . وفي خلال تلك المدة إئتمر به جماعة من الأمراء وعلى رأسهم قلاوون ، وقد بلغهم أنه يريد بهم سوءاً فقفلوا راجعين إلى القاهرة فدخلوها وأوصدوا أبوابها في وجهه ، ولكنه على الرغم من ذلك دخل المدينة وتسلل خفية إلى القلعة ، وبعد أن حوصر فيها مدة أسبوع إضطر إلى النزول عن الملك والإنزواء في الكرك . فكانت مدة حكمه الخالية من الحوداث العظيمة تزيد على سنتين قليلاً .

[نوفمبر ١٢٧٩ م]

بعد ذلك استدعي قلاوون أكبر الأمراء وحموالسلطان السعيد ليتولى مقاليد الأمور فقام بها في أول الأمر باعتبار أنه (أتابك) أو وصي على ابن آخر صغير لبيبرس أسمه سيف الدين شلامش ، على أنه لم يلبث أن خلعه من الملك وتبوأ هو عرش مصر .

[١٢٨٠ م] وفي خلال العام التالي خرج سنقر حاكم دمشق على السلطان قلاوون ، ونادى بنفسه سلطاناً على البلاد السورية ، فأحزن ذلك قلاوون لأنه كان يخشى تفاقم شرّ أتباع أسرة بيبرس ، وكذلك كان يخاف زحف المغول على البلاد ثم البدو الذين كانوا يودون أن تستقل سورية عن مصر كما كانت . فحاربه السلطان وهزمه وإضطر سنقر إلى الفرار بعد مواقع عدة ، واستولى السلطان على دمشق ثانية وعاد الأمن إلى نصابه . أما الخارجون من أمراء مصر والشام فقد أحسن السلطان معاملتهم وأعادهم إلى مراكزهم (وكان من بين هؤلاء سنقر بعد أن أعطى عهد الولاء) . ولا شك أن هذه طريقة مثلى نال بها السلطان محبة الأمراء ومناصرتهم له[١] .

ولم يكد الأمر يستقر في نصابه حتى أخذت جيوش المغول تجتاح الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس الفظائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاماً . فأتوا في ولاية حلب من صنوف الوحشية والعسف ما إضطر الأهالي إلى الفرار نحو الجنوب . وأما أهالي دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب فهاجر منهم خلق كثير إلى مصر ليحتموا فيها .

[١٢٨٠ م] أما قلاوون فأنه سار بجيوشه عدة مرات لطرد تلك القبائل المتوحشة ، فكانوا يتراجعون أمامه ولكنه لم يقض عليهم في موقعة فاصلة . وقد إنتهز فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يرقبون فرصة إغارة المغول ، وأخذوا يسلبون المجاورين لهم ، فهاجمهم السلطان عقاباً لهم ، ولكنهم طلبوا الأمان ، فهادنهم مدة عشرة أعوام ، وكذلك أبرم السلطان مهادنة مع بومند ملك طرابلس ، إذ كان لا يزال يخشى إغارة المغول .

وفي خلال تلك الفترة ظهرت مؤامرة لاغتيال السلطان . ومن العجيب أن كشف أمرها أصدقاء قلاوون في عكاء حيث أسر المتآمرون إلى الفرنجة

---

(١) كان من بين أهالي دمشق الذين عفا عنهم السلطان «المؤرخ العظيم ابن خلكان» وكان شيخ قضاة المدينة ، وقد أفتى من قبل بصحة سلطنة سنقر .

بأمر مكيدتهم قائلين لهم من العبث أن تتعاهدوا مع السلطان الذي سيقتل في القريب العاجل . وذلك مما يدل على كثرة الإختلاط بين الأمراء والفرنجة مما لم يكد يخطر بالبال . وقد إعترف المتآمرون بفعلتهم والتمسوا الرحمة ، ولكنهم قتلوا جميعاً . وقد إمتدت الشبهة إلى نفر من المماليك فزجوا في أعماق السجون وفرّ عدة مئات من أتباع أسرة بيبرس إلى المغول . والحزب المنتمى لبيت الظاهر بيبرس الذي أصبح يطلق عليه حزب الظاهرية صارت له مكانة ثابتة في سياسة حكومة البلاد كما سنتبينه فيما بعد .

[١٢٨١ م] ثم زار السلطان دمشق ليحتفل بمأتم السلطان السعيد الذي قضى نحبه في الكرك ، وحملت جثته والدته لتدفن بجانب رفاة والده بيبرس . وفي خلال إقامته بدمشق إجتاحت قبائل المغول شمالى بلاد سورية ثانية بقيادة «أبغا» وأخيه منكوتمر فبذل قلاوون كل ما يستطيع من قوة وجمع جيشاً من المصريين والسوريين والبدو والتركمان يبلغ عدده خمسين ألف مقاتل ، ثم زحف نحو حمص ، فقابله منكوتمر في جيش كجيشه ثلثه من أهالى جورجيا والأرمن والأغريق ، ودارت بين الفريقين رحا معركة عنيفة كانت الغلبة فيها [اكتوبر] في بادىء الأمر للمغول . ولما يئس السلطان من النصر إعتصم هو وألف فارس بربوة مجاورة . غير أن المغول أضاعوا ظفرهم في هذا اليوم بتعجلهم إلى حمص لجمع الأسلاب ، فانقضت عليهم عساكر السلطان وسقط منكوتمر عن ظهر جواده وجرح . أما جيشه فولى الأدبار وفرق شذر مذر ، ومات منكوتمر بعد ذلك بقليل كمداً من خيبته ، وقيل من تأثير جروحه . وهلك أبغا في السنة التالية أيضاً .

ولا شك أن ظفر المصريين هذا يعد حادثاً عظيماً في تاريخ الشرق ومصيره لأنه لو قلب لهم ظهر المحن كما كاد يحدث ، لوقعت مصر في يد المغول بل ربما كانت ميول أبغا المسيحية أثرت في مصير سورية إذ بينما كان بعض حكام الشرق يعتنقون الدين الأسلامى كان أبغا لا يتزحزح عن إيثاره الدين المسيحي . والواقع أنه ما فتىءَ يرسلُ البعوث إلى البابا وملوك

أوربا طول مدة حكمه (كما حدث عام ١٢٦٧ و ١٢٧٦) ليستنهضهم على إرسال حملة صليبية جديدة وشن الغارة على مصر ولما خلفه أخوه على عرش الملك إعتنق الإسلام وتسمى بأحمد ودارت بينه وبين السلطان قلاوون الرسائل التي لم تكن ودية أحياناً بيد أن ابن أخيه «أرغون» أسره وقتله : وكان الأخير ينزع إلى الدين النصراني كما كان أبوه أبغا من قبل . وقد حذا حذوه غير أنه لم يكتف بارسال الوفود إلى الممالك المسيحية (١٢٩١) بل عرض أن يضع بين يدى البابا كل أرزاق دولته لاكتساح المصريين من سورية . وقد بلغ به الأمر في ترغيب البابا وإستنهاض المسيحيين ثانية[1] . ولكن كل هذه المفاوضات لم تسفر عن نتيجة مطلقاً . لذلك وضعت الحرب أوزارها بين قلاوون والمغول ولم يحاولوا أن يثأروا لأنفسهم من هزيمة حمص بل سرعان ما رجعت العلائق بين الدولتين إلى ما كانت عليه من قبل حينما إعتنقت أسرة المغول الحاكمة الدين الإسلامي .

[١٢٨١ م] وحافظ قلاوون على العلائق الودية ، التى أحكم أواصرها بيبرس ، بينه وبين أمير قبجاق الذي أعلن أعتناقه للاسلام . وطلب إلى السلطان أن يمنحه لقباً وشارة من شارات الشرف . وكذلك وفدت عليه الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الخصيان والفيلة والأفاويه وأنواع الببغاء . وقد تبودلت الرسائل بينه وبين ملك جزيرة سيلان (سرنديب) ، وكان قلاوون يبغى من وراء ذلك تشجيع التجارة مع الشرق . وعقدت أواصر الود والمصادقة بين السلطان والقسطنطينية وكثير من حكومات أوربا . ثم عقد في أخريات أيامه

(١) كان أرغون يعطف على اليهود والنصارى على السواء وقد عين أحد اليهود في مركز سام في بغداد وكذلك نقرأ أن المبشرين المسيحيين قوبلوا مقابلة حسنة في بلاد الفرس ، على أن مراسلات أمراء المغول مع البابوات وحكومات أوربا لها مكانة خاصة ولا يزال محفوظاً إلى الآن رسالتان بخط أرغون وأويلجيتو باللغة المغولية إلى فيليب الجميل (انظر ويل جزء رابع ص ١٥٢) وكانت لابغا زوج مسيحية وهي بنت غير شرعية للقيصر .

معاهدة تجارية مع جنوة ، وكذلك أبرم شبه معاهدة دفاعية بينه وبين قشتالة وصقلية .

[١٢٨٥ م] ولم يفتر عزمه بعد أن زالت مخاوفه من ناحية المغول في محاربة المسيحية في الشرق كلما وجد إلى ذلك سبيلاً . وكانت معاملته للأرمن غاية في الصرامة والارهاب . ولم يحصل مليكهم على هدنة من السلطان إلا بعد أن فرض عليهم جزية فادحة وسلموا جميع أسرى المسلمين (وبقى أساراهم مماليك) . ولم تفلت من قلاوون فرصة للاشتباك مع الصليبيين في حروب شعواء على ما بقى في أيديهم من أرض سورية . والواقع أنه كان لا يتأخر عن مهادنتهم كلما سمحت الأحوال غير أنه لم يكن من الصعب عليه أن يجد في الوقت المناسب سبباً وجيهاً أو عذراً للانتقاض عليهم . فاستولى على مدينة اللاذقية مع أنها كانت بموجب معاهدة طرابلس من أملاك الصليبيين .

[١٢٨٩ م] وهاجم طرابلس نفسها لسبب لا يستدعى ذلك[1] . وكانت مدينة عظيمة منيعة آهلة بالسكان . ومع ما قامت به قبرس من مساعدتها سقطت بعد حصار شهر وقتل أكثر رجالها وسبيت نساؤهم وذراريهم . ولم يمض وقت طويل حتى ضج بعض تجار المسلمين من سلب المسيحيين ونهبهم لهم بالقرب من عكاء . فاتخذ المسلمون ذلك ذريعة لاسعار نار الحرب على هذه المدينة التى هي آخر مأوى للصليبيين . على أن مهاجمة المدينة لم ترق أمراءَ المماليك الذين كانوا يخشون منعة حصونها ، ولكن السلطان حصل على فتوى من القضاة تنص على أن ما لحق التجار من الاهانات مبرر كاف لاعلان الجهاد على النصارى ، فأعلنه وزحف بقوة عظيمة لحصار القلعة ولكن المنية عاجلته في طريقه ، فترك ذلك العمل لخلفه . [١٢٩٠ م]

---

(١) ذلك أنه على أثر موت بومند ادعت أخته حق الملك . وكان برترام صاحب جبليت وعد بمساعدة السلطان في معارضة هذا الطلب بشرط أن يكون تابعاً له . غير أن أخت بومند نزلت عن مطلبها فظن برترام أنه أصبح بذلك غير مقيد بعهده فاتخذ قلاوون ذلك ذريعة لاعلان الحرب التى كان يتمناها .

وقد قام كذلك في أثناء حكمه بحملتين غير مجديتين على بلاد النوبة ، وشن الغارة على البدو الذين كانوا دائماً يهددون السلام في فلسطين وصعيد مصر . وقد قاتل أيضاً أهل اليمن في مكة لمنازعتهم مصر السيادة على هذه المدينة المقدسة . ولكن كل هذه الأمور كانت عنده في الدرجة الثانية بالنسبة لحروبه في سورية .

وكان في خدمته أكثر من اثنى عشر ألف مملوك من الجراكسة والمغول ، ومن بين هؤلاء عدد يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف كانوا نازلين بالقلعة ، ولذلك سموا البرجية كما أسلفنا . وأطلق عليهم هذا الأسم ليميزهم من المماليك البحرية وكانوا على وفرة عددهم على حظ كبير من حسن النظام . ولم نسمع حتى الآن شيئاً يثبت افراطهم وعسفهم مما صحب ذكر أسمهم فيما بعد من الذعر والفزع .

وقد حمد له مؤرخو عصره لينه وحلمه وعدله . والحق أنه جدير بهذا الحمد اذا قرناه بغيره من سلاطين بنى جنسه ، غير أنه كما شاهدنا كان يقسو ويغدر عندما تدعوه المصلحة ، كما كان يطرح ظهرياً أغلظ العهود والمواثيق لنيل مآربه . ومع هذا لم يك ظمآن إلى سفك الدماء كبيبرس ، ولكنه كان أقل منه تسامحاً مع المسيحيين ، وقد حرمهم كل نصيب في الوظائف العامة . أما معاملته للصليبيين فكانت تشف عن الانتقام والقسوة . ولشدة غيرته وظلمه أحياناً كان ما ينزله من العقاب غاية في القسوة والوحشية ، فمن ذلك أنه أوثق لصاً وهو ممدود على ظهر جمل ـ هذا النوع من العقاب سنسمع به كثيراً ـ وأمر أن يطاف به في المدينة حتى يقضى عليه . وأنه دفن نصرانياً حياً لتزوجه من مسلمة . أما تلك الزوج التاعسة فقد جدع أنفها . وعلى الرغم من كل هذه المعايب كان ملكاً عاقلاً ، جواداً ، محباً للخير . على أن أكبر عمل خلد ذكراه ، وجعل الناس ألسنة تلهج بالثناء عليه ، والاعتراف بحسن صنيعه ، وهو ذلك البناء الضخم الذي شيده في المدينة ، والذي يشمل بيمارستاناً ومدرسة تحتوى على قبة فيها قبره . وقد أعد في

البيمارستان غرفاً متسعة وفرشها بالأسرّة للمرضى من الفقراء والأغنياء على السواء وخاصة للنساء وعين فيه محاضرين . وأوجد به معملاً كيماوياً جهزه بكل أنواع المعدات الطبية ، ورتب في القبة خمسين من القراء يتلون آيات الله ليلاً ونهاراً . وانشأ بها مكتبة للجمهور ملأها بالكتب القيمة في كل فن . وعهد بها إلى حفاظ . وعين بالمدرسة علماء يحاضرون في المذاهب الأربعة . وكان بها كذلك مكتبة للأطفال ، ومدرسة للصبيان ، وملجأ للأيتام . وأن هذا الوصف لمما يذكر الأوربيين بالمعاهد العظيمة التى يقيمونها في بلادهم اليوم .

وفي هذا الوقت بدأ يدخل على فن العمارة شيء من المحسنات الأجنبية فأينعت ثماره في حكم أخلافه . ولا مشاحة في أن تلك المبرات وغيرها من الأعمال العامة التى أفادت البلاد كانت سبباً في تخليد أسم قلاوون في القاهرة إلى يومنا هذا .

[١٠ نوفمبر ١٢٩٠ م]

ومات قلاوون وهو في السبعين من عمره . وكان من القابه «الألفى» نسبة إلى ألف الدينار هذا الثمن الكبير الذي إشترى به حين كان شاباً جميلاً[١] . وقد ترك وراءه من الذرية ثلاثة ذكور وإبنتين . ولما مات أكبر أولاده جعل وراثة العرش لابنه الثاني خليل . وفي آخر أيامه تزوج من احدي بنات أمير من المغول هام على وجهه حتى حضر إلى مصر كغيره ، فولدت له ابناً سمي الناصر ، وسنسمع من أخباره كثيراً فيما يلى .

---

(١) ويقال أنه اشتري مرتين كل مرة بألف دينار . ولقب الألفي هذا بين ألقابه الملكية مما يدل على أن المماليك بدلاً من أن يخجلوا من أصلهم الحقير كانوا يفاخرون به .

الفصل الخامس
السلطان خليل بن قلاوون
(١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م.)

[١٢٩٠ م] جلس السلطان خليل على عرش أبيه في طمأنينة وسلام ، وكان مع ما به من الكبرياء والقسوة ينقصه ظرف أبيه وحكمته ، ويثبت ذلك أنه لما ولي السلطنة ووجد أن العهد بتوليته لم يوقع عليه والده قلاوون ، إذ كان يؤثر ابنه الناصر عليه ، لولا أنه قاصر ، أمر بقتل وزيره وأضمر السوء لكل أتباع والده فأبعدهم عن مناصبهم ونصب مكانهم أحداثاً من اخوانه وسماره . وكان لا يعبأ بقتل النفس جرياً وراء وساوسه وأوهامه ، فتراه آونة يأمر بخنق أحد خصومه ، ثم لا يلبث أن يرضى عنه ويقربه ، ثم يعيد الكرة تارة أخرى ، فيقبض عليه ويذيقه العذاب ، بل ربما أورد ذلك التعس موارد الهلاك . ولعمرى إن صحيفة تاريخ هذا الشاب مفعمة بتلك الفظائع .

[١٢٩١ م] ولم يقتد بوالده إلا في شيء واحد هو اصراره على إخراج الصليبيين كافة من سورية . وقد احتفل للعمل على تنفيذ هذا الإصرار باقامة الصلاة في قبة والده ، وبتوزيع العطايا على القضاة والفقهاء . ثم إستدعى كل ولاة سورية إلى دمشق . وطلب إليهم أن يمدوه بكل وسائل النقل لحمل ما يلزم من الذخائر والجنود إلى أسوار عكاء . ولما تم له ذلك حاصر المدينة ونصب حولها اثنين وتسعين منجنيقاً ، فدافع جنودها دفاع الأبطال ، وشدت أزرهم النجدة التى أرسلتها إليهم جزيرة قبرس . ولكن نيران الأحقاد ـ وتلك آفة الصليبيين من أول أمرهم إلى نهايته ـ التي كانت متأججة بين أمراء

الصليبيين إمتد شررها وإستعر أوارها ، حتي في ساعتهم تلك العصيبة . [١٨ مايو]
فأقلع من النجدة عدد عظيم بسفنهم تاركين المدينة ، فسقطت بعد حصار ثلاثة وأربعين يوماً ، فأعقب سقوطها حال محزنة ، أذ وقع رجال حاميتها جميعاً بين القتل والأسر ، وأخذ الأطفال والنساء إلى مصر أسارى . وقد بالغ السلطان في الفتك بهم ، حتى الفرسان الذين وعدوا بأن يفسح لهم طريق للنجاة أمر السلطان بقطع رقابهم جميعاً بدون رحمة[١] . ثم أحرقت المدينة ، ودمرت بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة[٢] . وعلى أثر هذا الفتح ترك الصليبيون كل ما بقى في أيديهم من الحصون . على أن ما لا قاه أهل بيروت من اهدار دمائهم وقتلهم صبراً لا يقل فظاعة عما وقع في عكاء . ولما عاد السلطان خليل إلى القاهرة زينت له المدينة أحسن زينة ، وأقيمت فيها الأفراح لاستقباله ، فدخلها مظفراً ، يسوق أمامه ، عنواناً على ظفره ، عدداً عظيماً من اسرى الفرنجة في الأغلال والأصفاد وفي اثرهم الفاتحون يحملون الأعلام المسيحية منكسة ، ورؤس أعدائهم على أسنة [١٢٩١ م] رماحهم . وهكذا ختمت الحروب الصليبية العظيمة ، بعد أن مضى عليها قرنان من الزمان كانت تشتد فيها وطأتها وتخف ، وقد حافظت طول هذه المدة على كيانها بوسائل تتبرأ منها تلك التعاليم التى جاء بها رسول السلام .
وقد ختم المؤرخ جبون تلك القصة المحزنة بقوله : «ساد سكون محزن على إمتداد ذلك الساحل الذي ظل أزماناً طويلة ميداناً تسمع فيه قعقعة سيوف نضال العالم .» .

ولما لم يبق في سورية ما يشغل السلطان خليلاً ، وجه جيوشه نحو [١٢٩٢ م] المغول ، ولكنه قبل أن يشرع في السير صلى بالناس في قبة والده ليثير

---

(١) ويعزى ذلك أن المسلمين لما دخلوا الحصن أساءوا إلى النساء والأطفال ، فأوصد خلفهم الصليبيون الأبواب وذبحوا المسلمين المعتدين . (أنظر كتاب ولكن جزء ٨ صفحة ٧٦٥ وانظر كذلك كتاب ويل . ملاحظة ٤ ص ١٨١ ـ حكاية شنيعة) .
(٢) إقرأ أبا الفداء ج ٤ صفحة ٢٥ .

حميتهم الدينية للجهاد ، ثم زحف مع جنوده المصريين من حلب إلى قلعة الروم ففتحها ، وحكم السيف في رقاب حاميتها من أرمن ومغول وسبى نساءهم ، وكتب إلى جميع ولاته ، وهو ثمل بلذة النصر ، منشوراً بأنه غير اسم قلعة الروم باسم «قلعة المسلمين» ، وأخذ يعلي من شأن نفسه قائلاً أنه قدر له أن يخضع الشرق لسلطانه ، من مشرق الشمس إلى مغربها . ولكنه تراجع إلى البلاد السورية حينما ظهر له المغول ، وكان ظهورهم بعد سقوط المدينة .

[١٢٩٣ م] وبعد أن قام ببعض غزوات ليست هامة رجع هذا السلطان الفتى إلى القاهرة وعبر النيل في خرجة للصيد والقنص ، وبينما هو يلهو بالصيد ، إنقض عليه عصبة من الأمراء الذين لم يبق في قوس صبرهم منزع ، لغطرسته وقسوته ، وإغتالوه . ولكن أتباع السلطان ، وعلى رأسهم كتبغا ، تعقبوا هؤلاء المغتالين ، فكان أول من ذاق الموت منهم رأس المؤامرة ، رغم ما قدم من رجاء بين أيديهم ورغم إعتذاره بأنهم لم يكن لهم بد من قتله بعد ما أتى به من المظالم والآثام ، وإعتذاره بأن آثام السلطان ومظالمه لم تترك لهم سبيلاً آخر يسلكونه ففعلوا فعلتهم هذه ـ وقد صاح قائلاً : «يبرر عملنا دعارة السلطان وإنغماسه في الشهوات واللذات مع من حوله من الفتيان ، وعكوفه على معاقرة الخمر حتى في شهر الصيام ، هذا إلى وحشيته في معاملة أصدقاء والده ، وزجه فريقاً منهم في أعماق السجون ، ثم القضاء عليهم» ـ والواقع أن ما قاله حق ، ولكنه لم ينجه من مخالب الموت .

وبقيت جثة السلطان ملقاة على الثرى سحابة يومين حتى واراها في التراب قروي ، ثم نقلها أتباعه فيما بعد إلى قبته بظاهر القاهرة ، حيث دفنت . وترك من البنات اثنتين ، ولم يعقب ذكراناً . وحكم البلاد نحو ثلاثة أعوام . ومؤرخو المسلمين بالطبع يمجدون اسم السلطان خليل لما قام به من الحروب المظفرة لاعلاء كلمة الإسلام . ولكن لا يغرب عن بالنا أن الضربة القاتلة التي قضت على جنود الصليب ، كانت بيد رجل وضيع الخلق كثيراً وهو السلطان خليل ، وقد وصفه بهذا هؤلاء المؤرخون أنفسهم .

الفصل السادس

السلطان الناصر بن قلاوون ـ السلطان كتبغا ـ السلطان لاجين

(١٢٩٣ ـ ١٢٩٩ م.)

يكاد ينحصر تاريخ البلاد في الأعوام الخمسة التى أعقبت موت [١٢٩٣ م] السلطان خليل في حوادث مؤامرات وقتل يتلو بعضها بعضاً بسرعة . انتخب الناصر أصغر أولاد قلاوون سلطاناً لمصر بإجماع الآراء بعد قتل أخيه ، وكان أذ ذاك في التاسعة من عمره ، ثم خلعه كتبغا بعد عام من توليته ، وولى مكانه لاجين . ولما قتل لاجين ، كما سيأتى بعد ، أعيد الناصر ثانية إلى العرش .

على أن حكم الناصر للبلاد في سلطنته الأولى لم يكن إلا اسماً فقط ، [ديسمبر] وذلك لأن كتبغا وصيه ، والشجاعى وزيره ، قبضا على زمام الأمور في البلاد وأعملا السيف باسراف في رقاب كل من وصلت إليهم أيديهما ممن اتمروا بالسلطان الأشرف خليل فقطعت أيدي وأرجل ثمانية من هؤلاء ثم شدوا على ظهور الابل ، وطيف بهم حول المدينة حتى فاضت أرواحهم . وقد دفعهما الحقد على وزير[١] السلطان خليل الذي كان مقدماً لديه إلى القبض عليه وتعذيبه حتى الموت ، إبتغاء الحصول على أمواله الكثيرة .

على أن الحال لم تدم طويلاً حتى شجر بينهما الخلاف وإضطرمت نار

---

(١) هو شمس الدين بن سعلوس . والذي قبض عليه وعذبه هو سنجر الشجاعي ؛ قال ابن أياس (وجعل يعاقبه ويعصره بالمعاصر حتى مات ج ١ صفحة ١٣٠) .

الحقد ، وكان الشجاعي صاحب الكلمة النافذة على كل المماليك البرجية الذين في القلعة في حين أن كتبغا المغولي كان يشد أزره حزب من بني جنسه أخذ عدده يزداد بسرعة ، وقد سعى الشجاعي في نصب الشراك لكتبغا أثناء دخوله القلعة ، فأدى ذلك إلى إضرام نار حرب داخلية بينهما كانت نتيجتها أن حاصر كتبغا القلعة وقتل الشجاعي . ولما صفا الجو لكتبغا طمح إلى كرسي السلطنة ، فصادق لاجين وغيره ممن اشتركوا في المؤامرة على السلطان لينال بهم وطره ، فأثار ذلك غضب أتباع بيت قلاوون ، لدرجة جعلهم ينحازون إلى الحزب الثائر عليه . وأوقدوا نار الفتنة ، ونهبوا الأسواق ودور الحكومة ، وعاثوا فساداً في المدينة يوماً وليلة . فكانت مسرحاً للهياج والدمار ، ثم قبضوا على بعض الزعماء من أتباع بيت قلاوون وقطعوا أوصالهم ،[1] وفر عدد كبير من رجالهم ، وقد إتخذ كتبغا هذا الإضطراب وسيلة يتذرع بها إلى القول بأن بقاء مقاليد الأمور في يد طفل ، أمر يهدد سلام البلاد ، فخلع السلطان الناصر وأرسل إلى الكرك من أعمال الشام .

[ديسمبر ١٢٩٤ م] ولما إعتلى كتبغا أريكة عرش مصر على هذا الشكل ، أدى به ضعفه وقصر نظره أن ملأ مراكز الحكومة بأتباعه وأذنابه ، ورقى كثيراً من مماليكه إلى مرتبة الأمراء ، فصرف ذلك عنه قلوب الأمراء الأقدمين . وكان من سوء حظه كذلك أن رحب بطائفة العويراتية ، وهم قبيلة من همج التتار يبلغ عدد أسرها (١٨٠٠٠) طردوا من بلاد الفرس ، وأنزلهم هو وقتئذ في بلاد سورية . ومع أنهم دخلوا تدريجاً في الدين الإسلامي ، فان الناس أبغضوهم لطبائعهم الوثنية وخاصة أكلهم لحوم الخيل[2] . وقد أصاب كتبغا نفسه نصيب من المعرة بانتسابه لهذا الجنس . وفي مدته نزل بالبلاد قحط ، إستمر زمناً طويلاً ، وأعقبه وباء فنتج عنهما بطبيعة الحال بؤس وشقاء وخسارة

(١) ذكر المقريزي أن بعض هؤلاء التعسين قطعت أيديهم وأرجلهم وألسنتهم . وعلق بعضهم على أبواب المدينة ، وقد جرى ذلك على نحو ثلثمائة نسمة .

(٢) انظر تاريخ أبي الفداء ص ٢٣ جزء ٤ .

كانت التبعة فيها واقعة على السلطان[٣] . ولما أراد أن يسد النقص الذي حدث في إيراد البلاد طاف بجيشه في بلاد سورية وانتزع بالقوة من ولاياتها المختلفة ما أمكنه أن تصل إليه يده من المال . غير أن سوء معاملته للأمراء زاد في إنصرافهم عنه وسخطهم عليه ، ولذلك دهموه في «حمص» عند خروجه للصيد ، فأفلت من أيديهم وهرب إلى دمشق حيث وجد أن لاجين قد مكن لنفسه في البلاد وأعلن سلطاناً عليها ، فأذعن له وأشهد على نفسه بالخلع ، ثم حلف يمين الطاعة له .

[ديسمبر ١٢٩٦ م] بويع للسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بملك مصر باجماع الآراء ، وكان من مماليك السلطان «أيبك» ثم صار إلى السلطان قلاوون فأعتق رقبته ، وأخذ يدرج في معارج الرقى ، حتى أصبح أميراً ، ثم والياً على سورية . ولما عاد هذا السلطان إلى القاهرة قابله الناس بالحفاوة والبشر ، وقلده الخليفة سلطنة البلاد وسار في ركابه أثناء طوافه بالمدينة . وسر الناس به لأنه لما عاد الرخاء إلى البلاد رفع عن عاتقهم كل الضرائب الفادحة التي سببها ذلك القحط[٢] . غير أن هذا السلطان لم يلبث أن أصبح خاضعاً لنفوذ «منكوتمر» أحد مماليكه ، ذلك أنه عينه نائباً على البلاد ، ورفع مرتبته حتى صار هو الحاكم المتصرف في شئونها ، فأخذ يعامل كل من حوله بمنتهى الشدة والقسوة مما آثار الفتن الشعواء في البلاد .

[١٢٩٨ م] ولما رأي لاجين الخطر يتهدده من جانب حاشيته ، أراد أن يشغلهم عنه بالقيام بحملة إلى بلاد أرمينية وكانت الأحوال ملائمة وقتئذ بما كان قائماً في تلك البلاد من الخلاف على وراثة العرش ، يضاف إلى ذلك أن غازان

---

(١) بلغ ثمن البطيخة في هذا القحط مائة درهم . ومات في القاهرة من الوباء في شهر واحد (١٧٥٠٠) نسمة . ويقول ابن أياس أن مجموع الوفيات بلغ (٧٠٢٠٠) نسمة . وكانت جثث الموتى المطروحة في كل مكان تلقى في النهر وتنهشها الكلاب التى كانت تذبح ويأكلها الفقراء الذين كانوا يتضورون جوعاً .

(٢) إنحطَّ سعر الاردب من القمح من ١٦٠ درهما إلى ٢٠ درهماً .

حاكم الفرس وحليف أرمينية ، كان مغلول اليدين لاشتباكه في حرب مع أعدائه في الشرق . وقد أراد ملك أرمينية أن يرد هجوم المماليك على بلاده بشروط مخزية ، على أن ذلك لو تم لقضى على مأرب السلطان لاجين من إقصائهم عنه وشغلهم بغير اثارة الفتن والهياج ، لذلك سار الجيش في طريقه على أرمينية ، وأطلق يد التخريب والنهب في البلاد من «سيس» إلى «أطنه» ، ثم رجع إلى سورية مثقلاً بالغنائم . ثم أرسل السلطان هذا الجيش مرة ثانية ليستولى على معاقل معينة كان من بينها معقل «النجمة» الذي لم يُسلَّم الاَّ بعد حصار دام أربعين يوماً .

[يناير ١٢٩٩ م]

وفي أول العام التالى بعث السلطان لاجين «قبجاق» أحد كبار أمرائه على رأس جيش إلى حلب حين سمع باشاعة زحف المغول على البلاد ، ولكنه في الواقع أرسل أوامر سرية يحتم فيها أن يدس السم لقبجاق وأصحابه أو أن يقضى عليهم بأية وسيلة أخري ، غير أن قبجاق أحس الخطر فهرب هو وأمراؤه ومماليكهم إلى الفرس وكان عددهم خمسمائة ، فأكرم غازان ملك الفرس مقابلتهم ، ثم أنهم أخذوا يغرونه بالهجوم على سورية ، وستأتي آثار هذا الاغراء في عهد السلطان التالي .

على أن حكم لاجين أو بعبارة أصح حكم منكوتمر في البلاد ما فتيء يثير نار حقد الأمراء وخاصة عندما وقع التقسيم في الأملاك العامة[1] الذي كان من شأنه نقص دخلهم السنوي .

ولما بلغ السيل الزبي ، إنتهز اثنان من الزعماء ، بعد أن ضاقا ذرعاً باحتمال هذه المظالم ، فرصة غياب الجيش ، وقتلا السلطان وهو يلعب الشطرنج ليلاً في قصره ، وفي الحال انقضا على منكوتمر فأوديا بحياته ، ثم

(١) وكانت الأراضي مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، عشرة منها للأمراء . وعشرة للجيش ، وأربعة للسلطان وحاشيته . غير أن القسم الأخير وزع في التقسيم الجديد بطريقة أغضبت الأمراء ورجال الجيش (إقرأ المقريزي من جزء ٤ ص٣٠) .

وضعا مقاليد الأمور في أيديهما ، ولكن ذلك لم يدم غير ثلاثة أيام ، اذ رجع بعدها الجيش إلى القاهرة فقتل هذين الزعيمين ، وإستقر الرأي بعد ذلك على إسترجاع الناصر من الكرك . وفي خلال تلك المدة كان يدير الأمور في البلاد مجلس مؤلف من ثمانية أشخاص .

وكانت زوجه أبنة السلطان الظاهر بيبرس . وكانت أكبر غلطة له ، أنه أفسح المجال لرقى مماليكه ، وتهاون في سلطته ، حتى أصبح آلة في يد منكوتمر يحركها كيف يشاء . وفيما عدا ذلك كانت أخلاقه تفضل أخلاق كافة السلاطين العاديين[1] .

---

(١) مما يدعوا إلى العجب أن مؤرخى زمانه من الغربيين يقررون أن لاجين من أصل ألمانى ، ثم اعتنق الإسلام ، وهذا خرافة ، إذ لدينا من المصادر الشرقية ما يثبت تاريخه من وقت أن اشترى مملوكاً ، وهو على الراجح في سن الثامنة . وقد قال بعض المؤرخين أنه من أصل إغريقى .

الفصـل السـابع
عودة الناصر إلى العرش للمرة الثانية
السلطان بيبرس الجاشنكير
(١٢٩٩ ـ ١٣١٠ م)

[فبراير ١٢٩٩ م] عاد الناصر إلى اعتلاء الأريكة المصرية للمرة الثانية بين هتاف الناس وأفراحهم . ولما كان وقتئذ لم يجاوز الرابع عشر ربيعاً ، صار بالضرورة في قبضة وزرائه ، فكان الأمير سلار المنصوري نائب سلطنته والأمير بيبرس الجاشنكيز رئيس قصره ، وكان الأخير منهما ، بحكم مركزه ، صاحب النفوذ على المماليك البرجية ، في حين أن الأول كان له السلطان على الأمراء المستقلين . وكانا يتنافسان في ترقية أتباعهما وإعلاء مكانتهم ، شأن المماليك . وقد كاد التنافس بينهما يبلغ مبلغاً عظيماً لولا أن شغلهما الخطر الداهم من ناحية المغول ، وتخريبهم للبلاد من جديد .

وذلك أن العداوة القديمة العهد بين مصر وأواسط آسيا قد أيقظتها مهاجمة السلطان لأرمينية ، واكرام مصر لمن فرّ إليها من عصاة المغول ، يضاف إلى هذا إستصراخ «قبجاق» واخوانه الفارين معهُ ، للمغول . وصلت أخبار المغول إلى مصر في خريف عام ١٢٩٩ م. فزحف السلطان على رأس جيش جرار ، متباطئاً في سيره ، وزاد الطين بلة أن أخره في الطريق تدبير مؤامرة خطيرة من زعماء قبيلة العويراتية ، الذين انضم إليهم الأمراء الناقمون ، لاغتيال السلطان ووزرائه ، واعادة صاحبهم كتبغا إلى عرش مصر ، فكانت هذه المؤامرة سبباً في تأخر زحف الجيش أيضاً . وقد لقي المؤتمرون جزاء فعلتهم ، وسار الجيش في طريقه . ولما علم المصريون أن [٢٣ ديسمبر] غازان عبر نهر الفرات على رأس جيش مغولي يبلغ عدده مائة ألف مقاتل ،

جدوا في زحفهم . فالتقى الجمعان عند «سلمية» شمالى حمص . وكان الجيش المصري نحو ثلث جيش العدو فدخر ، وولى جنوده مذعورين . وقد إجتاح المغول ، بالرغم من خسارتهم نحو أربعة عشر ألفاً من مقاتلتهم ، كل شيء أمامهم . وفي ذلك الحين هجر دمشق كل من فيها من الجند والقادرين على الفرار ، وأصبح من بقي فيها في ذعر وجزع شديدين . [٣٠ ديسمبر] غير أن غازان ، لما قارب المدينة ، خرج إليه وفد من كبار رجالها ، فأستقبلهم إستقبالاً حسناً ، وطمأنهم ، وكف أيدى جنده عن إرتكاب الفظائع ، ثم أعلن للناس عهداً قرىء في الجامع الأموي ، وهو يكفل حماية الأهالي جميعاً حتى اليهود والنصارى ، ويعد بحكومة عادلة في كل أنحاء مصر حينما تنضم إلى ملك المغول[١] . ولكن بالرغم من نجاة دمشق على هذا الوجه ، كان ما حواليها ، بل في الواقع جميع بلاد سورية ، قد أصابها ما يحزن من سلب وتخريب . وقد نصب عليها نائب مغولى ، وعين قبجاق نائباً على دمشق ، مكافأة له . أما قلعتها فلم تسلم بعد[٢] . وكان الظاهر من سير الأمور وقتئذ أن البلاد السورية ، أصبحت في قبضة المغول . غير أن غازان اكتفى إذ ذاك بالتهديد بسرعة العودة إلى البلاد إنْ رجعت إلى [فبراير] عصيانها . ثم عاد إلى أوطانه بعد شهر .

وفي خلال ذلك كانت الجنود المصرية قد ألقت سلاحها ، وخلعت ما عليها من الملابس العسكرية ، وفرت من ساحة القتال ، وهي في غاية الإرتباك والفوضى ، وقد مرت بدمشق في طريقها إلى القاهرة . وقد وصل السلطان الصغير إليها وهو لا يكاد يكون معه جندي واحد . وفي الحال شرع

---

(١) ذكر هذا العهد كاملاً النويرى ، وفيه كثير من الآيات القرآنية ، وقذف في الحكومة المصرية . وفي تأمينه لليهود والنصارى اقتبس من كلام الامام علي ما معناه : إذا دفع أهل الكتاب ما يفرض عليهم من جزية كان لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

(٢) كان المتبع وقتئذ ألا تكون القلاع في سورية تحت حكام المدينة بل تحت قواد مستقلين .

يتخذ العدة لمحو هذا العار ، فجمعت الضرائب الفادحة لتجهيز ما يلزم[1] .
ولم يمض شهران حتى كان الجيش في طريقه لانقاذ سورية من يد العدو .
[مارس] بيد أن المغول كانوا قد جلوا عن البلاد ، فدخلت الجنود المصرية دمشق ثانية ، وإستولت على كل أنحاء سورية ، من غير حرب ولا قتال ، وعفا السلطان عن قبجاق ومن معه من الفارين . أما دمشق فأخذت تعانى ألوان العذاب من سادتها المصريين إذ إنتقموا ممن تخلف فيها من السكان وكانوا يوادون المغول شر إنتقام . وقد إستمرت المدينة في فزع ووجل ، لأن غازان توعدهم بالعود إلى سورية في فصل الخريف ، ولأن المصريين أثقلوا كاهل البلاد بفادح الضرائب .

على أن غازان لم يبدأ بالزحف غرباً على البلاد السورية الاّ في قلب الشتاء . وكان البرد قارساً ، فرجع أدراجه بعد هجومه على إنطاكية ، وكان إلى هذه اللحظة يؤمل ، كما أمل أسلافه من قبله ، أن تساعده الدول [مايو ١٣٠١ م] المسيحية (مع أنه مسلم) في إنتزاع سورية من قبضة المماليك . وقد بقيت الوفود المغولية ترسل إلى بلاط إنجلترة وفرنسا حتى عام ١٣٠٢ م، ولا تزال إلى الآن رسالة من رسائله في إنجلترة يشكو فيها مر الشكوى من تقاعس الغربيين عن مؤازرته[2] . ولما يئس أخيراً من مناصرة الغربيين له ، رأى أن يهادن مصر ، فأرسل وفداً يحمل رسالة عاب فيها السلطان لهجومه على [اكتوبر] أملاكه من غير سبب ثم توعده بالانتقام اذا لم يقبل الشروط التى عرضها عليه ، فكان رد الناصر من جنس رسالته إذ عابه على ما إرتكبه أبوه وأجداده الوثنيون ، ووبخه لتحالفه مع دول أوربا التي حاربت الخليفة ودينه . وعلى

---

(١) جمع مبلغ كبير جداً من الذهب وعرض في السوق لتجهيز الكند . وقد نزلت قيمة الدينار من ٢٥ درهماً إلى ١٧ درهم ، وكثيراً ما كان السعر يقف عند ٢٠ درهماً .

(٢) طالع M. Remusat in Mem de l'acad Vol. VII. page 388 حيث تجد جواب الملك ادورد المؤرخ ١٢ من مارس عام ١٣٠٢ م. وكانت لا تزال في تلك البلاد روح صليبية . وكانت سيدات جنوة متأهبات للإشتراك في المشروع .

الرغم مما في الرسالة من التهديد والوعيد ، قد ختمت بعبارة تؤكد لغازان ، أنه اذا خفف من غلوائه ونزل عن غطرسته فانه يجد السلطان على تمام الأهبة لقبول مصادقته ومصافاته[1] . فلما وصلت هذه الرسالة التي لم تراع في كتابتها الروية والعقل ، إلى غازان ، عقد العزم على إضرام نار الحرب ، ولكنه رأي في الوقت نفسه أن يمد أجل السلام عاماً آخر .

[فبراير ١٣٠٢ م]

وقد إستفادت مصر من تلك الفترة التي ساد فيها السلام بينها وبين غازان ، إذ دبرت حملة على البدو الذين قاموا في وجه الحكومة وأقاموا لأنفسهم حكومة مستقلة ، وأقلقوا الصعيد كله ، وآذوا سكانه . وقد تولى قيادة الجيش «سلار» و«بيبرس» بأنفسهما ، فقسم الجيش إلى ثلاث فرق ، أخذت العدو من كل جانب ، وأعملت فيه السيف بلا رحمة ، فهلك كل مقاتلة الأعراب ، وسبيت نساؤهم .

وفي مايو سيرت حملة أخرى لمعاقبة الأرمن على ما قاموا به من مساعدة المغول . زحفت هذه الحملة نحو «سيس» حاضرة ملكهم فخربت تلك البلاد التعسة ثانية . وبعد هذا الحادث بزمن يسير ، جهز السلطان أسطولاً وسيره على الصليبيين الهيكليين الذين كانوا لا يزالون مستحوذين على جزيرة أرواد فغزا الشاطىء وإستولى على الجزيرة وذبح سكانها المسيحيين . أما برج الحصن فلم يبق فيه على قيد الحياة غير ٢٨٠ مقاتلاً أسروا جميعاً . وهكذا قضى القضاء الأخير على البقية التعسة الباقية من جنود الحرب الصليبية العظمى .

وفي عام ١٣٠٣ م. زحف المغول بجموعهم على بلاد سورية في حملتهم التي طالما هددوا بها وتوعدوا ، غير أن غازان رجع أدراجه قبل أن تطأ قدماه أديم سورية وترك القيادة لحميه «قطلوشاه» أما الجيش المصري الذي يقوده الناصر الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً فانه زحف من

(١) هذه الرسالة نموذج من التفاخر الشرقي وهي تشغل تسع صفحات من كتاب ويل . وهي مملة في قراءتها . وفيها كثير من الآيات القرآنية الشريفة .

دمشق وكان قد فرَّ منها فزعاً مذعوراً كل من قدر على الفرار[1] وفي مساء [٢١ ابريل] تلك الليلة التي زحفوا فيها التقت جموعهم بجموع المغول في سهل «مرج الصفر» وكان عدد المغول ومن انضم إليهم من الأرمن وجنود جورجيا مائة ألف مقاتل .

وفي اليوم التالي دارت رحا الحرب وقد كان يظهر في باديء الأمر أن الهزيمة ستكون على المصريين لأن جناح جيشهم الأيمن كسر وولى جنوده لا يلوون على شيء ، أما سائر الجيش فثبت للعدو واكتسح أمامه جموعه المحتشدة بعد أن أعمل فيهم السيف تقتيلاً وتذبيحاً . وفي اليوم التالي ركنوا إلى الفرار بعد أن بلغ منهم الجهد وإتجهوا نحو الصحراء[2] متكبدين خسائر فادحة ، وبعد هذا الظفر رجع الناصر إلى دمشق وأقام بها ثملاً بلذة النصر وأرسل إلى غازان رسالة تضارع رسالة الظاهر بيبرس إلى «بومند» في روعة ألفاظ الفخر والتهديد والوعيد باجتياح آسيا من أقصاها إلى أقصاها . ولما أعتزم العود إلى القاهرة كان الفرح شاملا وأقيمت له الزينات على حسب عادات الشرق ففرشت الطرق بالبسط حتى أن حافر جواد السلطان لم يمس أديم الأرض وقد دخل العاصمة في محفل لم ير مثله من قبل[3] .

[١٣٠٣ م] أما في بلاد الفرس فكانت الحال على عكس ذلك فقد دام العويل والحزن في (تبريز) عدة أسابيع ولما أمض غازان إعتزل العالم ولزم عقر بيته

---

(١) كان الذعر من قرب هجوم المغول عظيماً جداً حتى أن بعض الأهلين كانوا يقدمون من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ دينار ثمناً لاى مطية يمكنهم الهرب عليها وقد ترك بعض الناس أسرهم واعتصموا بالقلعة .

(٢) كان من بين أبطال هذه الموقعة أثنان من الثقات وهما اللذان نعتمد في هذا التاريخ عليهما : أبو الفداء والنويري .

(٣) تلا هذه الأفراح زلزال ، ويقول المقريزي أن الموسيقى والأفراح في طول البلاد وعرضها كانت على درجة عظيمة من الإسراف والرياء حتى أن الرجال كانوا يودون لو أصابهم زلزال يقضي على حياتهم .

مدة ثم عاد فجيش جيشاً جديداً آملاً أن تمد إليه أوربا يد المساعدة في الهجوم على سورية ثانية ولكن المنية عاجلته قبل أن يخرج مشروعه إلى حين العمل . وقد كان حاكماً حميد السيرة عادلاً يفضل كل القانات (الخانات) .
وفي مدته بلغت قوة المغول في الفرس أوج عظمتها غير أن ما حل بداخلية البلاد وبمدينة هيرات من الإضطراب أنقذ الغرب من الهجمات التي كانت توجه إليه من هذه الناحية .

[١٣٠٤ - ١٣٠٥ م]

وفي خلال السنتين التاليتين عاد المصريون فهاجموا الأرمن التعسين في عقر دارهم عقاباً لهم على مساعدتهم المغول في الحرب الأخيرة فنهبت بلادهم كالمعتاد وإستولى الجند على حصن «تل حمدون» وخربوه وأعملوا السيف في كل من كان فيه من زعماء الأرمن الذين كانوا يحمون ذماره ولم ينج منهم الاّ واحداً أعتنق الإسلام ثم عاد السلام إلى نصابه بعد أن دفع أمير «سيس» كل ما كان متأخراً على البلاد من الجزية . وكذلك سير السلطان حملة على الدروز في معقلهم الجبلي في كسراوان[١] .

وفي غضون تلك المدة أصدر السلطان قوانين صارمة ضد اليهود والمسيحيين ويعزى صدورها إلى سبب لم يكن في الحسبان ذلك لأن حكومة أرجون أرسلت وفداً إلى سلطان مصر تطلب إليه أن يسمح بفتح بعض كنائس خاصة ويفك أسير مسيحى فأجاب السلطان الملتمس ، ولكن حينما كان الوفد عائداً إلى الإسكندرية ليبحر منها ، رأى السلطان أن يأخذ فدية هذا الأسير وأرسل يسترجعه ، فلم يكتف الاسبان بالرفض بل أخذوا معهم الرسل الذين جاءُوا من القاهرة فأوغر هذا العمل صدور المصريين على المسيحيين وأثار ثائر عدوانهم وعاملوهم بالقسوة على الرغم مما قدمته دول أوربا من الاسترضاء على أنه لم يكتف بمعاملتهم عند هذا الحد بل أذن بمهاجمة المسيحيين والاعتداء عليهم علانية ، ولم يكن ذلك بغض النظر من

(١) بين طرابلس ودمشق .

بيبرس فقط بل بتحريضه ، فأبعدوا من كل وظائف الحكومة وأعمالها وشدد عليهم في تنفيذ ما كان مشروعاً لهم من ركوب الدواب وهدم كل ما شيد من صوامع اليهود وبيع النصارى منذ ظهور الإسلام ، وقد كتب مرسوم بذلك ونشر في كل أصقاع الدولة من الفرات إلى النوبة . وقد إشتد بهم الحال وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فلم يجدوا لهم مخرجاً الاّ الهجرة أو الدخول في الإسلام وكثير منهم من فعل ذلك . على أن هذا المرسوم كغيره في الواقع لم يلبث أن صار في زوايا الاهمال تدريجاً ولكن فرض اعادة تطبيقه كانت خطراً يتهدد هؤلاء المساكين من حين إلى حين[1] .

وفي غضون السنوت القليلة التى تلت هذه الحوادث شجر بين حزب سلار وحزب عدوه بيبرس خلاف شديد طالما هدد بوقوع حرب علنية بينهما . وفي أثناء هذه المشاحنات سير السلطان حملة إلى بلاد اليمن لامتناعها عن دفع الجزية فاجتهد سلار في أن تكون قيادة الحملة بيده ، ظاناً

---

(١) ربما كان من المفيد ذكر المرسوم بايجاز : كان حتماً على اليهودى أن يلبس عمامة صفراء والنصراني عمامة زرقاء حتى يمكن تمييز كل منهما بمجرد النظر إليه . أما نساؤهم فكن يلبسن غطاء خاصاً على صدورهن به يمكن تمييزهن . وحرم عليهم حمل السلاح أو اعتلاء متون الخيل ، ولكن سمح لهم بركوب البغال بشرط أن يركبوا وأرجلهم على جانب واحد منها ، ومن غير أن تزين سروجها . وكان من الواجب عليهم أن يفسحوا الطريق للمسلمين ويتركوا لهم وسطها . ويجب عليهم أن يقوموا في المجتمعات وقوفاً للمسلمين وإلا يرفعوا أصواتهم فوق أصواتهم ، والا يحتفلوا «بعيد الزعف» جهاراً وألا يستعملوا النواقيس في كنائسهم أو يحاولوا بأية طريقة رد أى مسلم عن دينه . وكذلك حرم عليهم أن يمتلكوا عبيداً من المسلمين أو اسرى منهم أو يكون في حيازتهم شيء مما وقع غنيمة للمسلمين . وإذا ذهبوا إلى الحمامات العمومية وجب عليهم أن يعلقوا في رقابهم أجراساً . وكان محرماً عليهم نقش كتابات عربية على خواتمهم أو تعليم ابنائهم القرآن وكان عليهم أن لا يتطلبوا من العمال المسلمين أعمالاً شاقة . وإذا ائتلف أي واحد منهم بامرأة مسلمة كان جزاؤه القتل .

ولم ينشر هذا المرسوم في الكرك والشوبك دون سائر بلاد الدولة وذلك لقلة عدد المسلمين فيهما .

أنه ينال بذلك النفوذ الأسمى في البلاد ، ففطن لذلك بيبرس وأحبط مسعاه فخابت آمال سلار . ولم يكن السلطان الناصر وقتئذ محروماً كل سلطة في ادارة شئون البلاد بل كان في كثير من الأوقات يترك ساغباً حتى يكاد يموت . وأتفق أن حال السلطان وشدة عوزه ساءت أحد الوزراء . فقدم له شيئاً من المال هدية لأزواجه فأحس ذلك سلار . وقبض على الوزير وعذبه عذاباً شديداً حتى قضى نحبه . على أن سلار في خلال كل تلك المدة كان يجمع القناطير المقنطرة من المال لنفسه ، ولما خرج مرة إلى الحج ، أنفق كل ما أدخره من مال عن سخاء هنالك ابتغاء الشهرة .

ولما قارب الناصر سن الرجولية أخذ يحس ما هو فيه من الإزدراء ، فشرع يعمل على التخلص من وصييه ، فتآمر هو وحاكم القلعة الذي كان يساكنه فيها بالقبض عليهما غير أن أمرهما كشف قبل تنفيذه ، وأوشك ذلك أن يكون خطراً على السلطان الفتى ، لولا أن قامت مظاهرة عظيمة لتأييده . ومع هذا فقد أجبر على نفى أتباعه الملتصقين به كثيراً ، وأصبحت حاله أسوأ مما كانت عليه .

وقد خضع لهذه المعاملة القاسية حولا آخر ، كان فيه أشبه بالعبد منه [١٣٠٩ م] بالحاكم . ولما لم يبق في قوس صبره منزع توجه تلقاء مكة متظاهراً بأداء فريضة الحج التى لا يمكن أن ينكرها أحد عليه ، أو يمنعه منها . وعندما بلغ الكرك أرسل إلى بيبرس وسلار رسالة أعلنهما فيها بعزمه على البقاء حيث ألقى عصا تسياره آمناً مطمئناً ، وأنه يحب أن يوافي في الكرك بكل الأمور الخطيرة في الدولة . أما ادارة شئون البلاد فقد تخلى لهما عنها . وأمر الأمراء والمماليك أن يكونوا في طاعة سلار بصفته نائباً للدولة . فلما علم الأمراء بذلك ، أظهروا في رد عليه ، دهشهم من هذه الفعلة الصبيانية في نظرهم ، وعقدوا العزم على تخييره بين العود إلى حكم البلاد ، أو التخلى عن سلطانه فيها جملة . عند ذلك أعاد الناصر شارة الملك وأعلن ثانية رغبته في قضاء بقية أيامه في الكرك ، ولكن باب الأمل في التوفيق بين

السلطان وأمرائه كان قد أغلق ، إذ بعد حوار طويل بين الأحزاب المختلفة عند وصول رسالة الناصر الأولى ، كان قد قطع بانتخاب بيبرس سلطاناً على البلاد .

بيبرس الثاني .

كان السلطان ركن الدين بيبرس في أول أمره مملوكا اشتراه السلطان قلاوون ، وما زال يرقيه سيده إلى درجات العز والشرف والمراتب السامية حتي تبوأ أخيراً عرش مصر ، فكان أول سلطان جركسي المحتد . وقد قبل الملك متردداً خشية قيام سورية في وجهه . والواقع أن جميع نواب سورية ، عدا دمشق ، كان لا يزال هواهم مع الناصر ، ولم يخضعوا للسلطان بيبرس إلاّ بعد أن أعلن الناصر رغبته في القاء عبء الملك عن كاهله . غير أن بيبرس ، رغم ذلك ، كان سيء الحظ ، منحوس الطالع ، إذ نقص ماء النيل ذلك العام ، فزاد كره الناس له ، وجاء ذلك ضغثاً على ابالة . يضاف إلى ذلك أن قد أخذت تفد عليه الأخبار بتحسين العلائق بين الناصر وبين نواب سورية ، فأرتاب في أمر الناصر وأراد أن يقلب له ظهر المجن ، فطلب إليه أن يرد ما أخذه من الكنوز والمماليك والجياد عندما غادر البلاد إلى الكرك . ولما تبودلت الرسائل الشديدة الجافية بينهما ، أعتقل الناصر رسول بيبرس وسجنه . ثم بلغت به الحال من الشدة أن هدد بالالتجاء إلى المغول ان لم ينصره نواب سورية ، إذ رأي الناصر بثاقب بصره أن خلاصه من يد بيبرس يتوقف علي معاضدة أمراء سورية له ، أولئكم الأمراء الذين كانوا من أنصار بيت قلاوون ، وكان معظمهم ينحاز إلى جانب الناصر . ولم يلبث أن دعا الناصر إلى ولايته قره سنقر حاكم حلب ، وأسنديمور صاحب حماة وغيرهما من حكام سورية . وبينما هو في طريقه إلى حلب إذ أرسل إليه قره سنقر رسالة ثانية يحثه فيها على الاسراع في السير ، فوقعت الرسالة في يد نائب دمشق ، فأجزل العطاء لحاملها ، على أن يبدلها بغيرها مصطنعة باسم قره سنقر ، وفيها يأمر الناصر بالعودة إلى الكرك . فلما رجع الناصر إلى الكرك

[ابريل]

ثانية . وجد رسالة من بيبرس تنم عن الغيظ وتهدده بالزحف عليه بقوة حربية إذا أبي تسليم نفر خاص من الهاربين ، فأرسل إليه الناصر رداً يظهر فيه الذلة والمسكنة والخضوع فخفف بيبرس من غرب حدته وكشف عنه سوء الظن بالناصر الذي كان وقتئذ يتأهب للعود إلى سورية في غفلة من بيبرس .

ولما رأي الناصر أن عدته للقيام بوجه عدوه تامة ، غادر الكرك مولياً وجهه شطر سورية . وعندما أحس بيبرس بالخطر المحدق به سير جيشاً في أثره ، فانضم معظمه إلى الناصر ، وبقي بيبرس في القاهرة خاملاً ، يطلب النجاة لنفسه بما ادعاه في المنشور الذي أعلنه . وكان يشتمل على جمل جزلة رنانة ادعى فيها ما له من الحقوق المكتسبة من الخليفة في البقاء في كرسى السلطنة .

وقد سخر الأهلون من المنشور الكاذب وصاحوا قائلين : «الخليفة ! ومن هو ؟ ان هو إلاّ رب الرياح وسيدها !» يضاف إلى ذلك أن سلار نائب السلطنة ، وكان بيبرس منذ عهد بعيد يسيء به الظنون ـ لزم عقر بيته ليتأهب للاحتفاء بلقاء الناصر لدى عودته إلى القاهرة .

وفي هذه الآونة كان ينضم إلى الناصر ، كل يوم ، وهو في طريقه من الكرك إلى سورية جموع من أتباعه واخوانه ، فدخل دمشق وسط أفراح ملكية تفوق الوصف حتى أن الناس كانوا يدفعون مبالغ لم يسمع بمثلها ليحصلوا على مقاعد فوق سقف المنازل ، ليشاهدوا منها ذلك الموكب الفخم ، ولما أحس «أقوش» نائب دمشق ، أن الناصر قد اقترب من عاصمته ، فر هارباً ، ولكن الناصر أرسل إليه رسالة بالعفو ، ووثق فيها الأيمان بصفحه الجميل عنه ، فرجع وقدم للسلطان الهدايا من الجياد والأبل والكنوز الثمينة . وقد أخذ الأمراء الآخرون يظهرون ولاءهم كذلك فانهالت على السلطان الهدايا من كل حدب وصوب من جميع أصقاع دولته أما بيبرس فأنه لما رأي أن كل من كان حوله قد نبذوه ، ولى هارباً إلى السويس ومنها أرسل إلى الناصر يضرع إليه ويطلب منه العفو ، فأجاب الناصر ملتمسه ،

وزاد بأن وعده بقطيعة في سورية ، لأن الناصر كان لا يزال يخشى أن يلقى معارضة في حاضرة ملكه . ولما علم بيبرس بعفو السلطان ووعده الجميل رجع إلى غزة ، غير أنه ـ كما سيأتي بعد ـ أودع السجن هناك . وهكذا ختم حكمه النحس الذي لم يجاوز العام إلا قليلاً .

الفصــل الثامن
عودة الناصر للملك للمرة الثالثة
(١٣١٠ ـ ١٣٤١)

[مارس ١٣١٠]

صار الناصر من ذلك الوقت صاحب السلطة المطلقة في البلاد ، لا ينازعه فيها منازع ، ولم يلبث أن ظهرت فيه أقبح الخصال التي كان يتصف بها قومه ، فظهر ما كان كامناً في خلقه من الحقد والقسوة وسوء الظن والجشع . ولما ذهب عنه الروع وأطمأن خاطره ، بما لقيه من ميل الأهلين إليه ، وحبهم له ، في حاضرة ملكه ، أخذ يعض بنان الندم على ما أظهره من اللين والتسامح مع بيبرس . وأمر أن يؤتى به مصفداً . ولما مثل بين يديه ، أنبه على ما كان يعامله به من الشح والتقتير في السنين الخالية ، إذ قال له : «أذكر حين طلبت اليك ذات مرة أوزة محمرة فأجبت وماذا يفعل بها ؟ أيريد أن يتغذى عشرين مرة في اليوم» . وعلى الرغم من اعتراف بيبرس بكل ما قال السلطان فانه استرحم ، ولكن صبت عليه السياط ، وحمل إلى حجرة الموت فوضع في رقبته الحبل ، ولما بلغت روحه التراقي أمر السلطان بفك خناقه ، وبعد أن أشبعه لوماً وتقريعاً أمر بخنقه على مشهد منه ، والقى جثته في حظيرة . وإستولى السلطان على كل أمتعته ووزع مماليكه بين الأمراء .

أما سلار ، فانه على الرغم من معاضدته للسلطان ، ومصادقته له ، فلم يكن سوء مصيره بأقل مصير بيبرس . حقاً أنه رحب بالناصر ، وإستقبله بكل مظاهر الفرح والسرور ونفائس الهدايا ، غير أن حتفه كان أمراً بُتَّ فيه

من قبل ، وأجل إلى وقت مناسب . وكان سلار وقتئذ قد عين نائباً على «الشوبك» إجابة لملتمسه ، وقد قضى الناصر صيف هذا العام في التخلص من حزب بيبرس الذي كان يخشاه ، فبالغ في قتل الكثيرين منه بكل غلظة وقسوة . ولما خلا له الجو ، وكان قد حل فصل الخريف ، أرسل رسولاً لاحضار سلار ، فشعر أتباعه بالخطر وحرضوه على الفرار إلى بلاد اليمن ، ولكنه بعد تردد ، لبى دعوة السلطان . وعلى أثر وصوله إلى القاهرة ، طرح في السجن وحُمي الزاد حتى مات بعد أسبوعين . وكان حاكماً رفيع القدر ، شجاعاً ، كريماً ، عادلاً . وكانت ثروته التي جمعها وهو نائب على مصر ، من كنوز الذهب ، ومن الجواهر والعبيد ، والخيل المسومة ـ في حين أنه لم يجر للناصر ألاّ ما يقوم بأوده ـ سبباً واهياً لاغتياله بهذه الحالة المحزنة[1] .

وبينما كنت ترى الناصر يسيء الظنون كثيراً بمن حوله من الأمراء أصحاب النفوذ ، وعلى يقظة دائماً لتخضيد شوكتهم وإخماد أنفاسهم ، تراه قد أستعمل الحكمة النادرة والصبر الجميل في معاملة حزب قوي أتمر على خلعه من العرش ، ليجلس ابن أخ له عليه . فلما مثل المؤتمرون بين يديه ، عفا عن بعضهم ، ونفى آخرين ، ولم يقتل منهم واحداً . أما «قره سنقر» الذي كانت له عنده أياد بيضاء ، فعامله على عكس ذلك ـ عامله بما لا يستحق من الحقد والكراهية . وقد أراد أن يأخذه على غرة بترقيته إلى نيابة [١٣١٢ م]

---

(١) كان سلار عبداً مملوكاً يوعرتي الجنس ، اشتراه السلطان قلاوون . ولم أر من المناسب التكلم باسهاب على موته الذي ربما كان مغالى فيه ، فانه قيل أن الناصر أرسل إليه صينية فكشف غطاءها متلهفاً على ما يسد به خلة جوعه . فلم يجد فيها غير ثلاثة أطباق أحدها ممتلىء ذهباً والآخر فضة ، والثالث مفعم باللؤلؤ والجواهر . وقد أكل راحتيه وبقيت أصابعه حتى مات عاضاً عليها . . . ويقال أنه ترك نحو ثمانمائة ألف دينار . فاذا سلمنا بصحة هذه المبالغات . فان في ذلك دافعاً كبيراً إلى شره الناصر ، وسبباً قوياً لاغتياله . يضاف إلى ذلك معاملة الشح التي كان يعامل بها سلار سيده الناصر في حكمه الثاني . وفضلاً عن ذلك ، فان سلار كان مع الذين تآمروا على قتل أخي الناصر .

سورية ، ولكن قره سنقر عرف الفخ الذي نصب له ، ففر هارباً هو وجماعة من الأمراء المتمردين إلى بلاط أويلجيتو (أخي غازان) ، وحرضوه على القيام بغارة على سورية . ولما علم السلطان بذلك خرج لنجدة البلاد فوجد [١٣١٣ م] العدو قد رجع أدراجه ، فذهب إلى الكرك ، ومن ثم ذهب لحج البيت الحرام . وفي غضون السنة أو السنتين التاليتين ، أرسل السلطان الحملات على بلاد الأرمن التسعة ، وحصرت عساكره «ملطية» وعلى الرغم من تسليم المدينة ، فان الجنود أطلقوا فيها يد التخريب والنهب وسبوا كل من فيها من المسيحيين[١] .

وعلى الرغم من عدم اشتباك جنود أويلجيتو مع مصر في حرب فعلية ، فأنه لما اعتنق مذهب الشيعة وتغلغل فيه ، عمل على نشره في الجهات الغربية . وكان كأسلافه يطمع في الإستيلاء على سورية ومصر أيضاً ، فأرسل بعوثاً إلى البابا وحكومات أوربا ، كما فعل «غازان» من قبل ، ليساعدوه في الإستيلاء على سورية ثانية ومعاقبة مصر الزائغة . ولكن بعوثه لم تلق في أوربا قبولاً ، ولم تسفر أعماله عن نتيجة ما[٢] . ثم رجع ابنه «أبو

(١) كان أبو الفداء حاضراً هذا الحصار . وقد حاول عبثاً منع الجنود عن ارتكاب الفظائع والعمل بمقتضى الهدنة . وكان أبو الفداء وقتئذ نائب حماة مقر ملك أجداده . وقد لقى أسنديمور ، رغم معاضدته حديثاً للناصر ، مالقى قره سنقر من الجزاء . وقد ذكر أبو الفداء أنه اعتقل في الكرك ، ولم يسمع عنه خبر بعد ، فلا بد من أنه لاقى فيها منيته .

(٢) وقد ذكر ريموزا في . Mem. de l'acad. des incript. vii, pp. 389 et seg. تفاصيل شيقة عن تلك المفاوضات . وفي دار سجلات باريس رسالة إلى فيلب الجميل يرجع تاريخها إلى مايو سنة ١٣٠٥ . أما البعث الذي ذهب إلى انجلترة فقد أجابه ادورد الثاني في نوفبر سنة ١٣٠٧ ، وقد أظهر ميل الخان في الإنضمام إلى المسيحيين لكسر المماليك . وكذلك جاءت رسالة إلى البابا كليمنت الخامس ترمي إلى الغرض نفسه . وقد أدت رسائل هذا الخان ، التى كان الغرض منها التحريض على مصر ، إلى الاعتقاد بأنه هو يميل إلى اعتناق الدين المسيحي ، وكان ذلك منافياً للحقيقة . وبعد موت أمه المسيحية أوغل في الإسلام كأخيه إلا أنه انتمى إلى الشيعة .

سعيد» إلى مذهب السنيين . ولما رأي أنه مغلول اليدين في حرب مع قبائل الأزبك ، وكان يخاف على تخوم بلاده المجاورة للبلاد السورية ، رأي أنه من الحكمة وأصالة الرأي أن يخطب ود مصر ، فصادف ذلك هوى في نفس الناصر ، إذ كان لا يريد أن يرى البلاط المغولى مأوى للخارجين عليه من رعاياه ، فعقد صلحاً بينه وبين أبي سعيد . ولقد عظم ما بين الدولتين من المصادقة والمصافاة حتى اعترف كل منهما براية الآخر في الحج . ومما يدل كذلك على تبادل المحبة وحسن العلائق بين الدولتين ، ما أرتكبه سلطان مصر من قتل «طمرطاش» أحد عصاة المغول وقد استجاره فأجاره وأسكنه القاهرة مدة . ولما أرسلت رأسه إلى أبي سعيد ، وعده بإرسال قره سنقر ، وكان الناصر قد قتله من زمن طويل . ولما جاء نعى قره سنقر بعد مدة إلى السلطان رأي أن غليله لم يشف ، وصاح قائلاً «ياليت ذلك كان بحد سيفى لابسيف غيري[١]» . وقد ظلّت مصر إلى ذلك الوقت بمأمن من المغول وهجماتهم إلى عهد تيمور لنك . وقد كانت الفتن والاضطرابات التي أعقبت موت أبي سعيد سبباً في اتجاه مطامع الناصر نحو بلاد الفرس ، فبدأ ذلك بمناصرة «حسن الأكبر» على «حسن الأصغر» ولدي «طمرطاش» الذي اغتال حياته . وقد تملكه الفزع والرعب حينما سمع بظهوره ثانية في عالم الوجود . ثم أرسل جيشاً لمعاضدة حسن الأكبر ، على شريطة أن يعترف له بالسيادة في بغداد ، وعلى ذلك نقش اسمه على السكة الفارسية ودعى له في الخطبة . بيد أن المتحاربين تصالحاً فوضعت الحرب أوزارها قبيل وفاة الناصر ، وبذلك قضى بالخيبة على آماله وأطماعه العظيمة . على أن تغيير [١٣٤١ م] العلاقات بينه وبين المغول لم تؤثر قط فيما كان من المصادقة بينه وبين أمير

(١) كان قره سنقر إذ ذاك حاكم «مراغة» وقد مات بعد ذلك بستة أعوام . وليس مؤكداً أنه مات حتف أنفه أو بيد أبي سعيد إنجازاً لوعده . ويقال أن الناصر أرشى نحو مائة من الفدائيين لقتل قره سنقر لانه كما تعلم «كانت تلك الفئة سهام الناصر» Mem. Areh. Fr. Tome VI.Page 429.

الأزبك[1] عدوهما . وكان السلطان قد تزوج من ابنته منذ بضع سنين (عام ١٣٢٠) بعد حوار في أمر صداقها .

وكانت بلاد أرمينية مسرحاً لاغارة الجيوش المصرية ، في خلال حكم الناصر . وقد أوذيت كذلك من جانب المغول ، منذ دخولهم في الإسلام ، بعد أن كانوا حماتها . ولما تولى عرش البلاد «ليو الخامس» القاصر عام ١٣٢٠ حل بها الوهن والضعف لما كان فيها من الشقاق ، فغزاها جيش سوري ، وخرب عاصمتها وأحرق قصر ملكها ، ونهب قراها . وبعد ذلك [١٣٢٢ م] بعام أو ما يزيد على العام ، سير السلطان جيشاً إلى بلاد الأرمن ، متظاهراً بجمع الجزية ، والحقيقة أنه أراد انتهاز فرصة قيام الحرب بين «أبي سعيد» وأمراء الأزبك ، ليوسع حدود بلاده نحو الشرق . فلما رأت حكومة «سيس» وقتئذ أن حلفاءها السابقين قد انفضوا من حولها ، وأنها أصبحت عرضة للتخريب ، قبلت راضية عقد الصلح مع الأعداء بما عرضوه من شروط . وبعد بضع سنين أخذ «ليو» ملك الأرمن ينحرف عن ولائه لمصر ، وذلك لما كان يأمله من مساعدة الحملة الصليبية التي شرع فيلب السادس[2] في انفاذها . وقد حدثت بعض إغارات على الحدود السورية من جانب الأرمن فسير الناصر إليهم جيشاً لتأديبهم فأوغل هذا الجيش في البلاد ودمر بلدة «أياس» على أهلها . ولكن بمجرد أن أذعن «ليو» لمطالبه وضعت الحرب أوزارها ورجع الجيش .

وكان الناصر مهتماً كثيراً بشئون مكة والمدينة ، وكان ما بين شرفائها من المشاحنات والخلاف أكبر معين له على بسط نفوذه وسيادته على تلك الأصقاع . وقد تمكن ملك التتار أويلجيتو ، في وقت من الأوقات ، من ضم الأشراف إلى مذهب الشيعة فاستبدل اسمه في الخطبة باسم السلطان . ولكن ذلك لم يدم طويلاً فان العرب تألبت عليه وهاجمت جنوده فصار

---

(١) هم التتار الشماليون ومقر ملكهم حران .

(٢) تلاشى هذا المشروع عند موت البابا جون الثاني عشر .

الناصر ثانية صاحب السلطان على تلك الأماكن المقدسة ، وكان يمدها بالغلال عن سخاء عندما تصيبها السنون .

أما في الجنوب فكانت بعوثه الحربية المتتالية تصل إلى سواكن ، لتأديب العرب الذين اعتادوا تخريب الصعيد ونهبه ، وللسعي في اخضاع النوبة التي طالما حاول الناصر أن يجعلها تحت حكم ملك مصري . وبقيت الحال في بلاد النوبة مضطربة مدة من الزمان ، ثم رجعت فيما بعد إلى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة .

وفي عام ١٣١٦ م. ثار جم غفير من الدروز ونهبوا «جبلة» ، وبعد أن أفنوا خلقاً كثيراً من أهلها عادوا وهم يصيحون قائلين : «لا إله إلا علي !» فشتت نائب طرابلس شملهم .

ثم أخذ الناصر يسعى بكل ما لديه من قوة ، في القضاء على تلك العقيدة الفاسدة حتى هدد بالقتل كل من حاول اذاعتها[1] .

[١٣٠٨ م] [١٣٠٨ ـ ١٣٢٠ م] [١٣٢٥ م]

وقد امتد سلطانه غرباً في شمالي أفريقية ، كما امتد في غيرها من الجهات الأخري . وقد بقي حاكم طرابلس مدة طويلة يعين من قبله ، وصارت إليه تونس مدة بمؤآزرة مصر له ، ثم منازعاتهم ، رجاء أن تكون له ضلع في إدارة شئونها الداخلية وفي تجارة الشرق ، ولكن جيشه قوبل مقابلة عدائية ، واضطر إلى التقهقر في الصحراء ، فتكبد المشاق ، وحلت به الخسائر .

هذا موجز لسياسة الناصر الخارجية ، وما رأيناه فيه من النجاح بوجه عام ، يدل على أن الناصر لم يكن بالقائد الحربي ، فكأن نبوغه كان في ميدان السياسة لا في ميدان القتال . ولقد كان طموحاً إلى العلا ، غير أنه لم

---

(١) كانت هذه الفئة تعتقد أن عليا هو خالق السموات والأرض وأن كل أعقابه مقدسون . وكانوا كذلك يعتقدون في تقمص الأرواح . وكانوا يؤولون آيات القرآن في تفاسيرهم بما يتفق وأهواءهم ، وأباحوا شرب الخمر .

يسلك في أعماله سبيل الأمانة والعدل والاستقامة .

وكانت تدور بينه وبين الممالك المجاورة له الرسائل والمكاتبات .
فقد أرسل ابن طغلون أمبراطور الهند وفدين ، يطلب إليه المساعدة على [١٣٣٠ م]
المغول . وكان بين مصر وحكومة بوزنطية علائق سياسية استلزمت أن تكون
الروابط بينهما وطيدة ، إذ كانتا تخافان استمرار زحف قبائل التركمان غرباً . [١٣٢٧ م]
وقد طلب البابا إلى الناصر أن يعامل رعاياه النصارى برفق مقابل معاملة
المسلمين النازلين في الغرب بمثل تلك المعاملة . وجاءت كذلك وفود من
فرنسا وغيرها ترمي إلى هذا الغرض . وقد تغالى بعضهم أذ طلب إلى [١٣٣٠ م]
السلطان إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين والنزول لهم عن ثغر ينزل فيه
الحجاج ، فرفض الناصر هذا الطلب بغضب شديد .

وكان الناصر يعمل جهده في نصفة المسيحيين ، واقامة العدل فيهم ،
على أن حالتهم وقتئذ ، لم تكن تدعو إلى حسدهم أو الحقد عليهم . وقد
سعى من زمن بعيد في السماح لهم بلبس عمامة بيضاء ان أرادوا ذلك ولكن
ذهبت مساعيه أدراج الرياح .

وفي عام ١٣١٤ وقع حادث مشئوم أثار عواطف الذين كانوا متحفزين
للوثوب على المسيحيين وذلك أن المسيحيين استعاروا بسطاً ومصابيح من
أحد المساجد للاحتفال بعيدهم ، فقام أحد المتعصبين وعصبة له ، وهاجم
المسيحيين وهم يتعبدون وخرب كنيستهم . فلما علم السلطان بذلك حنق
على هذا المتعصب ، وهدده بقطع لسانه . ثم هدأت أخيراً سورة غضبه
وصرف الجاني بعد أن حذره العودة إلى مثل ذلك العمل ، على أن ما كان
مخبوءا لهؤلاء النصارى البائسين أصبح منهم قاب قوسين أو أدني ، اذ لم [١٣٢١ م]
يمض بضع سنين حتى عم التذمر من المبالغة في الرفق الذي كان يعامل به
المسيحيون ، ومع ما بذل من المجهودات في تهدئة ذلك التذمر ، خربت
للنصارى نحو الستين كنيسة ، وشب على أثر ذلك حريق في المدينة ، ثم
اندلع اللهب في كثير من أنحائها ، فأسخط ذلك الأهلين على المسيحيين

لأنهم ظنوا أن النصارى هم مسعروا تلك النيران ، وأخذوهم بالعذاب حتي حملوا بعضهم على الاعتراف بأنهم هم الفاعلون . أما الناصر ووزراؤه فقد وقفوا موقفاً حميداً يذكر لهم اذ واجهوا الخطر منتصرين للحق ، ولكنهم حين أخفقوا في صد هذا التيار الجارف لم يروا بداً من تنفيذ القوانين بكل صرامة . وقد ساءت حال المسيحيين اذ ذاك ، حتى أنه لم يجسر واحد منهم على الخروج من بيته إلا اذا ارتدي رداء اليهود الأصفر . وقد هاجم جماعة من المماليك وزيراً كان انتحل الأسلام حديثاً ، ظانين أن ميوله لم تزل مسيحية وفي هذا ظهر الناصر أيضاً بمظهر الثبات وأرجع المشاغبين إلى القانون . ومما يدل على وقوف الناصر موقف المنصف أنه بعد هذا الحادث [١٣٢٣ م] بزمن يسير ، انقض في دمشق أحد الصوفيين المتعصبين على ناموس (كاتم سر) مسيحي وقطعه إرباً[١] عندما رأي أحد المسلمين يقبل يده ، فأمر السلطان بشنقه وتعليقه على باب المدينة غير مبال بصياح الناس وحماستهم لتخليصه . وكذلك قضى السلطان ، بما أوتى من الثبات والعزيمة[٢] ، على [١٣٢٧ م] زعماء ثورة خطيرة في الاسكندرية . وقد حدث في دمشق أيضاً أن كاتباً مسيحياً ، اعترف ، وهو يعذب بالكي ، أن له يداً في حريق . فقتل هو ومن معه ، وفرضت ضريبة فادحة على جماعة المسيحيين ، فعاقب السلطان [١٣٤٠ م] النائب ، على ذلك عقاباً أليماً .

وعلى الرغم من كل هذا ، قتل في عهد الناصر ثلاثة وزراء مسيحيون ، إما لأخذهم البلاد بالصرامة والقسوة ، وإما على ما يقال ، لجمعهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . والحق أن قصة أحدهم

---

(١) وهذا برهان عرضى على أن القوانين التى كانت تستعمل ضد المسيحيين كانت دائماً تترك في زوايا الإهمال .

(٢) وسبب ذلك غريب في بابه : سببه أن رسولاً من القسطنطينية كان يسمع لقصاص مع جم غفير من الناس . وعند ذكر النبي صلى كل الحاضرين عليه إلا هذا الرسول فانه بقى صامتاً ، فقام الجمع عند ذلك على كل المسيحيين الموجودين في المكان .

ليست إلاّ سلسلة فظائع ، لو صح بعض ما قيل فيها ، لكانت أكبر برهان على ما كان يرتكب من الفظائع والوحشية في تلك الأيام ـ ذلك هو الوزير «نَشُو» ـ وهو نصراني أسلم ورقى إلى أعلى درجة في أعمال الحكومة ـ [١٣٤٠ م] ارتكب من فظائع التعذيب بالسوط وغيره ، ما أثار حنق الأهلين وسخطهم[1] . وقد لبث الناصر زمناً طويلاً غير مصدق لما يقترفه الوزير من المظالم ، وكان كل من الفريقين ـ الوزير ومن ينزل بهم عذابه ـ يستعمل الخيانة ويغلظ الأيمان ، صادقة كانت أو كاذبة ، تبريراً لصدق دعواه . وقد قبض أخيراً على هذا الوزير ، فوجد في بيته صليب من الذهب وخمر ولحم خنزير (علامات خفية على مسيحيته) ، مما أثار حنق الأهلين عليه حتي جعلهم يصيحون طول الليل ، رافعين الأعلام والمشاعيل حول القلعة . فاضطر السلطان أخيراً إلى الحكم على «نشو» بالقتل ، بل وبقتل أمه وأخواته معه . ثم دفن في مقابر اليهود ، وأقيم الحراس على قبره زمناً طويلاً مخافة أن تؤخذ الجثة وتحرق .

ولم تكن معاملة الناصر الحسنة للمسيحيين الذين كانوا حوله ، لمهارتهم الفنية وولائهم له فحسب ، بل لثقته بأنه لن يكون منهم من يناهضه في الملك . لذلك ترى الناصر على أحسن ما يكون مع أمرائه ، ومن التفّ حوله ما دام لا يجد بينهم من يثير شكوكه ، أو يحول بينه وبين أطماعه الأشعبية ، فاذا ناهضه أحد ، فلا ترى فيه إلا غادراً سفاكاً أثيماً . وقد روي عنه نحو مائة وخمسين حادثة ارتكبها بالسم أو بالجوع أو بالقتل ، ويكفي دليلاً هنا ، ما صنعه مع «تنكيز» وهو مملوك اشتراه أسلافه ، ونصح في خدمته للناصر نحو ثمانية وعشرين عاماً نائباً عنه في دمشق ، فقتل في آخر سنة من حكم سيده . وقصته من أغرب القصص وأسوئها وقعاً ، ولا يكاد

(١) كان يلف يدى فريسته في القماش المغموس في الراتينج المغلى . وقد سلخ جلد أم سلفه باجلاسها في الزيت المغلي وعذبها حتى أجهضت . وتفاصيل تلك المسألة المحزنة تشغل ست صفحات من كتاب ويل (فليرجع إليه من شاء) .

العقل يقبلها . فانه فضلاً على ما أبداه من البسالة في ميدان القتال مع التتار ، قد غامر بحياته في المفاوضات التي مكنت الناصر - وقت احداق الخطر به وهو في الكرك - من إستمالة أمراء الشام إلى جانبه . وقد كوفىء على هذا الصنيع بنيابة سورية وقد كاد يكون ذا الأمر المطلق في شئون هذه الأصقاع ، وكان يستدعى كثيراً إلى القاهرة ليستشار في عظيمات الأمور . وتزوج الناصر من أبنته ، ولما وضعت حملها دعا السلطان تنكيز وأسرته للحضور إلى القاهرة ، فلبى ولما دنا من العاصمة ، خرج السلطان في [١٣٣٩ م] محفل للقائه ، ودخل به إلى القصر في موكب عظيم ، وأفاض عليه من نعمانه ، وأولم له الولائم التي تفوق الوصف . وقد أمر السلطان بناته أن يلقبنه بعمهن ، وأن يقبلن يده ، بل عقد على اثنتين منهن لولدي تنكيز ، وبعد أن مكث مدة ناعماً في بحبوحة عز السلطان متقلباً في نعمائه بما لم يسمع به من قبل ، غادر العاصمة . وقد قال للسلطان عند وداعه له «لم يبق لي غير أمنية واحدة ، وهي أن أموت قبلك» فصاح الناصر قائلاً «معاذ الله فمن بعدك يعول نسائي ويحفظ ولدي على العرش في شرف» . ولم يكد ينصرم عام واحد على تلك الصداقة الخالصة حتى انقلبت إلى حقد وبغضاء . وما ذكر لذلك الانقلاب من الأسباب لا يكاد ينطبق على الواقع مطلقاً ، فقد قيل ان الذي أثار غضب السلطان على تنكيز ما أتاه هذا من القسوة مع المسيحيين المتهمين باشعال النيران ، واستخدامه الأموال التي جمعت منهم في اصلاح الجامع بدمشق ، بدلاً من إرسالها إلى السلطان . وكذلك قيل أن الناصر غضب لما علم أن «تنكيز» يرغب في تاجيل اقامة زفاف ولديه إلى بناته لفرصة أيسر مما هو فيها . وأخيراً قضى أمر السلطان أن يحضر تنكيز بولديه إلى القاهرة لاقامة العرس فيها ، ولكن كانت دسائس الغدر والخيانة ، في أثناء تلك المدة ، قد وجدت مرتعاً خصيباً في قلب السلطان ، وشعر تنكيز أيضاً بدنو أجله . ولما ساء ظن السلطان بنائبه ، وخاف أن يشق عليه عصا الطاعة ، سير إليه قوة لتقبض عليه في دمشق . ولقد كاد يطير فرحاً حينما سمع أن فريسة آتية إليه مكبلة بالسلاسل والأغلال

حتى أمر بنشر ذلك الخبر السار . ولما حضر تنكيز إلى القاهرة على تلك الحال بدأ وزراء الدولة يحققون معه . فأجاب عن نفسه بما يبيض صحيفته ، ودحض كل ما وجه اليه من التهم حتى طلب المحققون إلى السلطان أن يسمح له بقضاء بقية حياته في هدو وسكينة ، ولكن طلبهم لم يجد من السلطان أذناً مصغية ، فأرسل ذلك التعس الذي هو موضع حقده إلى الاسكندرية حيث أذيق ألواناً من العذاب ، كي يعترف بأسماء من يظن أنهم معه من المجرمين ويظهر ما يخيفه من الكنوز والنفائس ، ثم قتل مع كثيرين [١٣٤٠ م] من الأمراء الذين كانوا موضع محبته وثقته . وقد كان ما تركه تنكيز ، والذين قتلوا معه من الأموال عظيماً ، مما جعل الناصر يقبل مع الارتياح ما تجاسر به بعضهم من توجيه اللوم إليه على معاملة تنكيز القاسية[1] . وكذلك كان يعامل كل أمير ظهر بمظهر الثورة أو القوة في طول البلاد وعرضها ـ كان يفسح لمثل هؤلاء المجال في جمع الأموال ثم ينقض عليهم في الوقت المناسب لأية تهمة أو وشاية فيودي بهم ثم يستحوذ على أموالهم . وكان أحياناً يخفي مقاصده عدة سنين حتى تحين الفرصة ثم يكون الويل لمن يقع فريسة بين مخالبه . ولكن في الوقت الذي تراه فيه متلوناً متقلباً قاسى القلب مع الغني ، تجده مع سائر الناس ملكاً عاقلاً عادلاً قادراً .

وقد أزاح عن كاهل الناس الضرائب المرهقة وقضى على اقطاعات الأمراء التي كانت تنقص من دخل الحكومة ، ومسح الأراضي المصرية ، وأعاد النظر في مصروفات دواوين الحكومة ، فكانت كل هذا من الاصلاحات المفيدة في تلك الأيام . ولما نكبت البلاد بقحط شديد جلب إليها الغلال من بلاد سورية وحتم على الأغنياء أن يبيعوا ما في مخازنهم من الغلال بأسعار محدودة ، وهذه طريقة سهلت لعامة الناس الحصول على أقواتهم بدون عناء كبير ، وإن خالفت في ذاتها المبادىء الأقتصادية .

---

(١) ذكر ويلى القصة مع تطويل ممل بلغ نحو إحدى عشر صحيفة ولكنها تفسر أخلاق الناصر وتبين حالة عصره .

أما أعمال الناصر العامة التي كثرت في طول البلاد وعرضها فانها رغم ما أنفق عليها من المبالغ الباهظة ، وما سخر فيها من الأهلين مما أودى بحياة الكثيرين منهم زادت في رخاء البلاد وفلاحها ونماء ثروتها وفي حسن رونق حاضرة الملك وبهائها وراحة السكان ورغدهم ـ ومما يدل على ذلك تلك الترعة الشهيرة الممتدة من «فوه» إلى الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) فانها فضلاً على أنها فتحت طريقاً تجارياً مائياً بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر فقد صيرت الأراضي القاحلة التي على ضفتيها جنة خضراء آهلة بالسكان وازدان شاطئها بالقصور الباذخة ، والحدائق النضرة . وكذلك أنشأ الطرق في جميع أنحاء البلاد ولا سيما السد الذي أقامه على الضفة اليمنى للنيل ، فسهل ذلك طرق المواصلات وحمى البلاد من طغيان ماء الفيضان ، وشيد القصور الشاهقة خارج القلعة وداخلها لأزواجه وحظاياه وأولاده نخص بالذكر من ذلك القصر الأبلق الشائع الذكر (أو القلعة البيضاء) الذي شيده على نمط القصر المسمى بهذا الأسم في دمشق ، وقد جلب إليه المهندسين والبنائين من سورية . وبعد الفراغ من بنائه أقام احتفالاً فخماً وأولم الولائم الملكية . ولا يقل ما شيده هذا السلطان العظيم من المساجد عن ثلاثين عدا ما أقامه من الصهاريج العامة والحمامات والمدارس . ولا يزال اسمه إلى وقتنا هذا منقوشاً على بعض أجزاء الجامع الكبير[1] وغيره من مباني المدينة . وكذلك لا تزال آثاره الجميلة باقية من الحجر والرخام والنحاس عليها نقوش دقيقة وكتابة جميلة وغير ذلك من مقاعد وثريات بديعة وتحف وطرائف تشهد بتقدم الذوق الفنى في الصناعة التي مهر فيها المصريون إذ ذاك وبخاصة ما عرفوه ممن حولهم من الأمم فأكسبت الناصر محمد بن قلاوون صيتاً كان به خير من عرف من الحكام في حاضرة البلاد . على أن عنايته لم تكن مقصورة على القاهرة بل تعدتها إلى أمهات المدن السورية ومكة ، وعمل ما يلزم لتزيين المباني العامة وتقدمها . ومما هو

---

(١) ولا تزال تزين هذا الجامع إلى الآن بعض المواد التى أخذت من كنيسة عكاء .

جدير بالذكر للدلالة على ما كان يبذل من المال عن سعة وسخاء على المباني ، سواء أكان المال من خزانة الحكومة أم مال الأفراد ، أن أكبر وزيرين للسلطان (وسنسمع عنهما كثيراً فيما يلى) ، كانا يتنافسان في ضخامة وفخامة مبانيهما التي لا تزال بقياها حافظة لاسميهما إلى يومنا هذا[1] . ولا بد أن يكون هذا البذل والاسراف قد زاد في الأعباء التي كان يئن منها الأهلون فقراً وعدماً ، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل تعداه إلى اثقال كاهل الناس بما كان ينفق على وليجة الملك من الأموال الكثيرة التي قد يحسبها الانسان حديث خرافة لولا ما رواه المؤرخون في ذلك العصر . فقد روي أن السلطان كانت تمد له في طريقه لاداء فريضة الحج مائدة وسط حديقة مصنوعة ، في كل صحراء العرب ، وعليها الفاكهة والزهور . وقد أنفقت احدى زوجاته في سفرها لقضاء مناسك الحج نحو مائة ألف دينار . وقد أنفق في زواج كل من بناته نحو ثمانمائة ألف دينار . وكان زواج ابنه في احتفال يدل على أبهة الملك وعظمة السلطان فأشعل في القصر ثلاثة آلاف مصباح . وقد مرَّ الأشراف ومعهم مماليكهم يحملون المصابيح بايمانهم وقد استغرق ذلك هزيعاً من الليل ، ثم اجتمع نساء الأمراء في القاعة الكبيرة ومرت كل منهن أمام العروس حانية الرأس ومقدمة بيدها هدية العرس . ثم

---

(١) جاء فيما دونته البعثة الأثرية الفرنسية ، كثير من الأشياء الشيقة عن هذه الأثار القديمة وعن المباني التى خلفها الناصر في القلعة . ويمكن الحصول على صور جميلة جداً لهذه المباني والمنحوتات والنقوش من Tome Vl. 4Th. Fascicule مثل صور الجامع والديوان وباب القلعة وغيره مما عليه إسم الناصر . وفي صحيفة ٨٦ Tome XIX توجد ثلاثة نقوش على حيطان القلعة من جهة باب صلاح الدين كلها في مدح الناصر ومفاخرة . وجاء في Tome lll ص ٦٠ و ص ١٠١ ملاحظات شيقة ، منها واحدة عن الباب الأخضر «باب الزدمرد» وهو قصر ابنة السلطان التى تزوجها قوصون . ومما هو جدير بالذكر أنه لا تزال بقايا من قصر بيسان الذي اشتراه هذا الأمير ومن قصر الجبل وقصر بشتاك وعليه إسم مناظره . وهذان هما الوزيران اللذان ذكرا سابقاً (Troisieme Eascicule PP. 60, 100 et seg.) انظر كذلك الصور الجميلة التى في (دليل دار الأثار العربية) تأليف ماكس هرنز ، بالقاهرة .

وقفن صفوفاً (وذلك في رأي المؤلف مخالف للمألوف في الشرق) وأخذن يرقصن وينقرن بالدف ويغنين أمامه .

وكان الناصر مغرماً بالخيل وكل أنواع الحيوان فصرف في أقتنائها هي وصقور الصيد مقادير باهظة . والحق أنه كان يبذل عن سعة في كل ما كان يروقه[1] أو تميل إليه نفسه .

وكان الناصر في وسط تلك الأبهة والعظمة لا يميل إلى الزخرف في لباسه . وكان قصير القامة ، على عينه نقطة ، أعرج لا يمشى إلا متوكئاً على عصا أو خادم . وقد ترك كل ما يتحلى به الملوك من الملبس أو المتاع ، في حين أنه كان يبذل من هذه الأشياء الكثير للأخصاء من مماليكه ، حتى أصبح مقام المملوك مما يرغب فيه ويسعى إليه إلى حد لم يسمع به قبل .

ولقد كان ما يعطيه السلطان لوكلائه من الأموال الكثيرة ، وما كان يصل إلى بلاد التركستان من الحكايات الممتعة عن أحوال المماليك في مصر ، باعثاً كبيراً لكثير منهم على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا في حاشية سلطان مصر . على أن أهالي تلك الجهات نفسها كانوا يفدون زمراً إلى أرض الآمال .

وكانت النفقات الباهظة لازمة جداً لبلاط كهذا . وقد رأينا أن جمع هذه الأموال لم يكن ليراعى فيه جانب الحق[2] ، بل كانت تزهق النفوس

---

(١) اشترى مرة حصاناً بمبلغ ثلاثين ألف دينار وكان الثمن المعتاد إذ ذاك للحصان الواحد نحو عشرة آلاف دينار . وكذلك كانت أثمان الحيوانات الأخرى .

وقد ذكر المقريزى أنه استحضر في زواج ابنه (١٨٠٠٠) رأساً من السكر وذبح عشرين ألف رأس من الماشية ـ وتلك أمثلة من الإسراف المتناهى الذي كان يعزى إليه .

(٢) وقد ذكر ابن أياس في تاريخه الذي يذكر فيه عبارات محزنة عن أخلاق سيدات ذلك العصر ، أن السلطان فرض ضريبة فادحة على النساء من الطبقة العليا ، وعلى بناتهن اللاتي ينغمسن في التبرج . وقد عين لذلك ضابطة (إمرأة) تشرف على تدبير هذا . =

بدون مبالاة في سبيل جمعها . ومع كل هذا ترى السلطان تقوده الحكمة والعدل طوال حكمه إذ لم تتغلب عليه أسباب الجشع والأنتقام .

وقد تلقى السلطان علوم الفقه والقانون في دمشق ونال شهادة فيها ، ولذلك كان يشارك العلماء في كل أمر يفيضون فيه . وكان قد أثار حنق قاضي دمشق تعيين قبطي كاتباً خاصاً هنالك ، فغضب الناصر لذلك في بادىء الأمر ، ولكنه عاد فمنح هذا المنصب ابن القاضي . وكان الناصر يمقت قاضي المذهب الحنفي لعداوته للمسيحيين . ولاعتراضه قرارات السلطان[1] عزله عن عمله مدة ، وكان يحابي قاضي الشافعية ، ولكنه اضطر إلى طرده هو وأسرته إلى دمشق لسوء سيرة ولده المخزية . وقد قسا السلطان في معاملة الخليفة العباسي اذ اعتقله هو وأفراد أسرته في أحد أبراج القلعة لما كان يجاهر به من التشيع لبيبرس الجاشنكير ، وفي عام ١٣٣٧ م اتهمه بعدم الولاء ، ونفاه إلى صعيد مصر . ويروى أن الناس حزنوا لذلك حزناً شديداً . على أن بعد الخليفة عن حاضرة الملك لم يكد ليحدث في الواقع فراغاً محسوساً .

وكان السلطان يحب العلم والعلماء . فمن ذلك ما أظهره من الرفق ولين الجانب للمؤرخ العظيم إسماعيل بن أبي الفداء وتقليده ولاية حماة ثانية ، وكان قديماً قد منحها الأيوبيون لأسرته ، فولاه الناصر حكومتها ولقبه بلقب سلطان . وألبسه شارات الملك وحليه ، وأنعم عليه بأعلى القاب الشرف وأسماها ، وكان يخاطبه بلفظ «أخ» وهذا مثال نادر في بابه يدل على وثوق السلطان منه ، واسدائه المعروف إلى حاكم قوي عامله بهذا إلى النهاية .

- وهذه العبارة واحدة من الملاحظات القليلة التى استشهد بها المؤرخ على حالة النساء الإجتماعية .

(١) وذلك أن السلطان سمح لاحد أخصائه بتملك أرض موقوفة نظير تسليم جزء مساو لها في أرض أخرى ، فأعلن القاضي أن ذلك البدل لا يقره الشرع ، ورفض أن يحول عن قراره هذا عندما هدد ، فأساء ذلك السلطان كثيراً .

ولما كان الناصر يغار على ملكه حتى من أبنائه ، لم يعين ولياً لعهده حتى كاد يفارق الحياة . ومما يؤسف له أن أحمد أكبر أبنائه كان شر مثال يحتذى في أقبح الرذائل التي كان يرتكبها المماليك . وقد نفاه والده إلى الكرك بعد أن خابت مساعيه في ابعاده عن أحد فتيان المماليك . وكذلك أولع «أنوق» أحد أولاد السلطان بقينة ولعاً شديداً .

وفي عام ١٣٤١ مرض الناصر وأمتدت به العلة وأشتدت به الحال حتى أنه كان كثيراً ما يقع مغشياً عليه ، وكان يجتهد في اخفاء ما به ولكن ذلك لم يجده فائدة إذ حدثت اضطرابات شديدة بسبب ما كان يذاع عن السلطان من الأخبار المزعجة . وكان وزيراه العظيمان «بشتاك الكريمى» و «قوصون المحمدي» ، وهما صهراه ، متباغضين يحنق كل منهما على الآخر كثيراً ، فاجتهد كلاهما عند حدوث هذه الأزمة ، في الوقيعة بصاحبه . ثم استمرت الحال على هذا المنوال أياماً حتى فدح الخطب فاضطر الملك المحتضر إلى عقد مجلس حضراه ، وفيه قلد أبنه «أبا بكر» سيف السلطنة ، وبعد ذلك بيوم أو يومين فاضت روح السلطان ، وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، تربع على عرش الملك منها نحو ٤٨ سنة ، كان في خلال اثنتين و ثلاثين سنة منها سلطاناً مطلقاً لا ينازعه الأمر أحد . وكان وهو في النزع الأخير يطلب التوبة والمغفرة .

وكان الناصر ملكاً جليل القدر ، ولكن ما أتاه من ضروب العسف وأعمال القسوة غطى على ما له من الفضائل وجعلها كأن لم تكن . لهذا مات الناصر واسمه مخيفاً أكثر منه محبوباً . وقد دفن في قبة والده من غير احتفال اذ لم يحضر جنازته أحد من أسرته . ولذلك قال أحد المترجمين لتاريخ حياته[١] «فسبحان من لا يحول ولا يزول ، هذا ملك أعظم المعمور من الأرض مات غريباً وغسل طريحاً ودفن وحيداً ، إن في ذلك لعبرة لأولى

---

(١) هو المقريزي ص ١٠٠ جزء ٢ طبعة مطبعة النيل .

الألباب» . حقاً ان أطوار حياته غريبة وفيها الكثير مما يستوجب الثناء عليه والأطراء ، ولكن ما يوجب السخط والذم أكثر . وكذلك كان يؤخذ عليه كثيراً شدة انفعالاته المشوبة بالغضب والحنق . ولا ريب أن حياة الناصر بن قلاوون من التراجم التي تستحق العناية واعمال الفكر والدرس .



مئذنة مسجد الناصر بن قلاوون

الفصل التاسع
أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده
(١٣٤١ ـ ١٣٨٢ م)

[١٣٤١ م] بقي ملك مصر في بيت السلطان الناصر مدة أربعين سنة . توارثه فيها ثمانية من أولاده على التعاقب ، في العشرين عاماً الأولى من وفاته ، ثم انتقل إلى أحفاده في العقدين التاليين فكانت كل هذه الفترة سلسلة حوادث بؤس وشقاء ، إذ كان السلاطين أطفالاً لم يبلغوا الحلم ، يولون ويعزلون حسب ارادة مماليك ذلك العهد والواقع أن أصغر هؤلاء السلاطين كان أمثلهم لأنه عندما كان السلطان الصبي يشرع في اظهار ارادته ، كان يخلع من عرش الملك أو يلقى حتفه . والقليلون الذين عاشوا حتي بلغوا الحلم ماتوا حتف أنوفهم . وكان موقف الأمراء في صعود وهبوط فكان لكل برهة قصيرة يقبض فيها على أزمة الأمور ، ثم لا يلبث أن ينزل من عليائه ، وينهب متاعه ثم ينفى من الأرض أو يصلب ، ويعقبه غيره فيكون حظه حظ سابقه . وقد كانت تمر فترات قصيرة تضبط فيها حكومة البلاد بهمة حكام قادرين ، ولكن كان القتل والتعذيب والشنق واقتراف الآثام والثورات يندلع لهيبها كثيراً في غضون ذلك العصر . والحقيقة أن تاريخ هذا العصر مأساة مؤلمة ليس فيها ما تلذه النفوس ولذلك سنقصها موجزة على قدر ما يسمح به هذا الكتاب .

[يونيه ١٣٤١ م] لم يبايع الناصر كما ذكرنا آنفاً وهو على فراش الموت أكبر أولاده ، بل قلد ملكه ولده «أبا بكر» وكان في العشرين من عمره . وقد أظهر هذا الفتى من قبل توليته الملك ، وهو في الكرك ، ما هو مفطور عليه من القسوة

والغطرسة . وتدل فاتحة أعماله في حكمه على أنه غشوم متوحش إذ أنه سمر نائب والده على ظهر جمل وشهر به في الطرقات ، ثم أمر باحضار أولاده فذبحوا على مرأى منه ، وما ذلك إلا لما أظفره من الاستخفاف به[1] . وكذلك في خلال حكمه قبض «قوصون» على منافسه «بشتاك» حقداً عليه وغيرة منه وأرسله إلى الاسكندرية حيث لاقى حتفه بأمر من السلطان ، ثم إستولى على كل ما يملك . وفي آخر الأمر أضل أبا بكر من كانوا يلهون معه من الفتيان ويقضون الليالي الساهرة في الخلاعة والدعارة فأوغروا صدره على قوصون فأطاعهم وحاول القبض عليه ، فنمى ذلك إلى قوصون قبل وقوعه ، فضم إليه السواد الأعظم من الأمراء ثم قبض على ذلك الطاغية الصغير وأرسله مع اخوته الكبار إلى مدينة قوص في صعيد مصر ليسجنوا فيها ، وبذلك انقضت أيام حكمه التي لم تجاوز ثلاثة أشهر .

[اغسطس] أصبح قوصون بعد ذلك صاحب الكلمة النافذة فقلد «كجك» أحد أولاد الناصر سلطان مصر وهو في السادسة من عمره وقد أقر الخليفة البيعة له بعد أن وافق على خلع أبي بكر لما أتاه في حياته من الآثام . وكانت فاتحة هذا الحكم الجديد عزل كل من كان في يده شيء من القوة والسلطان . فقبض على أحد أخدان السلطان المخلوع وأوثق على جمل وسارت وراءه جموع الناس يحملون الأنوار فهلك وهو على ظهر الجمل . ثم أخذ «قوصون» من ذلك العهد يوجس خيفة من أحمد أكبر أولاد الناصر وكان لا يزال بالكرك فاجتهد في نصب الشراك لايقاعه وذلك بأن وعده تاج ملك مصر اذا هو حضر إلى القاهرة ، ولكن أحمد كان يقظاً فبقى في الكرك فسير إليه قوصون الأمير «قطلو بغا» على رأس كتيبة ولكن أحمد استهواه فانضم إليه وبانضمامه دخل في جانب أحمد معظم أمراء سورية .

---

(١) يضاف إلى هذا الإستخفاف أن النائب المذكور كان قد حجز خدم أبي بكر وأساء معاملته حينما فر إليه . وهذا كل ما نسب إليه ومن أجله ارتكب ذلك القتل الذي لا يكاد يصدقه العقل .

ثم أخذ الحزبان يتنازعان السيادة فكان الظفر في جانب أحمد . وكان قوصون وقتئذ في أشد الارتباك وود لو أرجع أبا بكر من قوص ليجلس على سرير الملك ثانية ولكن كان «قد سبق السيف العزل» لأنه كان قد أرسل من مدة أوامر سرية بقتله فتم ذلك . ولما انفض أعوان «قوصون»(١) من حوله وأصبح وحيداً قبض عليه وأرسل إلى الاسكندرية حيث لاقى ما لاقاه «بشتباك» .

[يونيه ١٣٤٢ م] عند ذلك أنزل الطفل «كجك» من عرش ملكه بعد أن جلس عليه خمسة أشهر . ثم أرسل وفد من قبل الأمراء إلى أحمد وكان اذ ذاك في الرابعة والعشرين من عمره ، وكان لا يزال غارقاً في الكرك في حماة الرذيلة ، يعيش عيشة الدعارة منهمكاً في اللذات ، منغمساً في الشهوات فدعوه للحضور إلى القاهرة ليجلس على أريكة الملك(٢) . أما هو فلم تكن له رغبة في الذهاب إلى القاهرة . والحق أنه لولا عداوة قوصون له ما كان ليفكر مطلقاً في عرش مصر ، فأجاب الوفد أنه سيمكث حيث هو حتى ينضم إليه جميع أمراء سورية ، ورغب في الوقت نفسه أن يقسم له يمين الطاعة بالقاهرة .

وفي ذلك الوقت رجع إخوته من «قوص» وانضموا إلى الناس في حثه على الرجوع إلى القاهرة . وبعد مماطلة طويلة تأهب للمسير في فئة قليلة من أتباعه ودخل المدينة في غلس الليل في زي أعرابي ، وقصد دار أحد [مارس]

---

(١) لم يكن قوصون محبوباً إلى المماليك لأنه لم تتوافر فيه شروط المملوك أي أنه لم يشتر في بادىء أمره كمملوك بل حضر إلى الناصر من تلقاء نفسه في حاشية زوجه المغولية فوهب نفسه للسلطان بمحض إدراته : فلم تكن له تلك المكانة الإجتماعية التي كانت لمملوك اشتريَ بالمال .

(٢) وكان من بين الأمراء الذين ذكروا هنا الزوج الثاني لوالدة أحمد . وكانت في بادىء أمرها جارية رخيمة الصوت تغني الأمراء فشغفت الناصر حباً فتزوجها ولما قضى منها وطراً تزوجها هذا الأمير .

إخوته فاحتجب فيها أياماً لا يخرج إلى الناس في المسجد أو القصر أو أي محلة عامة . فأثار بهذا السلوك الغريب غضب الناس عليه . ثم تربع في دست الملك أخيراً ، وكان لا يزال متهالكاً على الدعارة واللذات التي اعتادها في الكرك فترك ، أزمة الأمور في يد «طشتمر» و «قطلو بغا» وغيرهما من الأمراء الذين أتوا من صنوف التعذيب والتقتيل والفظائع بأعدائهم[1] ما لم يسمع بمثله من قبل .

ولما أصبح «طشتمر» صاحب السيادة في البلاد نصب أصدقاءه أمراء على ولايات سورية وصار صاحب النفوذ المطلق في حكومة البلاد ، فساورت الغيرة أحمد فأخذ مقاليد الأمور في يده وأودع طشتمر غيابات السجن ، وسير إلى «قطلو بغا» حاكم دمشق من قبض عليه هناك وكبله بالحديد . ومع أن هذا الطاغية الخليع قد صار بعد ذاك مطلق التصرف في أمور البلاد لا يسيطر عليه مسيطر كان لا يزال حبه للكرك مالكا عليه قلبه . فترك «آق سنقر» أحد كبار الأمراء نائباً عنه في البلاد وتزيا بزي أعرابي وركب «هجيناً» وليس معه غير اثنين من الأتباع ، وتوجه تلقاء الكرك حيث حط رحله ، واحتجب عن الناس فكان لا يراه إلا أهل مودته . أما القاهرة التي تركت بلا سلطان فعمت فيها الفوضى وسوء النظام ، فكتب إليه كبار الأمراء رسالة يرجون منه الرجوع إلى البلاد لحاجة حكومتها إليه ، فأجابهم بأنه حاكم سورية ومصر على السواء وأنه سيبقى حيث شاءت أهواؤه . أما طشتمر وقطلو بغا فقد حملا في الأصفاد إلى الكرك وهنالك قطع رأساهما ثم أرسلت أسرتاهما إلى دمشق بعد أن جردتا من كل ما تملكان ، وتركتا في حالة محزنة أثارت عواطف أمراء سورية وهاجت حنقهم فأرسلوا رسالة إلى

[ابريل]

(١) وهم الذين أودوا بحياة قوصون والطونبغا وغيرهما في السجن . ثم تنفيذاً لرغبة أم السلطان أبي بكر طيف بحاكم قوص على ظهر جمل في الطرقات عدة أيام . ولما لم يمت شنق بعد أسبوع . والسبب في ذلك أن هذا الحاكم قتل ابنها تنفيذاً لرغبة قوصون في بلدة قوص .

القاهرة يطلبون فيها خلع هذا الطاغية وتولية غيره . ولما جاءت هذه الرسالة كان الأمراء في القاهرة قد عيل صبرهم من «أحمد» الذي كان لا يزال غائباً عن الديار فخلعوه وكانت مدة حكمه نصف عام قضاها في الدعارة وارتكاب الفظائع وخلفه أخوه الآخر على العرش .

[يونيه] تولى أبو الفداء إسماعيل أريكة مصر وهو في السابعة عشرة من عمره ، إلا أنه مع صغر سنه كان مثالاً طيباً يحتذى ، رفيقاً بالعباد في إدارة شؤون الدولة ، فكان حقاً أول سلطان من اسرته لم تغلب عليه خصال القسوة والجشع والغدر .

رجع إلى قصره المهجور ، وبدأ يدير أمور البلاد والأمل في النجاح [ديسمبر] ملء فؤاده ، ولكن الحظ عاكسه فلم يستمتع بحكم هادىء ، إذ ثار عليه إخوته ، ثم لاقى حمامه في الحرب التي نشبت . وكان معظم خوف إسماعيل وقلق باله ، من الدسائس التي لم يفتأ أخوه أحمد المخلوع يدبرها له ، والتي كان من جرائها محاصرة السلطان له في الكرك ، فمكثت هذه القلعة الحصينة تقاوم مدة عام ثم سلمت[1] ، فقتل أحمد وارسل رأسه إلى القاهرة فلما وقع عليها نظر السلطان التي إرتعدت فرائصه وشحب وجهه ، [يوليه ١٣٤٤] حتى صار كأنه من الأموات . ومن هذه اللحظة لم يذق النوم إلا غراراً ، ومات بعد عام . وكان السلطان إسماعيل (الملك الصالح علاء الدين) مشغوفاً بنسائه ، وقد وله بقينة سوداء كانت تشنف أسماعه بنغمات أوتار العود حتى أصبحت أحسن سلوة له في أخريات أيامه . هذا كل ما وصل إلينا عن حياته المنزلية . ولقد كان لنسائه وحاشيته نفوذ عظيم على إدارته الضعيفة جر إلى فساد الحكومة . ولكن اذا استثنينا حصار الكرك فاننا لا نجد شيئاً يستحق الذكر حدث في خلال ثلاثة الأعوام التي جلس فيها على العرش ، اللهم إلا ما كان من بعض مشاغبات قام بها العرب فيما بينهم ، ومن بعض حروب ليست هامة ، على تخوم سورية . وفي أيامه انحطت

(١) ذكر ابن أياس أن الحصار دام ثلاث سنوات ص ١٨٢ ج .

مالية البلاد حتى جعلت السلطان الشاب يقعد عن أداء فريضة الحج بعد أن عزم على اداائها .

وكانت بلاد اليمن أخذت إذ ذاك تتطلع إلى إحراز السيادة على هذه البقاع المقدسة . ولكن على الرغم من ذلك كان صيت المماليك ذائعاً في الممالك الأخرى حتى ان ملك الهند أرسل للمرة الثانية بعثاً يحمل الهدايا والتحف لسلطان مصر كي يحصل منه على اعتراف بملك «ابن طغلوق» وتثبيته من الخليفة الذي كان عظيم الإحترام في الأقطار الإسلامية الأخرى ، مع أنه لم يكد يكون له شأن ما في مصر .

تولي الملك بعده أخوان له آخران «شعبان» ثم «حاجي» ، وقد ذبح كل منهما في نحو عام . وكان عصرهما عصر خلاعة ومجون وتقتيل وفوضى أسوأ مما حدث في البلاد في أي زمن من قبل . ذبح شعبان (الملك الكامل شعبان) اثنين من إخوته خنق أحدهما (كجك السلطان السابق) في فراشه ، ثم ازدادت رذائله واشتدت قسوته بدرجة لم يعد من المستطاع الصبر عليها ، وجاوز الإستياء مصر إلى دمشق . فلما جاءه نبأ ذلك ، ذعر وخاف على ملكه من أخويه الباقيين فهم بالقضاء عليهما كما فعل بأخويهما من قبل ، فتدخل في ذلك نساء القصر فأنجين حياتهما .

[اغسطس ١٣٤٥ م]

وفي مدته عمت الفوضى طول البلاد وعرضها فنشأ عن ذلك إنحطاطا في دخلها أدى إلى وقف الحج السنوي . ومع ذلك كان ترف البلاط ولباس سيدات القصر يزيد على كل شيء حدث قبلاً . وفي آخر الأمر ثار أمراء سورية ـ وكانوا كلهم من المماليك أصحاب الحول والطول في القاهرة ـ على شعبان ، وطلبوا إليه أن يعتزل العرش ، ثم هاجمه المماليك في قصره ، بعد أن هجره كل أتباعه وإخوانه ، فهرب عند والدته حيث أقتفى أثره وقتل خنقاً .

[سبتمبر ١٣٤٦ م]

الملك المظفر «حاجي» بن محمد بن قلاوون

تولى السلطان حاجي ملك مصر ، وهو صبي لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره فأظهر من الخلاعة وفساد الخلق ما جعل عهده أسوأ من عهد سلفه . بدأ بقتل الأمراء في القاهرة والإسكندرية . وكان نائب السلطنة وقتئذ جركسي الأصل وأراد أن يرفع المماليك الجركس فوق المماليك الترك ، فهاج ذلك حنق هؤلاء وولد في نفوسهم الغيرة والسخط ، فرموه بتهم عند «حاجي» فأخذه على غرة بأن قدم له ولاية غزة ثم ذبحه غيلة . وقد بذل السلطان القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لجواريه واختص واحدة منهن كانت حظية لسلطانين قبله[1] . وفي الوقت الذي كان يهلك فيه الناس جوعاً من جراء القحط الضارب أطنابه في جميع أرجاء البلاد ، كان هو يتقلب في حمأة الرذيلة والخلاعة والدعارة مع حظاياه وقيانه ومغنيه ومضحكيه وغيرهم ، وكان يجزل لهم العطاء . وقد بلغ به الاسراف مبلغاً بعيداً حتى انه قسم بين أخدانه وأتباعه ثروة أحد الأمراء الذين قتلهم ، فحذره أثنان من خواصه المماليك غيوم الشر التي تتكاثف حوله ، فقابل ذلك بكل اعراض وإزدراء ، وكاد يقتلهما لولا أنهما تمكنا من الفرار . ثم أثارا عليه المماليك ، وكانوا كلهم على أهبة الخروج عليه ، فتجمعوا جميعاً وناصبوه العداء طالبين إليه أن ينزل عن الملك ، فسار للقائهم فخذله أتباعه وهجم عليه أعداؤه ، وأنزلوه من سرجه وأذاقوه الحمام ، وهو يتضرع إليهم على غير جدوى (أنظر ابن إياس ص ١٨٨ . حكاية أخرى) .

---

(١) اهديت لهذه الجارية هدايا تكاد تكون حديث خرافة منها هدية من اللؤلؤ قيمتها أربعمائة ألف درهم . وكانت لها قلنسوة رصعها الثلاثة السلاطين على التتالي بلآلىء قيمتها مائة ألف من الدنانير . وقد أشار على السلطان إثنان من نصحائه أن يسلو عن هذه الجارية واثنتين آخريين شغف بهما فكان جزاء الناصحين أن دعيا إلى وليمة في السنة التالية وقتلا لما أبدياه من النصح الجميل .

السلطان الناصر أبو المحاسن حسن

[ديسمبر ١٣٤٧ م]

كان المماليك الجراكسة يودون انتخاب حسين بن الناصر سلطاناً على البلاد ولكن الأمراء فضلوا عليه «حسناً» الذي كان في الثانية عشرة من عمره ليكون آلة سهلة في أيديهم . وبعد أن تم الأمر للسلطان «حسن» أخذ الأمراء ، كما هي عادتهم ، ينقضون على أتباع السلطان السابق ، فابتزوا من سماره وبطانته ومن جواريه كل ما لديهم من المال ليودعوها خزانة الملك الخاوية وقتئذ . وقد ضرب وعذب مضحك «حاجي» وكان أحدب ، حتى فاضت روحه ، كي يظهر أمواله . وكذلك اضطهد المماليك الجراكسة الذين كان هواهم مع حسين ، ووزعوا بين الأمراء الأتراك . على أن مدة هذا السلطان ، كانت على الاجمال أنعم حالاً من سابقتها . ويعزى ذلك ، بصفة خاصة ، إلى إجتياح البلاد بالوباء المعروف بالموت الأسود الذي قبر الملايين . وهو سائر في طريقه من الشرق إلى البحر الأبيض المتوسط[1] .

[١٣٤٨ - ١٣٤٩ م]

(١) قد أسهب المقريزي في الكلام على هذا الوباء الفظيع الذي ظهر في الصين قبل ذلك بسبع سنين ، ثم انتشر في بلاد التتار ، ثم بلغ القسطنطينية ، ومنها انتقل إلى أوربا وسورية . وفي روايات أخرى يقال أنه جاء إلى سورية من الهند عن طريق بلاد الفرس والجزيرة ، فاجتاح سورية ، إلا بلاداً قليلة أخطأها ، ثم نزل بمصر : غير أنه كانت تقل وطأته كلما سار جنوباً . وقد كان يودي في القاهرة بحياة ألف أو ألف وخمسمائة كل يوم فيما بين شهرى نوفمبر ويناير . وقد اختطف في يوم واحد أرواح عشرين ألف نسمة . وكانت تحمل الأموات على الواح ، ويوضع كل ثلاثين أو أربعين في قبر واحد . أما في حلب فكان عدد من يموت في اليوم خمسمائة ، وفي غزة إثنان وعشرون ألفاً في الشهر . وقد نزل الوباء بمصر على شكل خراجات أصابت الماشية والأسماك فكنت ترى مجارى المياه ملأى بالسمك الميت . وقد كان الوباء يصيب حتى النبات فأصبح البلح لا يؤكل لما به من الديدان . وقد ابتدأ المرض في القاهرة بالنساء والأطفال ، ثم تعداهم إلى الرجال ، فكانت الطرقات ملأى بالجثث التى كان الناس يهابون نقلها من أماكنها ، لأن مجرد لمسها كان يحدث خراجات . وقد أصبحت حاضرة البلاد خاوية على عروشها ، إذ فر منها السلطان وكل من أمكنه الفرار . وقد بلغ عدد الموتى فيها نحو تسعمائة ألف . =

على أن عدد ضحايا هذا الوباء لم يبلغ في أي مكان ما بلغه في بلاد سورية ، حتي أصبح لا يشغل الأفكار في تلك المدة إلاّ أمر هذا الفناء . وليس جديراً بالذكر من حوادث ثلاث السنوات الأولى ، التي تربع فيها حسن على عرش مصر ، سوى ما كان يأتيه الأعراب من وقت لآخر من الفظائع ، وما قام بين «أرغون شاه» نائب دمشق ، «واقبغا» نائب طرابلس ، من الشقاق وذبح الثاني الأول .

ولما كان نائب السلطنة «يلبغا» غائباً عن البلاد لأداء الحج ، انتهز السلطان هذه الفرصة ، وقبض على أزمة الأمور بنفسه . وكانت الفظائع ترتكب في عهده ، إلاّ أنها كانت أقل شدة مما كانت عليه قبلاً . وقد انتصرت جنوده على جنود اليمن في مكة المكرمة ، وكذلك كسر جيشه جيوش التركمان في غارتهم على «سنجار» ، فكان ذلك مما زاد في شوكته ، إلاّ أن وزراءه كانوا لا يزالون يتدخلون في شؤونه فأتمر هو وجماعة بالقبض عليهم ، ولكن نمي إليهم أمر المكيدة ، فهاجموه ، وخلعوه عن عرشه ، واعتقلوه في أحد البيوت ، بعد أن حكم البلاد أربعة أعوام تقريباً لم يكن له فيها من الأمر شيء إلاّ في السنة الأخيرة .

الملك الصالح صلاح الدين صالح

[اغسطس ١٣٥١ م]

جلس بعده على عرش مصر الملك الصالح ، وهو فتى حدث من أولاد الملك الناصر ، وكان في الرابعة عشر من عمره . وأمه (خوند قطلوملك) بنت الأمير «تنكيز» الذي غدر به الناصر . مكث الصالح على عرش مصر مدة ثلاثة أعوام لم يحدث في خلالها شيء يذكر غير ما كان يقع

= وكانت العقارات تتوارثها سبع أو ثماني أيدٍ ، واحدة بعد اخرى : وكذلك كنت ترى الفعلة ممتطين ظهور جياد الضباط . فأصبحت البلاد قاعاً صفصفاً لا تجود بخير ، لقلة الأيدي العاملة على زرعها . وكانت بخسة الأثمان : غير أن الطعام كاد ينعدم إذ لم يوجد من يعده . وقد قلت وطأة الوباء تدريجاً في ربيع عام ١٣٤٩ م ولم يلبث أن انقطع جملة .

من المؤامرات وارتكاب بعض المماليك الفظائع ضد بعض ، على أن ما كان يتوالى من ظهور الأمراء بعضهم على بعض ، وتمردهم من آن إلى آن في سورية ، وهربهم ، واقتفاء أثرهم ، وقتلهم ، ليس فيه ما يلذ القارىء . وكان وزيره (الصاحب علاء الدين بن زنبور) - وهو مسيحى أسلم - جمع ثروة عظيمة فاتهمه أحد نظرائه بأنه لا يزال على المسيحية ، فلم يكتف السلطان بتعذيب هذا الشقى بل أنزل بأسرته وجميع خدمه أشد العذاب حتى أرشدوا إلى ما كان لديه من الثروة التي قدرت بنحو ألفي ألف دينار ، ثم نفاه إلى قوص . وقد لاقى المسيحيون الأمرين في هذا العصر ، فقد حسدوا على ما كانوا يكتسبونه بكدهم الشريف فغصبت منهم كل أموالهم ، وهدمت كنائسهم ، ونفذت عليهم تلك القوانين الصارمة مرة أخرى . وفي مدة هذا السلطان أبيدت قبائل العرب ، التي كانت اعتادت أن تعيث في الأرض فساداً . ولم يحدث في عهده شيء آخر جدير بالذكر . وفي أواخر مدته نصح له أن يقبض على زمام الأمور بنفسه ، غير أنه مال إلى حياة المجون ، واتمر هو وآخرون بالقبض على بعض الأمراء من حاشيته ، الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريقه ، فلما أحسُّوا الخطر المحدق بهم تمردوا عليه ، وشقوا عصا الطاعة ، وقبضوا عليه وأعادوا «الناصر حسناً» إلى العرش بدلاً منه .

عودة الملك الناصر حسن

[اكتوبر ١٣٥٤ م]

قضى الناصر حسن مدة الحجر عليه في الدرس والعبادة ولم يستفد إلاّ قليلاً . فلما تبوأ العرش ثانية مكث سلطاناً على البلاد نحو ست سنوات خلع فيها العذار (اقرأ المقريزى) ، وترك مقاليد الأمور لأمرائه الذين كانوا فئة من الطغاة الجبارين ، يعقب الواحد منهم الآخر في السيطرة على البلاد ، ويرتكبون من الفظائع ما لا يتصوره العقل[1] . وتكاد مدته هذه تكون خالية

(١) يدلك على ذلك ما فعله «شيخو» أكبر أمراء ذلك العصر بأنه بعد أن أفلح في عزل =

من الحوادث إلا ما كان من هزيمته في مكة ، وغزوة قام بها في بلاد أرمينية حيث استولى المصريون على «طرسوس» و «أطنه» و «المصيصة» ، ووضعه فيها حاميات مصرية . وفي أواخر حكمه أغضب اكبر أمرائه «يلبغا» وأثار حنقه فهاجمه وتغلب عليه ، ثم أودعه في غيابة السجن ، فلم يقف له أحد على أثر .

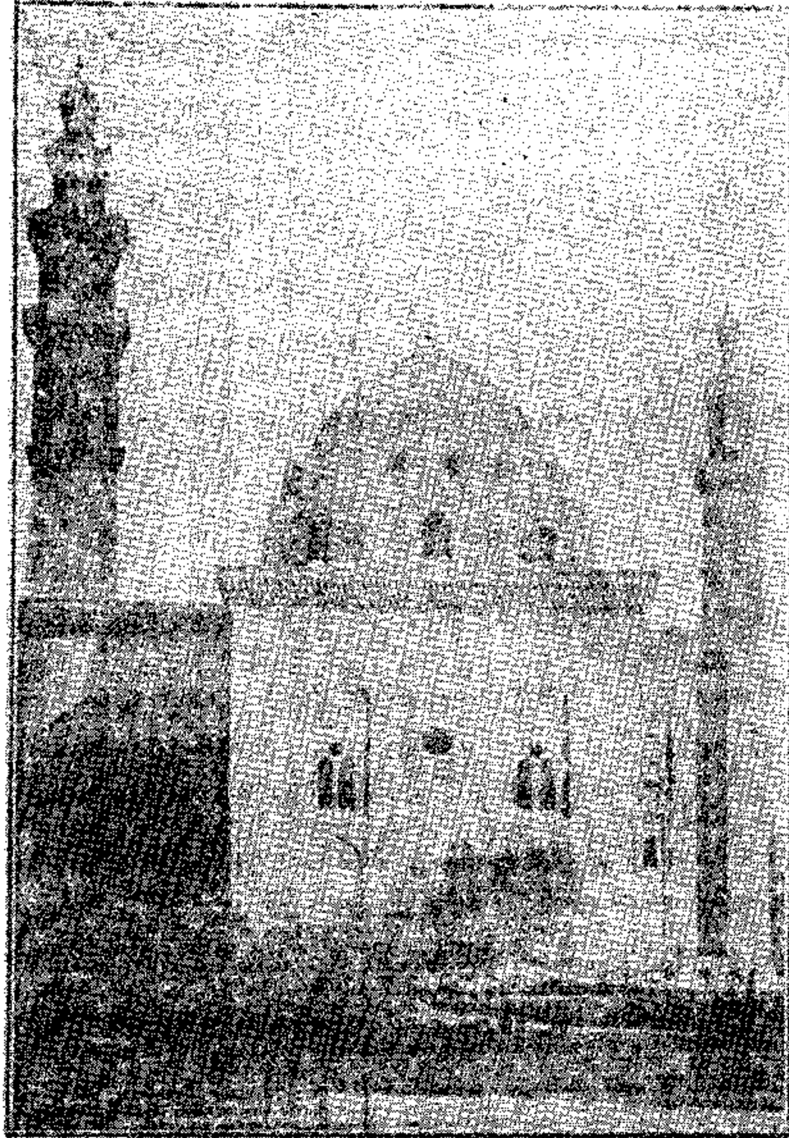
[مارس ١٣٦١ م]

خلفه على العرش اثنان من أحفاد السلطان الناصر ، الواحد تلو الآخر ، فكان أولهما السلطان «المنصور محمد بن السلطان المظفر حاجي» ، وكان فتى في الرابعة عشرة من عمره فمكث على أريكة البلاد ما يربو على العامين ، ثم خلع لقلة كفايته ، وبقي محجوراً عليه حتى توفي في عهد السلطان برقوق .

[١٣٦٣ م]

ثم خلفه السلطان «شعبان بن حسين بن الملك الناصر» ، ولقب «بالسلطان الأشراف ابي المعالي زين الدين» ، وكان عمره اذ ذاك يزيد على عشر سنين ، ولذلك فضل على والده حسين الذي لم يظفر بعرش البلاد قط . فكانت مدة حكمه نحو الأربعة عشر عاماً ، وهي أطول مدة حكمها سلطان من أسرته . غير أن سيرة هذا السلطان تختلف عن سيرة سابقيه نوعاً ما ، لتوالى سقوط الأمراء الذين كان بيدهم الحل والعقد ، ولخاتمة هذا السلطان المحزنة . والواقع أن السنين الأولى من حكمه لم يحدث فيها شيء يسترعى النظر ، بخلاف أخريات أيامه فكانت ملأى بالعواصف في داخل البلاد وخارجها .

= أحد نظرائه ، أمر أن يطاف به في طرقات المدينة . ويروى أنه بعد ذلك أمر بحلق رأس هذا المسكين وثلمها في عدة مواضع . ثم ركب في كل ثلمة حشرة سامة ، ثم وضع فوق كل ثغرة قطعة من النحاس المصهور فجعلت تلك الحشرات تغور داخل رأس هذا البائس حتى مات . أما «شيخو» فقد نال جزاءه على وحشيته إذ قتل في القصر . ومع كل هذا فان شيخو كان يعد مثالاً للورع والتدين ، تبرع بترتيب قراء لتلاوة القرآن في احد المعاهد الدينية ، وعمل بنفسه في بناء الخانقاه التى تنسب إليه .





مسجد السلطان حسن بن الناصر ومقبرته
المئذنة إلى اليسار الذي هو جزء من البناء الأصلي

كان «يلبغا اليحياوي» في بداءة حكم السلطان شعبان صاحب النفوذ في البلاد ، وما أتاه من الفظائع ، كان أشنع ما ارتكب في هذا العصر[1] ، [١٣٦٦ م]
فأحفظ ذلك الأهلين الذين التفوا حول السلطان الفتى حينما تمرد عليه يلبغا وأراد أن يجلس على العرش أحد أخوته ، فهزم هذا الطاغية ، وقتل ورفع رأسه فوق مشعلة تحترق . غير أن أتباعه من المماليك ما فتئوا بعده أصحاب السلطان في البلاد ، فأصبحت العاصمة مسرحاً لفظائعهم الوحشية . ثم تمادوا في طغيانهم ، وتآمروا على خلع السلطان ، فهاج ذلك الأجناد والأهالي الذين لم يصبروا على تلك الحالة ، فاقتفوا أثرهم ، حتى فروا من وجوههم ، وأغرق بعض زعمائهم ، ودقت أعناق بعضهم ، ونفى الباقي من البلاد ، وكان بين من نفي «برقوق» ، الذي فرَّ إلى دمشق بعد أن لبث في السجن بضع سنين ، وسنتكلم عنه بعد . . . ثم استمرت الحال كما كانت عليه من قبل ، ولم يقع ما يستحق الذكر . غير أنه بعد وفاة أم السلطان قام زوجها ، وكان صاحب سيطرة في البلاد اذ ذاك ، وطلب أن يرثها في متاعها كله ، وتمرد على السلطان ، ثم هزم وفرَّ هارباً ، فسقط بجواده في اليم ومات غرقاً . [١٣٧٣ م]

وقد حدثت بعض حوادث خارج البلاد لا بأس من إيرادها إجمالاً ، ذلك أن حاكم بغداد التتارى تمرد على «القان أويس» وثار في وجهه ، ثم طلب المعونة من سلطان مصر ، بعد أن اعترف به سلطاناً على بلاده ، وضرب السكة باسمه ، فاستقبل السلطان رسله استقبالاً حسناً وزودهم بالهدايا النفيسة وبوسامي كل من السلطان والخليفة ، فأرسل القان وفداً إلى القاهرة يشكو من سوء صنيع السلطان ، فأساء سلطان مصر مقابلته . غير أن ما كان يطمح إليه السلطان من توسيع نطاق مصر أسفر عن الخيبة التامة ، اذ كسر حاكم بغداد المتمرد ، فرجعت بغداد إلى دولة المغول (الأمبراطورية الشرقية) . [١٣٦٤ م]

---

(١) وكان من فظائعه قطع ألسنة كثير من الناس لا لسبب غير مضايقتهم له .

وفي عهد استبداد «يلبغا» دبرت قبرس والبندقية وفرسان رودس حملة صليبية على مصر فرسوا بأسطولهم في مياه الاسكندرية ، وأطلقوا يد السلب [١٣٦٥ م] والنهب في المدينة مدة ثلاثة أيام ، وقبل أن يصل المدد من القاهرة أقلعت سفنهم حاملة نحو خمسة آلاف من الأسرى فانتقم «يلبغا» لذلك من المسيحيين بأن فرض عليهم الضرائب الفادحة ليجهز بما يجمعه منهم أسطولاً ويفدى الأسارى . وفي ذلك الوقت أرسل الفرنجة بعثاً سلمياً يظهرون استعدادهم لدفع تعويض عما حدث ، ويطلبون فتح «كنيسة القيامة» ببيت المقدس ثانية ، فحجز يلبغا هذا البعث في القاهرة ، ومضى في استعداده [١٣٦٨ م] للحرب[١] . ولما لم يجيبهم السلطان إلى طلبهم قام أسطول قبرس بغزو السواحل السورية ، وهاجم الاسكندرية ، ولكنه ردَّ عنها متكبداً الخسائر ، وقد دامت المناوشات طول العام ، وأخيراً تم الصلح بين الفريقين ، وأعيد فتح الكنيسة للحجاج .

ولم تك أرمينية ، لسوء حظها ، من المماليك التي عقدت مها معاهدة [١٣٦٩ م] الصلح ، فسير عليها السلطان كل ما لديه من الجيوش في مصر وسورية ، فغزاها نائب حلب عام ١٣٦٩ م، واستولى على «سيس» حاضرتها ، ثم ارتد عنها ثانية . وبعد ذلك ببضع سنين غزت مصر «كليكية» من جديد فاعتصم [١٣٧٤ م] الملك «ليو»بحصنه الجبلي ، غير أنه اضطر إلى التسليم ، وأخذا أسيراً إلى القاهرة[٢] ، وصار أحد أمراء المماليك بعد ذلك حاكماً في «سيس» ومحيت [١٣٧٥ م] أرمينية الشقية من تعداد المماليك المسيحية ، بعد أن مكثت أجيالاً العوبة في

---

(١) طلب هذا البعث رهائن قبل مغادرته الإسكندرية ، فأرسل معه يلبغا جماعة من المجرمين المحكوم عليهم وألبسهم لباساً فاخراً . ولكي يدخل الحيلة على الفرنجة أرسل معهم نساء وأطفالاً كأنهم أهلوهم وذلك مما يدل على نفاق المماليك وخداعهم .

(٢) وقد بقي في الأسر إلى عام ١٣٨٢ م. حتى توسط له الملك «يوحنا الأول» ملك قشتالة ، فأطلق سراحه ، بيد أنه حرمت عليه العودة إلى بلاده ، فصار يتجول في البلاد الأوربية حتى مات في باريس عام ١٣٩٣ م

يد المماليك والعثمانيين واستبدادهم . وبعد مضي بضع سنين (أي في عهد السلطان التالى) قام نواب سورية بغزوات متتالية على أملاك بيت «ذي الغادر» التركماني في آسيا الصغرى فردوا على أعقابهم خاسرين ، وكانت حلب على شفا الخطر في هذه الحرب . ويعد هذا الحادث فاتحة عصر جديد في علاقة مصر والولايات التركمانية التي في الشمال . وقد قال المقريزى : أن أتراك آسيا الصغرى كانوا إلى ذلك العهد حاجزاً منيعاً لحماية الحدود المصرية ، ولكنهم من هذه اللحظة أصبحوا أعداء لحكم المماليك ، وكانوا في الحقيقة السبب في سقوط مصر وضياع استقلالها .

[١٣٧٨ - ١٣٨١ م]

[١٣٦٦ م] وفي أوائل عهد السلطان «شعبان» أرسلت حملة هامة بحرية وبرية إلى سواكن جنوباً لحماية حدود الصعيد وبلاد النوبة من عبث قبائل البدو ، فكان رائد هذه الحملة الفلاح ، غير أن فظائع حاكم أسوان الشنيعة أثارت حقد القبائل المجاورة فانقضوا على المصريين وأفنوهم ذبحاً ، وتركوا المدينة فريسة للنيران .

[١٣٧٦ م] إننا الآن نقترب من آخر سلالة الناصر . لم تكن الثورة وسوء الحكم العاملين الوحيدين اللذين أثرا في البلاد في هذا الوقت ، بل أن القحط والوباء تفشيا فيها ثانية . وقد أصاب «طشتمر» كبير الوزراء الطاعون ، فلما كشف الله عنه ضره تهيأ للخروج إلى مكة حاجاً شكراً لله ، وقد رافقه السلطان والخليفة وخرجوا في زينة وأبهة ، ومعهم جم غفير من المماليك الذين طلبوا عند وصولهم إلى أيلة نقوداً وثاروا في وجه السلطان ، ففزع منهم وهرب تحت جنح الظلام إلى القاهرة . وفي تلك الأثناء دبروا مؤامرة تشبه مؤامرة القاهرة التي ثار فيها المماليك ، وأعلنوا أن السلطان قد قضى نحبه ، وهاجموا أعوانه ونصراءه من الأمراء وذبحوهم ، وعينوا «على ابن السلطان» مكان ابيه . ولما وصل السلطان الهارب إلى القاهرة لجأ إلى بيت قينة حيث كشف أمره وهو لابس لباس النساء ، فقبض عليه وعذب كي يظهر أمواله . وفي نهاية الأمر خنقه مملوك كان قد رفعه إلى مرتبة الأمراء . وقد

أسف الناس كثيراً لموت شعبان لأنه مع ضعفه و بخله كان رقيق الحاشية معتدلاً بالنسبة إلى من سبقه من الحكام .

[مارس ١٣٧٧ م] أجلس ثوار القاهرة علياً على العرش وهو طفل في السادسة من عمره ، وقد تَوَّجَهُ في الحال خليفة نصبوه لهذا الغرض ، فبدأ حكما استمر ست سنين كانت كلها قلاقل ، ثم عاد الحزب الآخر من «أيلة» وعلى رأسه طشتمر ، وحاولوا إجلاس الخليفة الذي عاد معهم على عرش البلاد ، فاقتتل الفريقان ، وبعد معارك متكررة هزم «طشتمر» وابعد عن البلاد بأن عين حاكماً لدمشق . أما حزب المماليك الذين أصبحوا ذوي السيادة والنفوذ فقد ثاروا طلباً للمال وشكوا سيوفهم وحصل كل منهم على خمسماية دينار اختلاساً من خزانة مال الأيتام . والحوادث التي أعقبت هذا ليست إلا صورة غريبة لنهوض وسقوط الحاكمين من المماليك ، وللهياج والخيانة والاغتصاب والنفي والقتل[1] . وفي آخر الأمر صار «برقوق» و «برخ» اللذان [١٣٧٩ م] كانا قد نفيا من الأرض عند سقوط يلبغا اليحياوى ، صاحبي الأمر والنهى في القاهرة بمعاضدة أمراء سورية لهما . غير أن الهياج لم ينقطع وأصبحت القلعة نفسها مسرحاً للثورة . وقد أتمر «برقوق» بالقبض على «برخ» ، لكنه [١٣٨٠ م] هرب وخرج معه أتباعه الأتراك ونازلوا «برقوقاً» وحزبه الجركسى في معركة هزم فيها «برخ» وأرسل أسيراً إلى الأسكندرية حيث قتل[2] وفي العام التالي

(١) ومما يجدر ذكره هنا حكاية تدل على هذه الحالة وهي محاولة تولية العرش ولدا لزوج مطلقة من الناصر كانت قد صرحت بأنها حبلى عندما لحقت بزوجها الثاني ، وعند ذلك أعلن الخليفة بأن سلوك هذه السيدة شائن ومخالف للدين الإسلامي .

(٢) والظاهر أن هذا القتل كان بأمر برقوق : ولكنه على كل حال أنكره وجعله في ذمة والي الإسكندرية ابى خليل ـ وهو كاتب عالم ـ وسلمه إلى مماليك برخ فعرضوه على ظهر جمل ثم قطعوه ارباً .

وكانت طريقة العرض على ظهر الجمل التى يرد ذكرها معنا كثيراً طريقة يقول عنها المقريزي إنها منظر رهيب إذ كان من يقع فريسة يمد أولاً على لوح من الخشب تسمر فيه رجلاه وذراعاه ثم يربط هذا اللوح على ظهر جمل ثم يطاف به في طرق المدينة . . وهذه صورة محزنة تمثل وحشية ذلك العصر .

[١٣٨١ م] مات السلطان الصبي فخلفه أخوه «حاجي» وعمره ست سنوات ، ولكن ثوران المماليك بدأ ثانية ، وقد حاولوا قتل «برقوق» فجمع في أواخر عام [نوفمبر] ١٣٨٢ م مجلساً من الأمراء والمشايخ في حضرة الخليفة وأعلن أنه يجب أن يكون السلطان رجلاً لا طفلاً ليسود السلم والسعادة في الداخل والخارج ، فوافق المجتمعون على هذا وحَيُّوه هو باعتباره الحاكم عليهم . ثم أخذ السلطان الصغير وأدخل إلى الحريم .

وهكذا انتهى بيت قلاوون ، وبانتهائه انتهت أسرة المماليك البحرية أو التركية بعد أن حكمت ١٢٢ سنة . ومن ذلك العهد صارت السلطنة إلى المماليك البرجية أو الجركسية الذين قبضوا عليها كما سنرى ١٣٥ عاماً أي إلى نهاية حكم المماليك .

الجزء الثاني

الأسرة البرجية أو الجركسية(١)

١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م

الفصل العاشر

الظاهر سيف الدين برقوق (٢)

١٣٨٢ ـ ١٣٩٦ م

[١٣٨٢ م] يشعر الانسان بانشراح عندما ينتقل من ذكر أمراء وضيعي النشأة أتيح لهم النفوذ باسم سلاطين من الأطفال ، إلى عقد من الملوك الذين صار إليهم الأمر حقاً فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم حقاً ، على الرغم من أنه لم يكد ينال مصر من هذا التغيير نفع عظيم .

يدلك على هذا برقوق : اشتراه يلبغا اليحياوي من عشرين عاماً خلت من نخاس خوارزمي (هو خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر . قال المقريزى والذي اشتراه هو يلبغا الخاصكى) . وقد رأينا فيما سبق أنه طرد حين قتل مولاه . ولما عاد صار ضمن مماليك شعبان ، وكانت له يد في الثورة التي [١٣٦٧ م] أنزلته عن العرش ، ثم ارتقى بسرعة إلى مرتبة أمير حاكم في الأنقلاب الذي [١٣٧٦ م] حصل بعد ذلك . ولما تم له القضاء على منافسه «برخ» أصبح صاحب

---

(١) حكمت هذه الإسرة سنة ٧٨٤ هـ . وانتهت سنة ٩٢٣ هـ وعدد سلاطينها إثنان وعشرون سلطاناً .

(٢) قال المقريزي هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق ابن آنص .

السيادة المطلقة ، فمملوك الأمس اعترف به في الحال سلطاناً أمراء مصر وحكام سورية الذين كان كثير منهم ذا رتبة عالية ونفوذ عظيم في الوقت الذي كان فيه برقوق مملوكاً حقيراً في صفوف الجيش العادية وبعد أن انزوى ثلاثة أيام ـ وهي عادة اتبعت وقتئذ حين يجلس الملك على العرش ـ خرج من القصر في زينة فاخرة . ولما كان الخليفة «المتوكل على الله» قد أقر له بالطاعة هو والقضاء وكبار الموظفين ، رأي أن يوزع عليهم الهبات المعتادة وأعلن سلطانه .

وفي قابل كشفت مؤامرة كانت دبرت لاغتياله ولإجلاس الخليفة «المتوكل» على العرش . ولما جيء بالمؤتمرين به إلى حضرته هددهم بالعذاب فاعترفوا ، وعندئذ تملكه الغضب حتى هجم على الخليفة يريد قتله بسيفه ، ولكنه تراجع ثم حكم عليه بالموت فأقر المفتون هذا الحكم . أما القضاة فقد اختلفوا فيما بينهم لأن للخليفة حق تعيين وخلع الملوك ـ وهذا تخلص عجيب في بابه من ورطة ذلك اليوم ـ فقنع برقوق بخلعه وتعيين «الواثق بالله» خليفة مكانه ، وبالحكم على أحد المؤتمرين بالموت . وبدأ حكم الأرهاب الذي أقامه إذ ذاك يقصى عنه أكابر الأمراء . فمن ذلك أنه توهم في كبير الأمناء الرغبة في إعادة أحفاد الناصر إلى العرش . فَسَمَّرَهُ مع أثنين من مماليكه على ظهر جمل واحد ، وشهر ثم قتل . وقد صفد كذلك كثيرون وعذبوا أو نفوا لأسباب واهية . وقد امتد حكم الإرهاب إلى سورية التي انقلب حكامها عصاة لتوجسهم خيفة من أن يتهموا . من أجل ذلك ثارت كل الولايات تقريباً في وجه السلطان لأنهم أدركوا خيانته في تلك الأشراك التي كان ينصبها لضحاياه فيأتى بهم إلى القاهرة بعد أن يغرر بهم ويقتلهم فيها ، فكان ذلك سبب سقوطه السريع . وهاجمت قوة من العصاة بقيادة «يلبغا الناصرى» صاحب حلب «ومنطاش» صاحب ملطية (دمشق) فَدَحَرُوا جيوش السلطان واستولوا على المدينة . ثم تقدموا إلى القاهرة حيث كان الإضطراب بالغاً مبلغه . وقد ظهر برقوق بمظهر الضعف والجبن المتناهيين فأنه بكى بكاء الطفل ونافق الخليفة المتوكل الذى كان قد هدده

بالقتل من زمن غير بعيد ولم يتجاسر على الخروج من القلعة . وفي آخر لحظة أرسل إلى «يلبغا» رسالة بالخضوع ، فأبقى على حياته وأرسله أسيراً إلى الكرك ، وتركت القاهرة عدة أيام مسرحاً للهياج والسلب إلى أن أعاد يلبغا إلى العرش الطفل (السلطان الصالح حاجي ، آخر سلاطين المماليك البحرية الذي كان قد خلعه برقوق ، إذ يرى أنه أحق به على رغم الحاح الأمراء عليه في أن يكون هو سلطاناً .

وقد أصبح «يلبغا» باعتباره اتابكا لحاجي ، صاحب السلطان المطلق . أما «منطاش» فشعر أن لا حول له ولا طول ، وقد حاول عبثاً أن يقتل «برقوقاً» فرفض «يلبغا» رفضاً باتاً لأنه عده شجاً في حلق «منطاش» . ولكنه سجن أتباع برقوق وشتت طوائف المماليك الجراكسة . ولم يطق منطاش صبراً في آخر الأمر على فقدان نفوذه فرفع راية العصيان جامعاً حوله كل الناقمين من الحالة وفيهم أتباع برقوق الجراكسة فأمهله يلبغا حينذاك طويلاً وأرسل الخليفة لمناقشته ، فشكا إليه نقض يلبغا لعهده وجعل تبعة ذلك في عنق السلطان الصغير . فنشب القتال عدة أيام ، ثم غلب يلبغا في آخر الأمر وأرسل أسيراً إلى الإسكندرية فصار منطاش أتابكا مكانه فصرف كل قوته في سلب وسجن من حوله ، حتى جراكسة برقوق الذين نصروه وآزروه أصابهم ما أصاب غيرهم من فظائع القسوة الشنيعة . وقد قطع أيدي الكثيرين ، وهدد الناس بالقتل أن هم أحرزوا أسلحة ، أما حاكم دمشق ـ وهو من أتباع يلبغا ـ فقد قبض عليه وقتله بعد أن أرسل إليه خطاباً ينطوي على الغدر والخديعة ـ وبكل هذه الفظائع أساء منطاش إلى نفسه أكثر من نفعها . وفي النهاية أرسلت الجنود إلى الكرك لقتل برقوق ، ولكن الناس سهلوا له الهرب لمحبتهم له ، فذهب إلى سورية وفيها وجد جموعاً كثيرة التفت حوله وكانت تزداد يوماً بعد يوم ، فذعر منطاش لهذا وبدأ يستعين الخليفة على إعلان الجهاد ضد السلطان المرتد ، وسرعان ما جمع جيشاً عظيماً وزحف على سورية ، فاشتبك الجمعان في معركة طاحنة قريباً من غزة ، وولت جنود برقوق الأدبار أمام منطاش فسار في أثرها نحو دمشق وخيل إليه أنهم

[سبتمبر ١٣٨٩ م]

هزموا ، ولكن اتيحت لبرقوق فرصة حسنة فسار في شرذمة قليلة إلى خيمة السلطان حيث كان يقيم فيها مع الخليفة فاستولى عليها وعاملهما بشفقة واحسان ، وانضمت إليه بسرعة جنود من كل النواحي .

وقد عاد منطاش من مطاردة أعدائه بعد فوات الوقت . واستمرت المعركة في اليوم التالي ولم تكن مجدية إذ ثارت زوبعة اضطرت منطاشاً إلى التقهقر نحو دمشق ، فأسرع برقوق إلى انتهاز الفرصة فولى وجهه شطر مصر وتقدم نحو القاهرة في قوى كانت دائماً تزيد ، ونقل معه حاجي الصغير وعامله بالشفقة والرحمة . فرأى الشاب أن يتنازل عن العرش لبرقوق وأعلن في المعسكر أن برقوقاً أصبح سلطاناً ثانية . وفي تلك الأثناء كانت القاهرة في هياج محزن وخوف وتذمر . ولم يكد يعلن خبر اقتراب برقوق حتي انقلبت المدينة إلى أفراح عظيمة وأدخلوه إلى قصره جذلون ، وأفرد لحاجي الذي ركب بجواره في الاحتفال مسكناً في القلعة فعاش فيه عدة سنين هادئاً راضياً محمود السيرة . [١٣٩٠ م]

ولما رأي برقوق أن الحظ قد أعاده إلى عرشه أخذ يعمل كل ما من شأنه أن يرضى رعاياه فأغدق الهبات على من حوله حتى أعدائه الأقدمين ، ولم يكن يدفعه إلى هذا مجرد العطف والشفقة ، بل أن الأحوال هي التي اضطرته إلى هذا الإحسان إذ كان غير مستيقن من موقف سورية نحوه . على أن الأمور لم تسر سيراً حسناً مع منطاش هناك ، فأنه بعد أن أضاع دمشق تركه معظم جنده وانحازوا إلى السلطان ، ولكنه لم يعتم حتى جمع جيشاً آخر اندمج فيه بسرعة ـ عدا مماليك بيت قلاوون ـ التركمان والبدو ، وقد ناجز به يلبغا قائد جيوش السلطان في سورية . ونشبت بين الفريقين لدى «سلمية» معركة دموية غير حاسمة ، واستمرت الحرب على هذا الوجه حتى شك برقوق في إخلاص يلبغا فصمم على الخروج بنفسه إلى الميدان . وقيل أن يبرح القاهرة غلبت عليه طباع المماليك الوحشية فعذب بلا رحمة كل من

اشتبه فيه وأودى خاصة بحياة الكثيرين من أصحاب منطاش الذين مثل بعدد كبير منهم أقبح تمثيل[1] .

[يناير ١٣٩١ م]

وقد استقبل برقوق في دمشق استقبالاً عظيماً لأنه أعلن هنالك ـ كما اقتضت الحال وقتئذ ـ العفو عن الناس مهما كانت ذنوبهم . ثم سار شمالاً نحو حلب ، وكان منطاش قد ذهب في هذا الوقت إلى البدو ، فاستاء السلطان من يلبغا لسوء خطته معه حتى أنه حين عاد إلى حلب قبض عليه وعلى كثير من محبيه . وقد اضطهد كذلك في دمشق ، ضارباً صفحاً عن إعلان العفو ، وفي القاهرة بعد عودته إليها كثيرين من الأمراء الذين كان يخشاهم وبخاصة أصدقاء يلبغا فقبض عليهم وعرضهم على أعين الناس فوق الجمال ثم قتلهم . أما منطاش فقد استمر في مناوشاته على الحدود سنتين حتى خانه حليفه رئيس البدو ـ وكان السلطان قد رشاه ـ فسلمه إلى عيون حملوه إلى حلب حيث انتقم منه على خيانته تعذيباً بالكى حتى فاضت روحه وهو في شدة الألم ، وبعد أن طيف برأسه في كل سورية جيء به إلى القاهرة وعلق على باب المدينة أياماً ثم سلم لأرملته لتدفنه .

[ديسمبر]

[١٣٩٣ م]

[م]

وفي العام التالي اتهم عالم شريف من سلالة سيدنا علي بأنه يأتمر هو والعرب برجوع مصر وسورية إلى سلالة النبي ، فقبض عليه هو وصديق له كان وعده بمنصب في الحكومة الجديدة ، وكويا أو ينبئا بأعوانهما فاعترفا بأنهما هما المسئولان وحدهما ، وزادا على ذلك ، بكل شجاعة ، أنهما إنما قاما بالواجب نحو الكتاب والسنة . ثم قضيا نحبهما في العذاب الأليم . والعجب أن محاولة رجوع السلطان إلى حكام وطنيين كانت قلما يفكر فيها

---

(١) توجد تفاصيل عجيبة لما سنه كمسبغا محافظ القاهرة إذ ذاك من القوانين الغريبة مع السيدات فانه حظر عليهن زيارة الجبانات أو الخروج جماعات في النيل . وقد بولغ قبل زمنه في اتساع ملابسهن حتى كانت اكمام القميص وبدنه ٧٢ ذراعاً من القماش في عرض ٣ ½ فأمر كمسبغا بنقص هذا المقدار إلى ٢٤ ذراعاً . ولما عاد الغى هذا القرار .

الساميون ، كما أنهم لم يفكروا من قبل في صد غارات مماليك الأتراك الذين كانوا لا يزالون يتدفقون على البلاد ويخضعون أهلها .

[يوليه ١٣٩٨ م] والتاريخ يزيدنا شيئاً يسيراً فوق ما تقدم من سيرة برقوق ، فحوالي انتهاء حياته حدثت مؤامرة خطيرة نستطيع أن نتبين منها خلق الأمراء القُلَّب والأخطار التي كثيراً ما قلبت عروش هؤلاء السلاطين : ذلك أنه قبض على مملوك لرئيس بيت المال المسمى علي بك وهو يتآمر مع جارية لكبير الأمناء الذي عاقب المؤتمر فضربه أربعمائة سوط فشكا علي بك هذا السلطان ، ولكن السلطان لم يستدع كبير الأمناء ليسأله عما زعمه لنفسه من السلطة ، فتغيظ الشاكي كثيراً لهذا الاحتقار وأسره في نفسه ثم آخذ يحاول الانتقام باغتيال برقوق فخبأ نفراً من المماليك في بيته لمباغته السلطان حين عودته من الاحتفال بفتح الترعة السنوي (جبر الخليج) ، ولكن برقوقاً قد عرف السر ، فترك موكبه خلفه قبل محاذاته بيت المؤامرة وركض مسرعاً بجواده إلى القلعة بدون أن يشعر به أحد ، وجاء بعده علي بك فوجد الطريق مسدودة فقبض عليه ، وبعد أن عذب ليعترف بشركائه في الجرم قتل خنقاً ، أما أصحابه فمع أنه لم تكن هناك بينة عليهم ، قد أمر بالقبض عليهم ، وبعد أن شهروا تشهيراً شنيعاً فوق الجمال قطعت رؤوسهم . ومن بين من سجن زوج ابنة برقوق لأنه كان صديقاً لعلي بك . ولما رأى برقوق أن سبباً واهياً كهذا السبب لم يكن ينبغي أن ينشأ عنه مثل هذا الخطر العظيم ندم على أنه أهمل تحذير زوجه له حين نصحت له ألاَّ يجعل كل اعتماده على مماليكه الجراكسة ، وكان أجدر به أن يعتمد على من حوله من المماليك الترك واليونان . وقد أثر فيه كثيراً الموقف الخطر الذي تجلى له ، فلم يجرؤ بعد على ترك القلعة .

وفي السنوات الأخيرة من حكم برقوق بدأ الشرق ثانية يهدد السلطنة : ذلك أن تيمور لنك[1] بعد أن اجتاح كل أواسط آسيا أمامه زحف بجنوده غرباً

(١) ولد تيمور لنك عام ١٣٣٦ ميلادية وهو ابن وزير جنكيز خان .

فأخرج أحمد بن أويس من بغداد ، ثم سار شمالاً فخرب آسيا الصغرى إلى شواطىء بحر قزوين ، ولكنه لثوران المغول في فارس رجع إليها مظفراً موقعاً المصائب المروعة في طريقه ، يشهد بها تلك الأهرام التي أقامها من الرءوس في همدان . وغزا مرة أخرى آسيا الصغرى ، وتوغل حتى بحيرة «وان» ، وهنالك دحر «بايزيد» زعيم قبيله قره قيون التركمانية ، ثم استعد تيمور عندئذ لتوجيه العاصفة نحو الدولة المصرية ، ولكنه عدل عن الرأى لعصيان آخر حدث في الشرق فنجت بذلك سورية مؤقتاً . ومع أن خسارة برقوق من تيمور كانت على الجملة قليلة ، إلا ما كان على حدود أرمينية ، فقد دارت بين الإثنين مراسلات شديدة ، ولذا أرسل طاغية المغول ، بعد أن استولى على بغداد رسولاً إلى القاهرة يذكر السلطان بالحروب القديمة التي انتهت بصلح «بوسعيد» وقد كانت فارس منذ ذلك الحين ممزقة ، فخضعت لسيف الفاتح العظيم . وقد قال تيمور من رسالة «لتكن منذ الآن العلاقات بيننا ودية» فلم يرد «برقوق» جواباً وخاف أن يكون الرسول جاسوساً فأمر بقتله . واستقبل برقوق في نفس الوقت أحمد بن أويس عدو تيمور ، الهارب إذ ذاك من بغداد ، استقبالاً ملكياً ، وأغدق عليه الهبات الملكية . وتزوج من ابنة أخيه ، ولكنه كان لا يزال مذعوراً . وبينما هو مشتغل بإعداد ما يقى سورية من غزو محتمل ، وصلته رسالة ثانية من تيمور تشبه في لهجتها رسالة «هولاكو» إلى الناصر ، تلك الرسالة الطويلة الحافلة بالآيات القرآنية . وقد أعلن الفاتح العظيم «الذي أرسله الله لينتقم من الظالمين في الأرض» سخطه على القاتل الشرير الذي فتك برسوله . أما السلطان فقد قال في رده عليه باحتقار : «رسول الشر الذي له نار جهنم» وفي منتصف العام التالي خرج برقوق في جيش إلى سورية لمساعدة أحمد على استرداد بغداد . واستمر في سيره من دمشق إلى حلب ، وهناك استراح بضعة أشهر . ولما وجد تيموراً سار شمالاً عاد هو إلى القاهرة . وكان برقوق في أيامه الأخيرة مزعزع المركز كما رأينا في مؤامرة علي بك ، فكان اهتمامه بالشئون الخارجية قليلاً . ثم قضى نحبه قبل أن يرجع تيمور نحو الغرب ثانية وأصاب برقوقاً

في خريف عام ١٣٩٨ مرض انزلاق البطن واستمر معه حتى أماته ، وقبيل موته في منتصف عام ١٣٩٩ عين «فرجاً» ابنه من أم إغريقية خليفة له ، وجعل معه كبيرى امرائه «تغري بردي»[١] و «أطمش» مستشارين . وكان موته في سن الستين بعد أن حكم أحدى وعشرين سنة بين سلطان وأمير ، وخلف وراءه عدة أولاد وبنات . وقد كان يميل إلى الإسراف ، ومع هذا ترك وفراً من الأموال .

وكان لديه نحو خمسة آلاف من المماليك ، وخيول فاخرة ، وكل ما تستلزمه فخامة قصور ملوك الشرق .

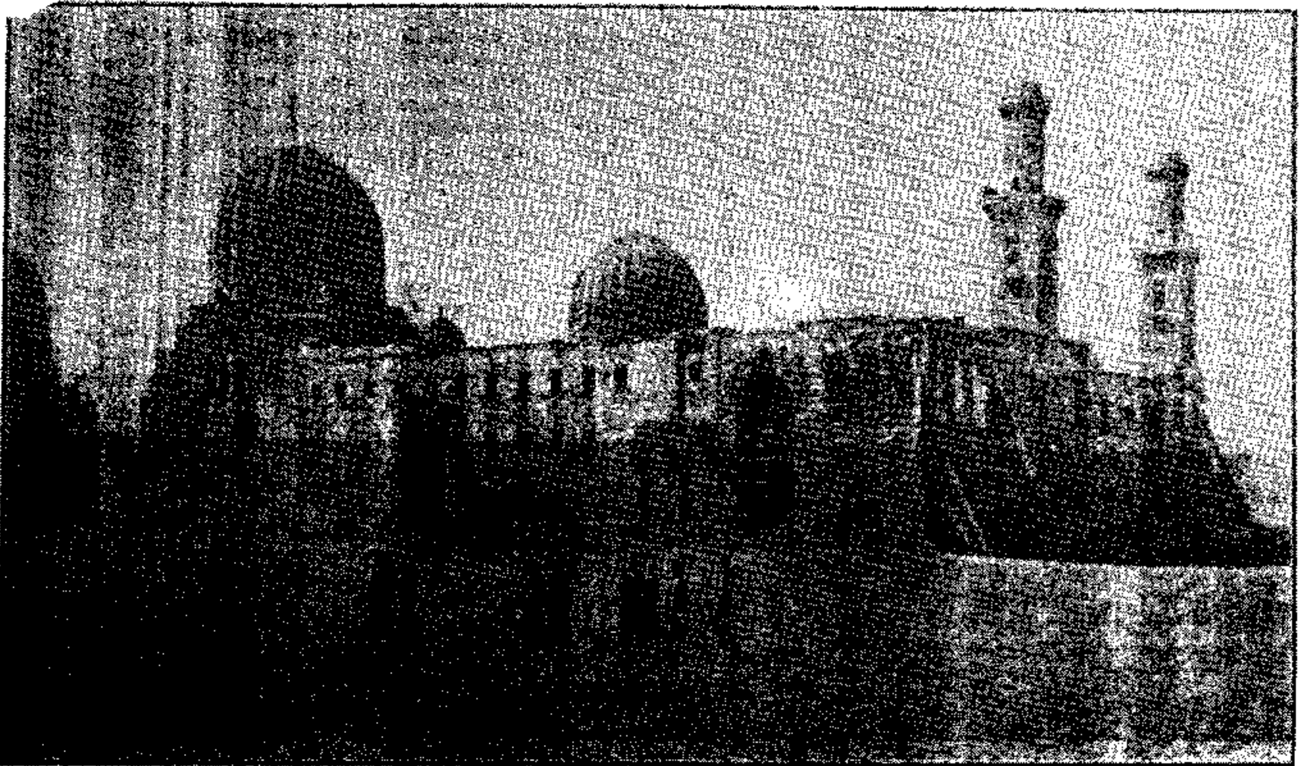
وإذا امتدح برقوق باعتباره حاكماً قادراً عاقلاً محسناً ـ ما لم تتغلب عليه شهوة الغضب أو الانتقام ـ ومؤسساً لكثير من المعاهد العامة ، ومصلحاً ، فهو كذلك يذم لأنه فظ قاس محب لسفك الدماء كلما دفعته مقتضيات الأحوال إلى الغيرة والحسد[٢] .

وقد قضى حياته في تخوف ليس من تيمور فحسب بل من أسرة العثمانيين أعداء السلطنة المصرية الجدُد والقاضين عليها فيما بعد . وإذ كان الجزء الباقي من موضوعنا يتوقف كثيراً على هذه الأسرة العثمانية أرى أن أورد هنا تاريخ نهوضها إجمالاً ، وأذكر المكانة التي شغلتها في العصر الذي نتحدث عنه ولهذا سأقصر الفصل الآتي عليها .

---

(١) تغرى بردي هو والد أبي المحاسن المؤرخ .

(٢) لا يزال القبر الذي بناه لنفسه قائماً خارج القاهرة . ومن أعماله العامة الكثيرة قنطرة أقامها على الأردن .



مقبرة برقوق

الفصل الحادى عشر
الأسرة العثمانية

كان مهد العثمانيين في الطرف الشرقي لأواسط آسيا فيما وراء نهر «جيحون» حيث كان التركمان والسلاجقة من زمن بعيد يفدون نحو الغرب باغراء الخلفاء العباسيين ، وكان يأتى في أثرهم من حين الى حين قبائل من بنى جنسهم ، يساعدونهم ويشاركونهم في الغنائم . ومن بين هذه القبائل قبيلة «الأغوز» الذين تبعوا السلاجقة في القرن الثالث عشر . فمنحوا أراض في آسيا الصغرى مقابل خدماتهم فأقاموا فيها حوالى أنقرة . ومن ذلك الحين إلى أواخر القرن الثالث عشر كان زعيمهم «أرطغرل» يمهد لنفسه الطريق متقدماً نحو شواطىء البسفور ، ولما مات هذا خلفه ولده «عثمان» الذي وسع ووطد حكم العثمانيين وصار سلطاناً مستقلاً على غربى آسيا بعد سقوط السلاجقة . أما ابنه «أورخان» فقد جعل قاعدته الرئيسية «بروسة» فكان قربه من العاصمة البيزنطية مهدداً لها .

وكان الجزءُ الشرقي من آسيا الصغرى لايزال بعضه تابعاً لرؤساء التركمان الذين منهم قبائل «قره قيون» و «آق قيون» ، وكان في بلاد آسيا الصغرى عدد من الولايات الصغيرة من بقايا امبراطورية السلاجقة اندمج تدريجاً في السلطنة العثمانية في هذا الوقت . ورغم تزوج «أورخان» من ابنة القيصر ظهرت العداوة بين الإثنين فعبر السلطان العثمانى البسفور في منتصف القرن الرابع عشر ، واستولى على «غليبولى» وتقدم في الأراضى الأوربية

بسرعة . وقد زاد على هذا خلفه «مراد» فتقدم غرباً وجعل حاضرته الغربية فيليو بوليس ، ومع أنه قتل ذبحاً في محاربته القيصر بقيت السيادة العثمانية وطيدة في جزء كبير من الشواطيء الأوربية . ولما جاء بايزيد نفذ الخطة نفسها بعزم واخلاص . ولما خضع القيصر له سير جيوشه إلى حدود المجر حيث انتصر نصراً مؤزراً في معركة «نيقو بوليس» . ولما عاد إلى الشرق شغل [١٣٩٦ م] جنده بالضرب على أيدى من خرجوا عليه حين غيابه في أوربا . ووسع أملاكه حتى امتدت من البسفور و «قيسارية» الى «سيواس» و «توقات» شرقاً وشمالاً .

ولو كان «برقوق» انضم إلى جانب هذا الأمير الغازى وساعده بجنوده المصرية والشامية لاستطاعا معاً أن يقضيا على تيمور في الحرب ، وينجيا بلادهما من الخطر الداهم[١] ولكنه خشى بايزيد وبقى محايداً مخافة أن تغير الجنود العثمانية على حدوده ولهذا تمكن تيمور أن يضرب كلاً منهما منفرداً . واذا صرف النظر عن غريزتى «تيمور» و «بايزيد» الحربيتين فان الأسباب المؤدية إلى وقوع العداوة بينهما كانت متوافرة وكان كلاهما لا يتأخر عن الترحيب بأتباع الآخر الثائرين عليه ـ مثال ذلك أن «أحمد بن أويس» الذي طرد من بغداد ، وجد صدراً رحباً لدى العثمانيين ، وكذلك كانت الحال مع أمير «أرزنجان» وغيره ـ وهذا الموقف العدائى جعل تيمورا يخاطب بايزيد بتلك اللهجة الخشنة التي هي سجية لغزاة الشرق ـ فقد كتب إليه يقول «أن الحمامة قد تقاتل العقاب ، وأن النملة قد تقاوم منسم الفيل ، وهذا مثلك فيما تفعله من وقوفك أمام فاتح الدنيا» وغير ذلك[٢] مما جعل بايزيد يرد عليه بنفس اللهجة الشديدة الوقحة . ولكن عندما انقضّ تيمور على آسيا الصغرى ودمر «سيواس» وما جاورها مرتكباً القتل الشنيع ـ تلكأ

---

(١) كان تيمور يقول أن بايزيد قائد قادر ولكن جنوده رديئون في حين أن مصر وسورية كانت جيوشهما حسنة إلا أنها سيئة القيادة .

(٢) ذكر جبون جزءا من هذه الرسالة في الفصل الخامس والستين من كتابه .

العثماني وراء البسفور لمحاصرة القسطنطينية ، فلم تشتبك الجيوش بعضها مع بعض لأن تيموراً بدلا من أن يزحف غرباً ، سار بغتة إلى الجنوب فانزل غضبه بسورية ودمشق ، ثم عاد إلى الشرق عن طريق حلب فجعل بغداد ثانية اطلالاً ، ثم قضى الشتاء في «تبريز» . وقد ساء تيموراً من بايزيد حسن معاملته لتابعه صاحب أرزنجان فجمع جيوشه من جورجيا وفارس وحشدها في آسيا الصغرى ، وعند ذلك طرأت أسباب دعته إلى طلب الصلح فدارت المفاوضات فرفض بايزيد طلباته مغضباً وطلب إلى خصمه القتال فتلاقيا قريباً من «أنقرة» ، فهزم بايزيد لهرب جنوده وأسره ، ويقال أن تيموراً حمله معه في قفص من الحديد[1] ولم يكن في مقدور خلفه «محمد الأول» في هذا الوقت الاّ أن يحتفظ فقط بالجزء الشمالى من آسيا الصغرى أما باقى المملكة فقد أرجعه تيمور إلى رؤساء القبائل الصغيرة . ولما ضعفت الدولة العثمانية إلى هذا الحد أمنت مصر جانبها مدة ، ولكنه لم يمض وقت طويل حتى استردت كل أملاكها بين البحرين ، الأبيض المتوسط والأسود ، واتخذت نحو مصر ذلك الموقف العدائى الذي كانت نتيجته القضاء على سلطة المماليك . بهذه المقدمة القصيرة يمكن أن تستأنف الآن علاقة تيمور بمصر وسورية .

---

(١) يشير «ويل» في كتابه إلى هذا القفص الحديد إشارة معقولة ويخرج من اشارته إلى نفس النتيجة التى ذكرها جبون (في صحيفة ٩٦ من المجلد الخامس) . يقال أن تيموراً عامل بايزيد معاملة حسنة إلى ان حدث أنه حاول الهرب فجعله يتبع جيشه في شيء يشبه المحفة المحاطة بقضبان حديدية مثل القفص وذلك محافظة عليه .

الفصل الثاني عشر
السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق
١٣٩٩ ـ ١٤١٢ م.

نرجع الآن إلى القاهرة : لم يكن يتجاور فرج بن برقوق الثالثة عشر من عمره عندما تولى الملك في وقت سيىء مملوء بالنزاع في مصر ، وبالفوضى والمظالم في سورية وقد ذعر المصريون في بادىء الأمر لإغارة بايزيد على «ملطية» وغيرها من بلدان الحدود ولكنه ارتدَّ عنها قبل أن يرسل إليه جيشاً لمقاومته . ولما رأى السلطان أن دمشق ومدن سورية خلعت طاعته بحجة انه قاصر ، استدعى رجال الشرع فأقروا تثبيته في مركزه ، غير أن هذا لم يصلح الأحوال بل صارت الخيانات خطيرة . وأغلقت أبواب القلعة في وجه نائب السلطان و «تغرى بردى» . وبعد أن نشبت الحرب بينهما وبين جند السلطان هزما وهربا إلى دمشق التى كانت هي وباقى مدن سورية مضطربة بالفتنة وممزقة بالفوضى . وأخيراً زحف السلطان الصغير في جيش قوى وضرب على أيدي الثوار وأعاد السلم إلى نصابه بعض الشيء ، وعذب حاكم دمشق عذاباً طويلاً باعتباره قائداً للثوار ، وللحصول على ثروته ، ثم قتله خنقاً . وحزت رؤوس أربعة وعشرين من الحكام المتمردين وعفى عن آخرين . وكان من بينهم «تغرى بردى» وذلك لتوسط والدة السلطان له لأنه من سلالة اغريقية .

[يونيه ١٣٩٩ م]

[اكتوبر]

[ابريل ١٤٠١ م]

وكان هذا في الوقت الذي وجه فيه تيمور ـ بعد غزوته الأولى لآسيا الصغرى ـ جيوشه جنوباً نحو سورية (كما ذكرنا في الفصل السابق) التى

[الخريف]

حينما شعرت بذلك قامت تستعين مصر وتستصرخها . ولكن كل ما أمكن عمله في تلك اللحظة أن أُخبر الحكام أن يبذلوا جهدهم دفاعاً ن أنفسهم . وقد طلب إليهم تيمور أن يطلقوا سراح تابعه «أطلمش» زعيم «وان» وأن يعترفوا له بالسيادة عليهم . فما كان جواب القوم الأَّ قتل الرسل ، عند ذلك انقض تيمور على سورية انقضاض العاصفة ، وهزم الأمراء الذين كانوا قد تجمعوا في حلب للدفاع عنها . ففرَّ منهم فريق إلى دمشق ودخل آخر المدينة التي بقيت ثلاثة أيام مسرحاً للقتل والفظائع . ومن ثم أخذ يتنقل الفاتح من مدينة إلى أخرى مخرباً مدمراً ، فذعرت القاهرة ، وانتشرت أخبار بطش تيمور وانتقامه إلى صفوف الجيش الذي وصل به السلطان إلى دمشق في الوقت الذي كان ينتظر فيه وصول تيمور ، فتلا ذلك عدة مناوشات رجحت فيها كفة المصريين بمساعدة العرب لهم . وقد بقي الجيشان مرابطين مدة بجانب دمشق حتى بدأ تيمور ـ رغبة منه كما يظن في تجنب شتاء سورية ـ يدخل في دور مراسلات ودية مع السلطان ، فوعده بتسليم «اطلمش» والاعتراف بسيادة الخان (ايل خان) فتظاهر تيمور بالقناعة بهذا ، وبدأت الجيوش المملوكية تنسحب فانقض المصريون على مؤخرتها فصُدُّوا ، وعند ذلك رجع تيمور وعسكر بجانب المدينة . وفي هذه الآونة قام حزب من الأمراء يأتمرون بالحكومة وذهبوا خفية ليولوا غير «فرج» وليستولوا على القلعة العزلاء فجد السلطان في أثرهم تاركا سورية للأقدار .

[ديسمبر]

وقد سلم الجيش المصري تدريجاً ، فسقطت القلعة بعد حصار شهر وأسلم تيمور المدينة للحرائق والنهب . وكانت دمشق «باعتبارها قديماً مقراً للخلافة الأموية» مبغضة إلى ذلك الشيعي المتعصب . ولكن الذي هاجه أكثر من هذا كتاب وصله من السلطان يذكر فيه أن سفره لم يكن للخوف منه ، بل لسبب آخر ، وهدده بالعودة إليه والفتك به كما يفعل الأسد المهيج . تركت المدينة التعسة كومة من التراب بعد أن أسلمت أسابيع للحرق والسلب . ثم رحل تيمور وحمل معه عدداً من العلماء والصناع والمهندسين والعمال إلى

[٠]

«سمرقند» . وكان في عودته عن طريق «حلب» ينهب ويخرب . ولما وصل إلى بغداد ـ وكانت قد رجعت إلى أحمد ـ صب عليها جام غضبه حتى تركها مغطاة «بأبراج من جثث الموتى» ثم قام بغزوته الثانية على الأناضول وفيها (كما رأينا) أسر بايزيد .

وفي أواخر العام التالى أرسل وفداً إلى القاهرة (مهدداً بالعودة) يطلب خضوع مصر وإطلاق سراح أطلمش . ولما كانت الشئون الداخلية شاغلة [١٤٠٢ م] للسلطان بادر بفك أسر السجين ولم يكتف بهذا بل أرسل هدايا غالية فتقبلها تيمور ، وأرسل بدلها فيلاً وأحجاراً كريمة وملابس ثمينة . ثم أن تيموراً طلب أن يقتل «أحمد» و «قره يوسف» التركمانيان المسجونان إذ ذاك في سورية فوافق «فرج» في الحال على هذا . غير أن سورية في هذا الحين لم يكن للسلطان عليها نفوذ تام ولذا سرحهما حاكم دمشق بدل أن يقتلهما . ولموت «تيمور» عقب هذا مباشرة لم يحدث جديد . [١٤٠٥ م]

نعود بالقارىء إلى الوقت الذي ترك فيه «فرج» «تيموراً» أمام دمشق [يناير وأسرع بالعود إلى القاهرة : قد انتكث فتل الائتمار ، وقد بذل كل مجهود ١٤٠١ م] حينذاك لتجنيد جيش آخر لمحاربة الجيش المغولى ولكنه كان قد ارتحل ، فلم يتطلب الأمر عملاً آخر . وفي خلال السنوات القليلة التالية كانت العاصمة مسرحاً لسوء النظام المخيف بقيام بعض أحزاب من الأمراء على بعضها ومحاصرة القلعة مراراً وقد استقلت سورية أيضاً منذ ارتحال تيمور عنها . فحاول فرج أن يستعيد نفوذه فيها ولكنه اضطر إلى التقهقر أمام الثوار . فتبعوه وهاجموا العاصمة . ولكنهم حسب عادتهم تنازعوا فيما بينهم ففشلوا وصدوا عن العاصمة ، وعاد إليها بعض السلام . في هذا الحين هدد «فرجا» خطرٌ جديد . وذلك أن المماليك الجراكسة قد وجدوا [مايو ١٤٠٥ م] على السلطان لمعاقبة بعض أمرائهم ، ولما رأوه منه من اكرامه للاغريق وخاصة تغرى بردى ، فأتمروا به . وبينما هو «فرج» يلهو مع مماليكه في حمامه . أمسك به أحدهم مدة طويلة تحت الماء حتى كاد يموت غرقاً لولا مساعدة مملوك اغريقى . ولما توقع قيام ثورة جركسية هرب بليل ،

واستخفى في بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه فرفع الجراكسة عند ذلك أخاه «عبد العزيز» إلى العرش ، وتحالفوا مع أمراء سورية . ولكنهم جميعاً غالوا في عداوتهم ، ولذا لما علم الحزب الآخر بأن «فرجاً» لا يزال على قيد الحياة ، هاجمهم . وبينما تدور رحا القتال لدى مدخل القلعة الكبير ، ظهر فرج ثانية ودخلها هو وشيعته من باب آخر وأخذ أعداءه من الخلف ، فتم له النصر عليهم بدون كبير عناء ، وهكذا استرجع فرج مكانه بعد فترة شهرين أو ثلاثة ، وسُجن «عبد العزيز» وأخ آخر له في الاسكندرية ثم قتل هناك مسموماً .

[ديسمبر ١٤٠٥ م] بلغ «فرج» الآن سن الرشد فحكم بعد ذلك نحو سبع سنين لم يصف له فيها الملك ولم يذق فيها لذة الحكم من جراء مشاحنات الأمراء في الداخل ، وعصيان الحكام في الخارج ، ولكي يستعيد نفوذه في سورية ، كان يقود الحملات إليها كل عام ، غير أنه ، حتى بعد قهره خصومه ، كان ضعيفاً لدرجة أنه لم يستطع ردهم إلى النظام ثانياً ، فخرجت من يده السلطة الملكية كلية ، ثم انتصر الأمير «جكم» على معظم جهات سورية ، فنال لقب سلطان وما يتبعه من الأبهة ، ولكن هذا القائد الطموح قتل في محاربته «قره يلك» ذلك الزعيم التركماني ، الذي اعتدى على حدود سورية ، فصارت سورية حينذاك في قبضة أمراء آخرين ، لا نرى فائدة في سرد حوادث نهوضهم وسقوطهم ومنازعاتهم الأخرى . دخل أحد هؤلاء المسمى «شيخ» الديار المصرية وهاجم القاهرة وحاصر القلعة ولكنه فر عند اقتراب الجيوش منه ، ومع قتاله وعصيانه سنتين ، عفى عنه بل منح أيضاً حكومة طرابلس . وقد انغمس «فرج» في الموبقات واشتهر بالرذائل فكان في بعض نوبات غضبه
[١٤١ م] يقتل بيده أحياناً الأمراء الذين يرتاب فيهم والمماليك الذين حوله .

ولقد أرسل «فرج» مرة في طلب مطلقة له ، فلما جاءت إليه وثب عليها وقطع رأسها وقتل زوجها[1] . وفي إحدى سياحاته في الوجه البحري

---

(١) يروي عنه أنه كان يقتل «بالدسته» ومترجمو حياته يعتذرون عنه بأنه لم يفعل ذلك إلا =

ارتكب من المظالم والإرهاق ما أدى إلى قيام ثورة في الاسكندرية . وفي تلك الأثناء لم يفق من جنونه إلاّ بقيام ثورة جديدة في سورية وذلك أن أميرين كان قد عفا عنهما ، وهما «شيخ» و «نوروز» عصيا ووقفا موقف المستقل الخارج عن طاعته ، فخرج فرج في الحال إلى سورية وكانت سابعة حملاته عليها ، ولكنه وهو في الطريق بدأت جنوده تهجره . وبالرغم من هذا ومن نصيحة «تغرى بردى» له أبي هذا الأمير الطائش إلاّ أن يسير جيشه المتعب المنتقص إلى «بعلبك» وعندها وقعت معركة هزم فيها وجرح ، ففر إلى دمشق حيث رجاه صديقه «طمرطاش» (كان تغرى بردى قد مات قريباً) وفي الوقت فسحة أن يسرع في العودة إلى القاهرة ، أو أن يطلب المساعدة في حلب ممن حوله من التركمان ، فرفض فرج ذلك وتقدم «شيخ» مظفراً فكان عند ذاك تحت رحمته تماماً . ولما كان «طمرطاش» قد اعتصم بالقلعة نصح لفرج أن يهرب معه تحت جنح الظلام ولكنه تلكأ طويلاً حتى اضطر صاحبه أن ينجو بنفسه تاركاً إياه ، فلم يبق حينذاك إلاّ التسليم ، فأذعن إليه بميثاق وثيق وهو أن يكون آمناً على حياته . وعلى هذا استقبل في أول الأمر بالتكريم . ولكنه عزل بالإجماع لحياته الشريرة وظلمه ، وطرح في السجن فدخل إليه ليلاً واحد من طائفة الفدائيين وطعنه فقتله . وقد مزق جسده [٢٣ مايو] وألقى به إلى مزبلة ، وبعد يومين أو ثلاثة دفنه أحد الأهالي في الليل سراً .

ولقد كانت مدة حكمه تعساً وشقاء ، فأن فظائع تيمور ، ودوام الثورة في القاهرة ، واستمرار أمراء سورية في مشاحنات لا تنتهي فيما بينهم أو بينهم وبين السلطان ، كل هذا مع ما منيت به البلاد من الوباء والقحط أنقص

= بعد احتمال كثير . ولكن أي حالة من حالات المجتمع تخلو من هذا ! .

لما جاءت هذه الطالق ، إجابة لطلبه ، تبعها وهي تجري جريحة صارخة . ثم حز رأسها ولف جسدها في ملاءة واستدعى زوجها وسأله عن معرفته إياها ، ثم هجم على الرجل المذكور وقطع رأسه أيضاً ثم أمر بدفن الجثتين معاً . هذه قصة مروعة لأن الإثنين لم يرتكبا خطأ ينكره الشرع أو العرف بزواجهما ، وخاصة بعد أن طلقها السلطان .

السكان «كما يقال» إلى نحو ثلث عددهم ، وجعل الحياة عبئاً ثقيلاً . ولا حاجة بنا إلى ذكر مهاجمة الفرنجة للإسكندرية واغارتهم على شواطىء سورية بجانب الارتباك الحاصل إذ ذاك[1] .

واكثر من هذا شناعة في نظر رجال الدين أن فرجاً ضرب سكة للملكة وجعل عليها صورته فكان هذا في نظرهم احتقاراً للشريعة . ويعزى إليه وحده من بين الأسرة الطويلة من طغاة مصر سوء الحكم الذي كان ظالماً قاسياً مخالفاً للشرع .

---

(١) في عام ١٤٠٣ نهب الفرنجة الإسكندرية ، وفي عام ١٤٠٤ نهبوا طرابلس . وبعد قليل نزلت الجنود في أسطول قبرسي عدده أربعون سفينة إلى بيروت فأحرقوا المدينة وخربوا البلاد إلى صيداء وطرابلس .

الفصل الثالث عشر

الخليفة الإمام المستعين بالله والسلطان أبو النصر شيخ المحمودي

١٤١٢ ـ ١٤٢١ م

عقد «شيخ» مجلساً في دمشق (وكان فرج لا يزال بالقلعة) فولى «عباس» الخليفة الذي كان مع الجيش سلطاناً على كره منه ، لأنه علم أن ليس لغير تركى أن يحكم ، وأن هذا ليس إلاّ تدبيراً غير دائم دعت إليه الحاجة ، فاشترط لقبولها أنه أن خلع من السلطنة يجب أن يحتفظ بالخلافة . وكان لخبر ارتقاء الخليفة «المستعين بالله عباس» إلى أريكة الحكم رنة فرح وسرور في أرجاء دمشق ، والواقع أن تلك كانت فرصة غريبة لأنها أتاحت لخليفة المسلمين ، الذي أهمل أمره من زمن بعيد ، أن يتوج (ولو اسمياً) وقد فرح تقاة المسلمين ـ الذين توقعوا لغرارتهم استمرار هذا الحكم ـ لانتعاش الخلافة وعودة السيطرة إليها كما كانت في الزمن القديم .

وسرعان ما تبين لهم خطؤهم لأنه لدى عودة الخليفة السلطان إلى القاهرة عومل كما يعامل التابع للحكومة ، وفي الواقع سجن في القلعة ، في حين أنه استولى على أزمة الأمور «شيخ» و «نوروز» معاً ، ولكن سرعان ما أغرى «شيخ» الماكر صاحبه أن يطلب الإمارة على «سورية» وبهذا حصل هو على نفوذ مطلق في البلاد . وقد ثار ثائر البدو بعد ذلك بقليل فانتهزها أصحاب شيخ فرصة ، وقاموا يطلبون وجوب تعيينه سلطاناً على البلاد لصالحها وصالح الحكومة ، وعلى هذا خلع «عباس» لا من العرش وحده بل

من الخلافة أيضاً ، وأرسل مع أبناء فرج أسيراً إلى الإسكندرية ، وأقاموا أخاه «داود» خليفة مكانه وقد بقى في سجنه حتى أخرجه خلف «شيخ» فعاش في عزلة .

أعلن «شيخ» حينئذ أنه السلطان وتلقب بالسلطان «الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى» . وكان برقوق قد اشتراه من نخاس جركسى بثلاثة آلاف دينار فارتقى سريعاً من مملوك في القصر إلى قائد الحجيج ، فأمير على ألف . ثم عين حينذاك حاكماً على طرابلس . وبعد ذلك (كما رأينا) وصل إلى العرش بوساطة الثورة والقتل . ولما علم «نوروز» بارتقائه إلى السلطنة قام يقود سورية والأمراء الآخرين الذين أقروا الاعتراف بحق الخليفة المقدس ، وأعلن حرباً مقدسة على من خلعه ، وقد انحاز «طمرطاش» وابنا أخيه إلى جانب «شيخ» وكانوا عوناً له على هؤلاء ، ولكن «شيخ المؤيد» خاف هؤلاء الثلاثة كثيراً لأنهم كانوا قواداً ظاهرين في الثورات الحديثة ، ومكر بهم ، منكراً فضلهم ، واستدعاهم لسبب كاذب إلى القاهرة حيث قتلهم ثم صاح فرحاً قائلاً «انى الآن سلطان حقيقى بعد التخلص من هؤلاء الثلاثة» . وبعد أن تخلص «شيخ» من كل من كان يخشاهم في مصر بوسائل السجن وغيرها زحف على دمشق فهزم «نوروز» الذي احتمى بالقلعة ثم ألقى يد السلم إلى شيخ بموجب قسم عظيم أنه سيبقى عليه ، وشهد عليه القضاة وكبار الموظفين . ولكن بالرغم من هذا لم يلبث بعد ظهوره أن طرح في السجن بحجة غير مناسبة هي أن لغة القسم لم تفهم على حقيقتها ، ثم في السجن وعلق رأسه على باب القاهرة فثار ثانية خلفه هو وحكام سورية الآخرون ، ولكن قائد قلعة دمشق بقى ثابتاً[1] فلم تُجْد مقاومتهم نفعاً وهزموا . وفي قابل زار السلطان سورية فأمر بذبح الحكام المتمردين على مرأى منه . فكانت نتيجة شدته هذه ، وقبضه بيد من حديد على ادارة بلاد سورية ، التى أشتى فيها أن عاد السلام إلى نصابه في كل الولاية . وبعد قتل

[مارس ١٤١٤ م]

[يونيه]

[١٤١٥ م]

---

(١) كانت القلاع في كل أرجاء سورية في يد قواد مستقلين عن حكام المدن .

«نوروز» زار «شيخ» خلوة الصوفيين السيراقوزيين وشهد حلقات ذكرهم الدينية وفيها ندم ، على ما يقال ، على حنثة في يمينه .

بدأت الأناضول تسترعى نظره ثانية . ذلك أن «محمداً الأول» كان [١٤١٧ م] وقتئذ يسترد الاقليم الذي انتزعه تيمور من أبيه . ولكنه كان في تلك الأثناء مشغولاً كثير الاهتمام بما وراء البسفور . وكانت المعاقل التى على الحدود الأرمينية قد خلعت نير الطاعة المصرية أثناء الثورة في سورية . ولهذا خرج [الربيع ١٤١٨ م] «شيخ» في ربيع عام ١٤١٨ وبرفقته الخليفة[١] وقاضى القضاة وزحف بجيش قوى من حلب . فاسترد «طرسوس» والاقليم الذي تمرد . ثم زار بيت المقدس والأمكنة المقدسة (خاشعاً) موزعاً الصدقات ثم عاد مظفراً إلى حاضرة ملكه .

وفي خريف ذلك العام نفسه ، أغار «قره يوسف» على سورية ففزع أهلها . ولا يعزب عنك أن هذا الرئيس هو و «أحمد بن أويس» لما كانا سجينين في سورية أطلقاً من سجنهما حوالى موت تيمور . وقد استرد أحمد بغداد ، ولكنه لما زحف بجيوشه شمالاً هاجمه «قره يوسف» وذبحه ، وجعل نفسه زعيماً لجيوش «قره قيون» ونال انتصارات باهرة في الكردستان . ثم اشتبك مع قره يلك عند قلعة الروم فتغلب عليه واقتفى أثره إلى سورية فذعرت ، وهجر الناس حلب . وقد وصل الذعر حتى القاهرة . وتفاقم الخطب فترك السلطان الأمر الذي كان مهتماً به وهو الحج إلى مكة . وكان يتجمع الجيش لصده ، فوصلت الأخبار بأن قره يوسف ارتد على أعقابه[٢] . ومع ذلك خرج عن حكم مصر الجزء الشمالى من سورية ، [١٤١٩ م]

---

(١) نجد الخليفة في هذه الأيام يتبع السلطان في حملاته الحربية هو وكبار ضباط القصر ولكنه ليس له من الأمر شيء ، اللهم ألا أن يبارك للجيش .

(٢) قد أحدث السلطان في ذلك الوقت تغييراً في النظام الحربي من شأنه أن يبين مركز المماليك فكان الجيش يتكون من (١) جنود نظامية تدفع لهم الحكومة و (٢) مماليك الأمراء المختلفين الذين كانوا يمدونهم من أقطاعاتهم و (٣) مماليك السلطان وأجورهم من الأملاك السلطانية وكان الأمراء قد بدأوا ينقلون جنودهم إلى صفوف =

واستولى تركمان آسيا الصغرى بمساعدة بقايا جنود «قره يلك» ، على الحدود واستردوا «طرسوس» . فأرسل عند ذاك إبراهيم أكبر أولاد السلطان لاسترجاع ما فقد ، فاسترجعه في غزوة عظيمة وتوغل في فتوحاته حتى بلغ «قيصرية» وأواسط شبه الجزيرة . ثم عاد في موكب حافل إلى القاهرة ، ومن ورائه جمع كبير من الأسرى . وقد توجته هذه الانتصارات بالشرف حتى أن أباه نظر إليه نظرة الحسد ان لم تكن نظرة الخوف وكان موته في العام التالي[1] أمارة شقوة ، لأن مصر هددها ثانية «قره يوسف» الذي طلب ارجاع الحلى الغالية التي أخذت منه عندما ألقى في غيابة السجن . وعلى هذا أرسلت قوة لصده . وفي ذلك الحين لم تحرك هذه الأخبار السارة السلطان الاّ قليلاً لأنه كان مريضاً قبل ذلك بمدة وعند غروب شمس حياته عين «أحمد» ابنه خليفة له . وكانت سنه سبعة عشر شهراً وجعل صهره «ألطونبغا» الذي كان لا يزال مع الجيش السورى نائباً . ولمخافة الهياج شيعت جنازة المتوفى وجهز الجهاز الأخير بشكل مزر جداً فلم يكفن صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة إلاّ في عمامة إحدى جواريه . وكانت سنة عند وفاته خمساً وخمسين سنة حكم فيها ثمانية أعوام ونصفاً . ويختلف المؤرخون في الحكم على أخلاقه . بالمقريزى شديد النكير عليه وأبو المحاسن معتدل[2] في حكمه . وقبل توليته العرش كان سبباً في حدوث

[مايو ١٤٢٠ م]

[يناير ١٤٢١ م]

= النظاميين قصداً في النفقات . فعلاجاً لهذا أعطى المماليك الخيرة في البقاء في خدمة مواليهم الأمراء أو في الإندماج في الجيش النظامي .

(١) يعزوه بعضهم إلى السم بتحريض من أبيه . وينكر هذا آخرون .

(٢) وأبو المحاسن بن تغرى بردي كان محببا في «البلاط» وهذا بلا ريب له أثر في الحكم على السلطان . وهو يقول أنه عندما ما كان صبياً (أي نحو عام ١٤١٤) ذهب إلى السلطان يوماً من الأيام وسأله شيئاً يأكله فأمر «شيخ» باعطائه خبزاً ، فقال الطفل «ان هذا طعام الشحاذين إعطنى لحماً أو دجاجاً أو فاكهة أو حلوى» فسر السلطان كثيراً وأعطاه ثلثمائة دينار ووظف له راتباً جارياً . وحياة (البلاط) التى تلت هذا ربما أدت إلى أخبار في غير صالح «شيخ» وخلفائه أقل مما نجدها في المقريزي والمؤلفين الآخرين .

كثير من الرزايا بقتله الأنفس البريئة وبالدسائس والثورة . ولكنه بعد أن جلس على العرش أعاد السلام إلى نصابه بثباته وشجاعته وحسن ادارته ، ورد السلام وشيئاً من السعادة إلى تلك البلاد المنهوكة الضعيفة . وهو لم يك مبرءاً من الخيانة ، يدلك على ذلك حنثه في يمينه في موضوع حادثة «نوروز» . أما القتل فكان في عهده أقل مما كان يرتكب في الأيام الخالية . والأمة كانت لا تزال تئن تحت الضرائب المرهقة . وليست تعوزنا الأمثال التى فيها هب الناس في وجه ظالميهم . فأخذوا لأنفسهم الحق وذلك بموجب قانون استثنائى سنه . وكانت النقود كثيراً ما يتلاعب بقيمتها . فاذا دخل الخزانة مال ابتدع حيلة لأخذه بأقل من سعر السوق ، وإذا خرج هذا المال للرواتب أو سد النفقات جعلت له قيمة أعلى . وذلك ليقل صرفه ويزيد ربحه .

ولئن استحق السلطان الثناء عليه لمعاضدته الطلاب ولأنه كان شاعراً موسيقياً لهو جدير بمضاعفة الثناء لورعه وتقواه . واللقب الملكى الذي اشتهر به هو «المؤيد»[1] . ولما أصاب مصر الطاعون لبس السلطان لباس الدراويش وخرج يتبعه الخليفة والقضاة وأمامهم الشيوخ وهم رافعون المصاحف ، واليهود والنصارى يحملون التوراة والإنجيل إلى ضريح برقوق ثم سجد على التراب وسجد الناس معه . وبعد هذا وزع الطعام الكثير على الفقراء . وشبيه بهذا أنه صام ثلاثة أيام وسجد لله متوسلاً إليه أن يرسل إلى البلاد ماء النيل ، وذلك في وقت عم فيه القحط والمجاعة . ولما دعا له أحد الناس بالبركة قال له : (لا تطلب معونة الله لى فأنى هنا لست إلا واحداً من عبيدكم[2]) .

---

(١) هذا اللقب يغلب عليه ويعرف به . وبه سمى المسجد الذي أسسه والذي لا يزال باقياً بالقاهرة إلى يومنا هذا . وقد بقى اللقب أسماً لجماعة مماليكه وأتباعه الذين سنسمع عنهم دائماً في النزاع التالي .

(٢) ذكر هذا المقريزي بعبارة متأثراً فقال (إن رجلاً كهذا كان في مقدوره أن يأتي بما هو أفضل من ذلك إذا كان رائده الإخلاص والأمانة) .

[١٤١٧ م] وفي خلال حكم هذا السلطان جدد الفرنجة الغارة ثانية على الاسكندرية وعادوا بأسرى كثيرين وغنائم ، ولعل هذا بعض الأسباب التى نفذت من أجلها على اليهود والنصارى إذ ذاك قوانين هي غاية في الصرامة[1] . ولم يكن ينتظر غير هذا من مسلم غيور على دينه . وقد كان من أعماله بناء مدرسة ومستوصف ، هذا إلى أنه هو الذي حول السجن الذي القى في غيابته سابقاً إلى مسجد ملكى .

سش

---

(١) مع تلك النظم القاسية قد حظر على اليهود والنصارى حينذاك أن يستخدموا المسلمين في أعمالهم .

الفصل الرابع عشر

أحمد ـ ططر ـ محمد ـ برسباى الأشرف

١٤٢١ ـ ١٤٣٨ م

[يناير ١٤٢١ م]

حمل الطفل أحمد بعد موت أبيه من الحريم وهو يصرخ ، ووضع على ظهر جواد ثم سار باحتفال إلى قاعة الاجتماع حيث حيي بالسلطنة(١) ولم تكن سنه تبلغ السنة ونصف السنة . وفي غياب الطونبغا قام ططر هو وأمير آخر كان يسميه «شيخ» بأنه نائب مؤقت ، واستولى على أزمة الأمور ، واستمال الجيش إلى جانبه باغداق الهبات عليه من الكنوز التى جمعها «شيخ» . وبوثبة واحدة أرسل كل من كان يخافهم مقيدين بالأغلال إلى الإسكندرية ، ثم أخذ بيد الطفل الصغير بأنه نائب السلطان . فقامت ثورة ضده في سورية : وانضم إليها اولاً «الطونبغا» الذي كان يعد نفسه النائب الحقيقي ، ولكنه في آخر الأمر خضع لططر . وانقلب على حاكم دمشق الثائر فجعله يفرّ أمامه ، وكان يوالى ططر بخبر انتصاره في حينه . ولما سافر ططر إلى سورية رحب به بلقب «نائب» عند دخوله دمشق . ومن غريب نكـران، ططر للجميل أنه قيده مع أمراء آخرين كثيرين كان يخافهم . وبعد

---

(١) قراءة القاب هؤلاء الأطفال السلاطين مما يستلله الإنسان فان الطفل الذي نحن بصلده شرف باسم «الملك المظفر» والذي بعده وهو ولد في سن العاشرة «الملك الظاهر سيف الدين» وقد امتنعت قصداً من تحميل هذه الصحيفة بالالقاب الجوفاء تعطى للسلاطين الأطفال مماليك الأمس ، كما هي العادة في الشرق .

زيارته حلب عاد إلى دمشق فارتكب فيها القتل ثانياً . وكذلك أسره «شيخ» . ولما أمن هذا الأمير الملطخ بالدماء المقاومة خلع الطفل أحمد واستولى هو على السلطنة . وفي الشهر الثاني عاد إلى القاهرة فاستقبل فيها بأفراح ظاهرية . وبعد ذلك بقليل مرض فعين ابنه محمداً «وهو طفل في العاشرة من عمره» خليفة له وجعل الوصى عليه «برسباى» الجركسي مثله ، وجعل النائب عنه «جانى بك» ، وقد مات بعد أن حكم ثلاثة أشهر[١] .

وقد بغى الأميران بعضهما على بعض كما كان متنظراً ، غير أن برسباى المستولى على القلعة قبض على «جانى بك» وعلى أعدائه الآخرين ، وأصحابه الذين يرتاب في أمرهم ، وسجنهم جميعاً في الإسكندرية . ثم ارتقى بمعاضدة حاكم دمشق إلى العرش بعد نصف سنة من موت «ططر» . [ابريل ١٤٢٢ م] وقد أخمدت أنفاس بعض الحزب المقاوم ونفى بعضه الآخر من الأرض ، فلم تبق هناك مقاومة . أما الصبى المخلوع فقد زوج وسمح له بالتجول في المدينة[٢] ، على حين قطع كل الهبات المعتادة التى كانت تغدق على مماليك السلاطين . ومما حبب «برسباى» إلى الناس اصداره مرسومات جديدة ضد اليهود والمسيحيين ، والسماح لكل من يقترب منه بتقبيل يده أو تقبيل ذيل ثوبه بدلاً من تقبيل الأرض كالسنة المتبعة من قبل[٣] .

[اغسطس ١٤٢٣ م] وقد انتشرت السكينة في أرجاء الأمبراطورية في خلال العام ونصف

---

(١) كان ططر مثل برسباى مملوكاً جركسياً لبرقوق وقد فكت رقبته وأدخله فرج إلى الجيش ثم انتهى به الأمر أن جعله «شيخ» أميراً وكان نخاسة علمه الفقه والقانون لأن المماليك العارفين بالآداب أو الدين أو الفلسفة أو الصناعة ، كانوا يباعون بأثمان عالية .

(٢) كانت أسر وأبناء السلاطين الغابرين إلى ذلك العهد يعطون مسكناً في القلعة ولكنهم من ذلك التاريخ نقلوا منها وسكنوا المدينة بعد .

(٣) الغى هذا الأمر ولكن بدلاً من تقبيل الأرض كما كانت الحال قبلا سمح لأي أنسان يتقرب من السلطان أن يمس الأرض بيده أولاً ثم يقبلها .

العام الذي تلا ذلك ، حتى وافى خريف سنة ١٤٢٣ . وفيه حدثت ضجة سببها هرب «جانى بك» من الإسكندرية من غير أن يعلم أحد مقره ، على رغم التعذيب والسجن اللذين أوقعهما بالناس ، وبقى مجهولا أمره مدة طويلة ـ ولكنا سنسمع الكثير عنه فيما بعد . كانت سورية في الوقت أقرب إلى الولاء منها في الماضي . والحق أن حاكم «صفد» قد ثار عند خلع ابن ططر ولكنه أرسل إليه السلطان وعداً كتابياً أقسم فيه أن يعطيه ولاية طرابلس فاستسلم . ولم يلبث الأمير المخدوع حين لبس ملابس الشرف وسلم القلعة حتى قبض عليه وقتل[1] . وفي العام التالى أصاب حاكم دمشق الثائر ما أصاب هذا .

[اغسطس ١٤٢٤ م]

ولما كانت سورية هادئة في هذا الوقت وجه «برسباي» التفاته إلى قرصان البحر الذين بدأوا يزعجون بغاراتهم شواطىء سورية ومصر ، وقد أبحرت عدة مراكب مسلحة ، يقودها مخاطرون دأبهم الإنتقام ، إلى قبرس فنهبوا «ليماسول» وأحرقوها ، وعادوا بالأسرى والغنائم الكثيرة . فشجع هذا السلطان حتى جهز في قابل أسطولاً بالجند الكثيرين فنزلوا على «فيماغوستا» فدحروا العدو ونهبوا «لارناقة» و «ليماسول» وعادوا ظافرين إلى القاهرة ومعهم ألف أسير[2] وغنائم شتى ولم يكن يقصد السلطان إلى شن غارة من هذا النوع بل كان يرمى إلى فتح الجزيرة ، وتنفيذاً لهذا الغرض أرسل وقتئذ قوة لا تقهر ، تقدمت بعد استيلائها على «ليماسول» نحو «لارناقة» وأخذت الملك «جانوس» أسيراً ، بعد أن هزمت الجيوش القبرسية ، وعادوا به إلى القاهرة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم المختلفة فدخلوا تخفق على رءوسهم ألوية النصر ، وكان ذلك في حضرة الغاشية وسفراء الأجانب . وكانت الغنائم محمولة على الجمال ومعها تاج ملك

[آل ١٤٢٥، ١٤٢٦ م،

---

(١) قتل مائة من رجال الحامية وقطعت أيدي ثلاثين : وهذا مثال محزن للوحشية .

(٢) بيع الأسرى كلهم . ولكن مما يذكر برهاناً ساطعاً على رحمة برسباي أنه حرم بيع الأطفال أو القرابة القريبة بدون أن يباع معهم أهلوهم أو من يعولهم .

«قبرس» وجواده ، والأعلام التى استولوا عليها في الحرب ، والأسارى من الرجال والنساء والأطفال ، ووراءهم جميعاً الملك الذي قَّبل - وهو يرسف في الأغلال - الأرض لدى أقدام السلطان ، ثم خر مغشياً عليه ، فحمل إلى القلعة . وفي نهاية الأمر دبر قنصل «البندقية» وسواه من القناصل فداء للملك الأسير فأطلق سراحه وأنعم عليه بثوب ملكى جميل وجواد ، وسمح له بالعودة إلى قبرس فكان من ذلك العهد تابعاً لسلطان مصر[١] . [١٤٢٧ م]

[١٤٢٣ م] وقبل ذلك ببضع سنين كان شريف مكة قد خرج على الدولة فأرسل إليه جيش أعاد نفوذ مصر على مكة وميناثها «جُدَّة» ، مما زاد في سرعة الإهتمام بتجارة المشرق ، وكانت «عدن» من زمن بعيد الميناء التجارية العظمى ، غير أنه قد لجأ إليها زعيم مولع بالمخاطر دخل إلى البحر الأحمر في هذا الوقت وضيَّق على موانى مختلفة وراء مجاز باب المندب . وهذا الرجل أسمه إبراهيم من أهالى «قاليقوط» وكان التجار قديماً يفرون من هذه الموانى لما يلقونه فيها من العسف ، فصارت «جدة» بتحسن معاملة المماليك للتجار ، وبقاء العسف في «عدن» الميناء المعترف به ، وصارت مكة المكرمة السوق العظمى للتجارة الشرقية[٢] . والحق أن السلطان جهد كثيراً في اتخاذ جميع الوسائل لمنع تحول الأمكنة المقدسة إلى مخازن تجارية ، غير أن الأمر أتى على عكس ذلك إذ أنه - كما يقول المقريزى - قضت مسالك التجارة - ومع أن رغبة الناس جميعاً في أن تكون مصر طريق المتاجر كلها مهما عرض في سبيلها من المخاطر - بأن تكون كذلك مع ما فيه من التعارض مع حرمة الكعبة وقداستها .

---

(١) كانت الدية ثلثمائة ألف دينار وجزية سنوية مقدارها عشرون ألفاً . كان أبو المحاسن المؤرخ شاهداً هذا ، ورغم تعصبه امتدح ذكاء الملك وعلمه وزاد على ذلك أنه كان يعرف العربية .

(٢) أن ما كان يؤخذ من الرسوم على حمولة أسطول مكون من أربعين سفينة بلغ ٧٠ ألف دينار .

وقد صدر في ذلك الوقت قرار مؤدّاه أنه يجب أن تحمل التجارة القادمة من أي جهة عن طريق بلاد العرب أو سورية أو العراق أولاً إلى الإسكندرية أو القاهرة ، وفيها تفرض عليها الضرائب . وقد احتكرت [١٤٢٨ م] الحكومة التوابل الشرقية وخاصة الفلفل ، فحدا ذلك بدول أوربا إلى الشكوى والإنتقام . وقد أثقل كاهل الناس عبءٌ آخر وخاصة في زمن الوباء وهو التضييق على صناعة السكر بل على زراعة القصب[1] ، والحقيقة أن الحكومة دخلت في كل شيء من فروع التجارة . وكانت تراقب الأسواق ـ حتى أسواق اللحم والقمح ـ مراقبة أدت إلى أن هجرها الناس أحياناً نجم عنه الهياج والثورة . وأسوأ من هذا كله مظالم المماليك الباغين الطغاة الذين أوردوا الناس موارد الارهاق حتى كانت النساء قلما يجرؤن على الخروج من البيوت . وعلى الجملة كان الارهاق بالغاً مبلغه في كل الجهات ، فمن ذلك أن خيل الفلاحين كانت تؤخذ منهم قسراً إلى الجيش . وفي الحقيقة انتشرت المتاعب والأعباء في أنحاء البلاد كافة حينذاك في أوقات السلم وزادت وطأتها على ما كانت عليه في زمن الحرب .

وفي الجزء الأخير من حكم «برسباي» توترت العلائق وكثرت الحروب [١٤٢٩ م] بينه وبين دول الشرق والشمال ، وأغار على الحدود السورية «قره يلك» زعيم التركمان الذي كافأه «تيمور» على خدماته بمنحه «سيواس» . فأرسلت مصر جيشاً ليعيد النظام إلى نصابه فحاصر «الرّها» التى سلمها ابن «قره يلك» على شريطة أن يخرج منها سالماً ، غير أن جيوش المماليك اقتحموا الأبواب بهمجية وأطلقوا يد التخريب والنهب وبين أيديهم الإضطراب والقتل ، فكان مصير المدينة محزناً إذ حمل النساء المساكين ، اللاتى دنس شرفهن ، مع أطفالهن ليبعن بيع الرقيق في حلب . وكان أعجب شيء أن يرى نصراني في أرمينية أو في تلك الجهات مطلقاً .

---

(١) كان السكر في زمن الطاعون يوصف دواء للمرض أو وقاية منه .

وقد انقلب هذا الهجوم على كل حال إلى ضده ، لأن الجنود في تغاليهم الوحشي لم يربحوا شيئاً ووقع بينهم الإرتباك فتفرقوا وعادوا أدراجهم إلى سورية كأنهم فارُّون ، فقام «قره يلك» ينتقم ويخلص ابنه من أيدي المصريين ، فأغار على مدن الحدود وخربها ثانية . ولما كان يعاضده «الشاه روخ» ابن «تيمور» ذعر أهل القاهرة . غير أن الوباء والقحط اوقفا تلك الحروب ومنعا استمرارها في ذلك الحين .

[١٤٣١ ـ ١٤٣٢ م] وفي السنوات التالية جرت مكاتبات غير ودية مع «الشاه روخ» الذي كان يطالب بأن يكون له الحق في تقديم الكسوة للكعبة ، فأجابه السلطان على ذلك بالسخرية والشتائم . وقد أصبح موقف «قره يلك» مخيفاً لمصر [١٤٣٣ م] بعد أن أنس من الشاه تشجيعاً ، فخرج «برسباي» على رأس جيش في الربيع وحاصر «آمد» عاصمة ملك «قره يلك» ، التي كان يدافع عنها أولاده . وبعد حصار استمر شهراً على غير جدوى ، عقدت مهادنة جوفاء مع «قره يلك» وبذلك رجع السلطان أدراجه عن طريق «الرها» المخربة ودخل القاهرة في [اغسطس، سبتمبر ١٤٣٤ م] الخريف باحتفالات لا يستحقها . وقد استمر «قره يلك» في إغارته على أقاليم الحدود ، ثم تظاهر في العام التالي بالولاء لمصر ، وأرسل برهاناً على ذلك ، هدية من الخيل وعمله مضروبة باسم السلطان .

وكانت الجيوش السورية لا تزال في آسيا الصغرى تحافظ على ولاء زعماء «كرمان» و «ذي الغادر» . ومن العجيب أن نجد زوج حاكم ذي الغادر ، عندما أسر ابنها في حصار ماراش ، توفد الى مصر بهدايا نفيسة لتحصل من السلطان على العفو عنه . وفي هذه اللحظة ظهر ثانية «جاني [ابريل ١٤٣٥ م] بك» بعد أن استخفى عدة سنين ، فكان ظهوره مزعجاً لأن هذا الهارب عاضده «الشاه روخ» الذي ساءت علاقته مع السلطان حينئذ ، لتكرر طلبه بخصوص مكة ، وأعلن بأيمان مغلظة أن لا بد من أن تسدل كسوته على الكعبة ، فأجابه على ذلك «برسباى» باحتقار قائلاً : إنه ميسور له أن يبر بقسمه بأن يبيع الكسوة ويوزع ثمنها على الفقراء ثم جاء إلى القاهرة رسول آخر ومعه حلة ملكبة وأمر من الشاه يحتم على السلطان أن يلبسها كتابع له .

فمزقها السلطان إرباً إرباً وألقى الرسول في بركة . ولما أذن له السلطان بالعودة قال له . «قل لسيدك اننا نهزأ بطلبه ، وإنه إذا لم يخرج إلينا في العام القادم لينتقم لك على ما أصابك نعده أضعف إنسان[1]» واستعداداً لمثل هذا الموقف تقدم ثانية جيش كبير نحو آسيا الصغرى . ولما بلغ برسباى أن الشاه قد طلب طلباً غير معقول من «مراد» سلطان العثمانيين انتهز الفرصة وعقد محالفة دفاعية معه . [يناير ١٤٣٦ م]

[١٤٣٧ م] نجحت الحملة نجاحاً كبيراً في آسيا الصغرى وطرد «جانى بك» وأمراء ذى الغادر إلى ما وراء «سيواس» فلجأ «جانى بك» الى أولاد «قره يلك» ليحتمي بهم فقتله أحدهم وأرسل برأسه الى القاهرة ففرح السلطان فرحاً عظيماً وأمر أن يطاف بالرأس في المدينة ثم ألقى به في الوحل . وكان «قره يلك» نفسه قد هلك قبيل ذلك في «أرزنجان» عندما كان يقاتل بجانب الشاه مع زعماء الوبر الأسود (قره قيون ـ أي الشاة السوداء) وقد أرسل هؤلاء أيضاً براسه الى مصر . ولكن لم يكد «برسباى» يشعر بالطمأنينة لهلاك عدوية هذين حتى قام ابن آخر لقره يلك يريد الانتقام لجاني بك فهاجم قاتله وذبحه وقام بحملة جديدة على المصريين ، فذعر «برسباى» ورأى أن يخرج بنفسه للقتال ولكنه أخيراً ترك القيادة لحاكم دمشق الذي أعاد السلم الى نصابه حتى «أرزنجان» في غزوة مظفرة فبسط نفوذ مصر على النصف الشرقي من آسيا الصغرى ، وكان النصف الغربي منها للعثمانيين . ولكن قبل أن تصل أخبار هذا النجاح إلى القاهرة كان قد مات «برسباى» . [يونيه ١٤٣٨ م]

ولم تنجح مصر ، على ما نالها من نعمة في عهد برسباى ، من هفواته التى كانت سجية في المماليك ، فكان مولعاً بالظهور الذي استلزم نفقات باهظة ، وقد بلغت قيمة حلة واحدة للسلطانة ثلاثين ألف دينار ـ ولسنا نسمع غير هذا إلاّ القليل عن حياته المنزلية ـ وهذا حظ امرأة كانت من زمن قريب رقيقة ! وقد عكرت المصائب المتتابعة من الطاعون والمجاعة والجراد صفو

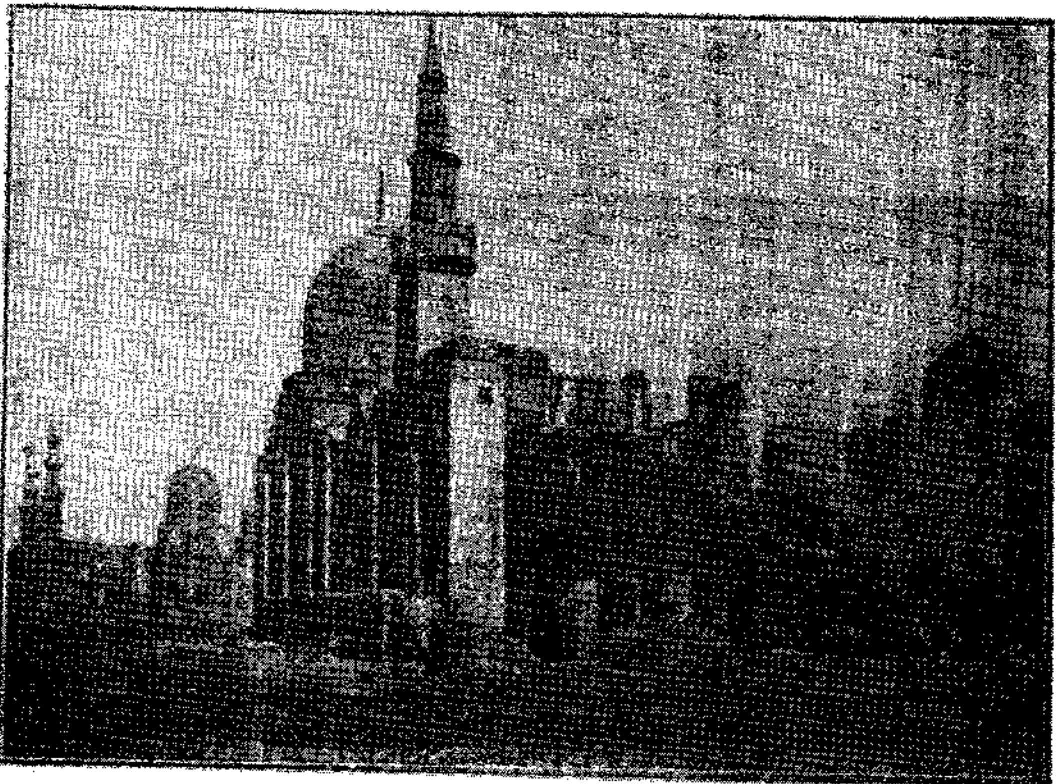
(١) يقال أن هذا الرسول حصل في القاهرة على نسخة من تاريخ المقريزي الذي لا بد من أن يكون قد انتشر إذ ذاك وحصل على نسخة من البخاري .

أيامه الأخيرة ، وازدادت فظائع المماليك التي ذكرناها فيما سبق سوءا على سوء . ولم يقبض على النساء من غير حياء فحسب بل على الصبيان أيضاً حتى تجنبت الناس الخروج الى الشوارع . وقد فتك الطاعون في مدة ثلاثة أشهر بثلاثمائة ألف من سكان المدينة وحدها ، فعد السلطان ذلك عقاباً للناس على خطاياهم ، فحظر على النساء الخروج ، وحاول أن يكفر عن هذه الخطايا ، لا بفرض اتاوة جديدة على اليهود والنصارى فحسب ، بل بتدمير دير كانوا يقدسونه[1] كثيراً ، وبهذا الغرض فتح أبواب السجون على مصاريعها «طريقة عجيبة للتوبة» فعرض المدينة بهذا لعبث المجرمين واللصوص . ثم دخل الطاعون القلعة فأصاب الطبقتين ، العليا والدنيا جميعاً ، من أميرات الى جوار ، إلى خصيان ، إلى مماليك . وكان السلطان نفسه ، مع أنه نجا من الطاعون ، يشكو مرضاً آخر ولما لم يشفه طبيباه الشريفان المحترمان أمر بهما فقطع رأساهما في محضر شيوخ المدينة ، ولم يقبل فيهما شفاعة حاشيته لهما . وبعد أسابيع ، عندما شعر بدنو منيته ، نصب ابنه «يوسف» خلفاً له ، وجعل الأمير «جقمق» وصياً عليه ، ثم استدعى إليه وجوه المماليك ووبخهم طويلاً باللغة التركية على قسوتهم وانغماسهم في الشهوات ، وأمرهم أن يخلصوا لولده ، ثم لفظ الحياة . [أول يونيه ١٤٣٨ م]

ويصفه المقريزى ذاماً بأنه ماكر قاس جشع غشوم . وقد رأينا أنه لم يتردد لدى كل فرصة في أن يخلص من أعدائه بدعوى الخيانة . وكل ما يمكن أن يقال خيراً فيه ، أنه مع ما تقدم ، لم يك سيئاً مثل كثيرين ممن سبقوه[2] .

(١) كانت الفرائض الثقيلة على اليهود والنصارى قبل ذلك الوقت يقوم بالنظر فيها موظفون كبار متدينون ؛ ولكن عهد بها حينئذ إلى أحد سفلة الناس فامتص دماء النصارى المساكين بدون استحياء .

(٢) لم يلق المقريزي التشجيع من البلاط في حكم هذا السلطان ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلته يقسو في حكمه عليه . أما أبو المحاسن الذي كان محبوباً هناك فهو بالطبع أكثر اعتدالاً في حكمه . والمؤرخون الأخرون يقولون أن صلاته وصيامه لم يكوناً إلا نفاقاً .



مقبرة برسباي الاشرف

الفصل الخامس عشر
يوسف بن برسباى ـ الملك الظاهر جقمق
١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ م

مع أن «يوسف كان في سن الخامسة عشرة تقريباً فإن مصيره كان كمصير سلفه الطفل ، فانه بينما كان «جقمق» يتظاهر بالطاعة لوليه استولى على القلعة وضم إلى جانبه تدريجاً حزب الاشرفية المخلصين لبيت السلطان[1] السابق . ولما عاد الجيش بعد قليل من حملته الأسيوية خدع قائده «قرقميش» إذ أفهم أن «جقمق» يحاول أن يحصل له على التاج . ولما أوعز إلى هذا القائد المخدوع ، أن يقترح في اجتماع المجلس اسم «جقمق» للسلطنة ، فعله ، وكان دهشه عظيماً عندما وافق الأمراء بالإجماع على اقتراحه ونادوا في الحال بمنافسه سلطاناً ، وبهذا خلع «يوسف» بعد أن حكم ثلاثة أشهر أو أربعة ، ثم سجن في القلعة .

و «جقمق» هذا مملوك جركسى من مماليك «برقوق» وكانت سنه إذ

(١) بدأت أحزاب المماليك في ذلك الوقت تتسمى بألقاب السلاطين الذين ينتمون إليهم أو الذين كانوا منتمين لهم قبلاً : فطائفة الاشرفية نالت اسمها من اسم برسباي الأشرف . والظاهرية سموا كذلك نسبة إلى برقوق الذي كان لقبه ولقب جقمق أيضاً «الظاهر» والمؤيدية أخذوا أسمهم من «شيخ» وأيضاً «أحمد المؤيد» ـ هذه هي أهم الأحزاب التى جعلت القاهرة وقتئذ في هياج مستمر . وكانت أحزاب أخرى كالناصرية أي توابع السلطان الناصر وكان الأشرفيون والظاهريون ينقسمون أيضاً إلى حزب جديد .

ذاك خمساً وثلاثين سنة . وقد ارتقى مثل أسلافه من مملوك في القصر إلى أكبر مناصب الحكومة . وقد اضطر ارضاء للمماليك الطامحين ، إلى أن يمنحهم جميعاً هبات كبيرة لم يجعلها قاصرة على مماليكه كما كان متبعاً إلى هذا الحين . فلما رأى «قرقميش» تفوق «جقمق» عليه ، جمع حوله الاشرفيين ، وحاصر القلعة فغلب وقبض عليه وأرسل في السلاسل إلى الإسكندرية فبقى فيها بضعة أشهر حتى حكم عليه بالقتل فحمل عارياً في المدينة ، وقطع رأسه على مرأى من الناس ، وقد وقع الأذى والقصاص على جل الاشرفيين وقتئذ ، وعذب الكثيرون منهم ، وذبحوا ، ونفى الباقون إلى الجهات النائية . ثم بعد هذا هدأت المقاومة في العاصمة في تلك الفترة .

أما الحال في سورية فكانت على النقيض من ذلك . ولو أخر «جقمق» طلبه للسلطنة حتى ينال الرضاء هناك كما نُصح له لدل على حكمته وبعد نظره . وقد انضم حاكم حلب إلى الثائرين ، بعد أن تظاهر بالطاعة عدة أشهر ، وأعلن إعادة «يوسف» إلى السلطنة ، وشنَّ الغارة . وفي تلك الفترة [فبراير ١٤٣٩ م] هرب يوسف من القلعة في زى طاه بمساعدة خصيه ومرضعه وجاريته ، ولكنه بعد أن عذب الخصى والمرضع وآخرين ، كشف أمر الشاب وجيء به بين يدى السلطان الذي أحسن معاملته ، (وكان «جقمق» في هذا خيراً من معظم بنى جنسه) فان يوسف أرسل إلى الإسكندرية وعاش في راحة تحت المراقبة . على أن ظهور يوسف في ذلك الوقت كان مسعِّراً لنار الفتنة في سورية فوقع قتال كبير في كل ارجائها . ولكن الثوار هزموا في حلب ودمشق . أما زعماء الثورة ، وهم كسادتهم المماليك المحدثى النشأة ، فبعد أن عذبوا لكى يعترفوا بما لديهم من الثروة ، قتلوا بلا رحمة هم وكثيرون من اتباعهم . وقد أقيمت الأفراح في القاهرة عندما عرض رأس حاكم «حلب» في الطرقات ثم علق أخيراً على باب المدينة . أما جنود الأشرفيين الذين كانوا مشتغلين في الوجه القبلى بمدافعة البدو فقد انضموا إلى المتآمرين ولكن كان مصيرهم في آخر الأمر كمصير المتمردين في سورية ولما قمعت الثورة ، وزع الأمراء الكثيرون الذين كانوا لا يزالون سجناء في

الإسكندرية على الأرجاء المختلفة البعيدة من الامبراطورية صوناً للأمن من أن يعبث به . وبهذا لم ينتصف العام حتى أعيدت السكينة إلى نصابها .

ولما رأى جقمق في ذلك الوقت أنه أصبح آمناً مطمئناً في البلاد وجه جيوشه باعتباره مسلماً مخلصاً لدينه ، على الفرنجة الذين بدأت قرصانهم تدمر الساحل من جديد . ولما كان متشجعاً بالانتصارات الحديثة العهد في قبرس فإنه أرسل حملات متكررة على «رودس» . فالحملة الأولى ، بعد أن خربت جزيرة «شاتورو» هاجمها الفرسان فعادت خاسرة إلى مصر ، فقامت حملة ثانية أقوى من الأولى فكان نصيبها كنصيب سابقتها . وقد صمم السلطان على أن يتوج الحرب المقدسة بالظفر ، فجهز أسطولاً قوياً يحمل عدداً كبيراً من البحارة ، ومعهم ألف من مماليكه الخاصة[1] فنزلوا إلى البر ، وبعد أن نهبوا كثيراً من القرى ، حاصروا «رودس» أربعين يوماً ولما يئسوا من الفوز ، عادوا إلى أوطانهم ، وعند ذلك تنازل السلطان عن مشروعه لأنه لم يجد فيه أملاً ، وسالم الفرسان .

[مايو ١٤٤٣ م]

[يونيه ١٤٤٤ م]

وكانت علاقة «جقمق» بالبلدان الإسلامية التي حوله على حظ عظيم من المصافاة ، فجاءته الوفود تترى من كل أمارات آسيا الصغرى التي طالما شقت عصا الطاعة ، حاملة الهدايا الغالية ، ومؤكدين ولاءهم ، وكانوا يستقبلون في القاهرة استقبالاً ملكياً . وقد عقد السلطان زواجه على ابنة صاحب أبلستين أحد رؤساء ذي الغادر ـ وكانت قد جاءت إلى القاهرة مع رسول أبيها .

وقد تزوج من اثنتين من أميرات آسيا الصغرى احداهما عثمانية (شاه زاده) ـ واستقبل في فاتحة حكمه بكل حفاوة وتكريم رسولاً من قبل الشاه روخ ، جاءه ومن ورائه قافلة من الجمال المحملة بالهدايا النفيسة والمسك والمواد الشرقية ـ فرد له على هذه الهدايا بما يناسبها من التحف المصرية

---

(١) يقال أن الأسطول كان يحمل ثمانية عشر ألف مملوك . وحتى إذا راعينا أن هذا مبالغ فيه ، فلا بد من أن الحملة كانت كبيرة .

النادرة ـ ثم استأذن الشاه ثانية في أن يرسل كسوته إلى الكعبة براً بقسمه فرضى السلطان بهذا على كره من أمرائه . وفي العام الثاني عندما جاءت أرملة «تيمور» لنفس هذا الغرض الدينى كان الشعور في المدينة قوياً ضدها حتى رشقت حاشيتها بالحجارة ونهبت بمجرد نزولها من القلعة ، فعاقب [١٤٤٣ م] السلطان المعتدين عقاباً صارماً ، وقدم تعويضات أرضت الملكة وعادت الثقة والعلاقة مع الشاه .

وكذلك دارت مراسلات ودية وتبودلت الهدايا الغالية بين السلطان والقصر «العثمانى» . فإذا راعينا ما كانت فيه البلاد من صلاح في الداخل وما كانت عليه من المحالفات الودية في الخارج عددنا حكم «جقمق» خير حكم ، إذا استثنينا سورية ، وأعظم الأوقات سلماً تمتعت به مصر منذ عدة سنين . وقد قل في حكمه التعذيب والتقتيل . أما التجارة فكانت لا تزال معرقلة بالقيود السابقة ، وهي القيود التى اعترض عليها الشاه . غير أن علماء القانون أقروا أنها عادلة ولازمة لتنظيم التجارة . وكانت أسوأ نقطة في إدارته مظالم المماليك التى لا تردع والتي كان أثرها في الأفراد أكثر منه في المجموع . وقد أورد لهم المؤرخ بعض الأمثلة القاسية في معاملتهم الوحشية للأمراء المؤذين ، ولم يعاقبهم السلطان على أمثال هذه الثورة لخيفته منهم . وقد كان جقمق نموذجاً في حسن إسلامه فبينما كان اليهود والنصارى يعاملون بصرامة[1] كانت القوانين تنفذ بشدة على الرذائل والشهوات . ولما كان حسن الذوق ومحباً للمخطوطات اليدوية الجميلة

(١) ومثالاً لتدخله التافه كان محظوراً عليهم أن يجعلوا عمائمهم من شيلان يزيد طولها على سبعة أذرع (٢) مات المؤرخ المقريزى في أوائل حكمه (١٤٤١) ومن ذلك الحين تعوزنا التفاصيل المسهبة التى تكثر في مؤلفه العظيم لآخر حياته . وعلاوة على شغله وظيفة رئيس شرطة القاهرة كان مدة ما رئيس الوقف في دمشق واشتغل أيضاً قاضياً فيها . ولم يك مطلقاً من رجال القصر . من أجل ذلك لا يتملق في كتابه ، ومن هذا الوقت إلى نحو عشرين سنة بعد نعتمد كثيراً على أبي المحاسن في هذا التاريخ .

أحب العلماء ورغب في مصاحبتهم . وقد كان شفيقاً سمحاً ، ولم يترك غير القليل في خزانته الخاصة . ولما كان مولعاً بالنساء تزوج بنتى قاضيين غير الأميرتين اللتين مر بك ذكرهما . وحين قارب العقد الثامن من العمر تزوج بعروس أخرى ، وبعد ذلك بقليل أصابه مرض معاود قاساه مدة عام أحس في آخره دنو منيته ، فأشخص إليه الخليفة والقضاة وكبار الأمراء ونزل عن [١٤٥٢ م] العرش وأمرهم أن يعينوا خلفه ، وكان ابنه الأكبر المعروف بالنبل والفضل [يناير قد مات من عشر سنين خلت ، ولذا عينوا خليفة له ولده الوحيد «عثمان» ١٤٥٣ م] وأقروا له بالطاعة في الحال . وقد مات جقمق بعد أسبوعين من هذا التاريخ ، وشيعه إلى القبر رجال الحاشية وجمهور كبير من أهل المدينة الذين حزنوا لفقدان سلطان حكم فيهم حكماً عادلاً خمسة عشر عاماً[٢] .

الفصل السادس عشر
عثمان بن جقمق ـ الأشرف اينال(١)
١٤٥٣ ـ ١٤٦١ م

[فبراير ١٤٥٣ م] عثمان هو ابن جارية اغريقية ومع أنه كان في الثامنة عشرة من عمره لم يكن خيراً من أبناء السلاطين السالفين الذين ارتقوا عرش السلطنة . وعلى قسوته وغروره وجشعه خضع لنفوذ مماليكه ، ولكي يرضي أطماعهم الأشعبية خلع وزيره الاكبر ثم أمر بجلده وتعذيبه فأثارت هذه المعاملة المخزية غضب كل الأحزاب التي حوله . وهؤلاء كلهم ، بعد موافقة الخليفة ، أتمروا بخلع الشاب الطاغية الذي انفض كل الناس من حوله عدا مماليكه الخاصة ، على أن يرفعوا إلى العرش مكانه «اينال» قائد الأسطول على «رودس» ، ثم هوجمت القلعة ، وبعد حصار دام أسبوعاً دخل عليه إينال من باب غير محصن(٢) فهرب عند ذلك «عثمان» إلى حريمه ، فأسر هنالك بعد ستة أسابيع وأرسل سجيناً إلى الإسكندرية ، ثم أطلق سراحه في السنوات التالية . أما «إينال» الذي قبل السلطنة بعد ضغط كبير ، فقد كان جاهلاً إلى حد أنه لم يستطع كتابة اسمه . وقد كان مثل أسلافه مملوكاً لبرقوق ، ثم صار غلام فرج ، ثم فكت رقبته ورقي تدريجاً حتى صار قائداً للقوات الحربية والبحرية . وقد خضع لمماليكه لحسن خلقه ولين عريكته ،

---

(١) كان كل من إينال وجقمق يسمى «العلائلي» لأنهما اشتريا من تاجر اسمه علي وكانا كذلك يسميان (الظاهر) نسبة إلى الحزب الذي جاءا منه .
(٢) باب السلاسل .

ومرضاة لهم جعل لهم فروضاً على الخزانة حتى أفقرها إلى حد أن رئيس المالية كان يستجدي ، وأن كبراء الدولة جلدوا ليقبلوا القيام بأعمالهم . ولما أمر بالقيام بحملة على الدلتا طلب جراكسة السلطان ، بكل وقاحة ، جمالاً أكثر ، ولما لم تعط لهم ثاروا حول القلعة ، فانضم اليهم الظاهريون الذين أغروا الخليفة أيضاً بالانضمام إليهم وبأن يقترح رجوع ابن جقمق إلى العرش ، فكان هذا مسيئاً إلى مماليك السلطان ففشلت الثورة في آخر الأمر وأرسل الخليفة سجيناً إلى الإسكندرية[1] . ومن ذلك الحين طرد كل المماليك من القلعة عدا مماليك ركاب السلطان . وكانت يد اينال الضعيفة غير قادرة على ردع المماليك ذوي الدعارة الذين كانوا يتهافتون على خدمة الأمراء . وكان عسفهم وجورهم طوال هذا الحكم يقصر عنه الوصف ، فهم لم يقتصروا على تخريب البلاد ونهبها ، بل هاجموا كبار الأمراء وسلبوا قصورهم . وكان السلطان نفسه يخاف مماليكه الخاصة حتى إنه لم يعد يوزع الطعام في عيد الأضحى علانية خشية اعتدائهم عليه ، واضطر إلى أن ينزوي بين جدران قصره . وقد كثرت[2] الحرائق وانتهبت عروض التجارة في الحوانيت وهجرت الأسواق ، ووقفت الإصلاحات التجارية والمالية من جراء هياج هؤلاء المماليك الثائرين . وكان الأمراء لا يستطيعون دفعهم عن أنفسهم . وحدث مرة أن اقتفى أثر السلطان في محاولة تهدئة هياج في القلعة ورشق بالحجارة حتى هرب بصعوبة جارياً إلى الحريم حافياً ـ وفي آخر الأمر اضطر إلى إجابة طلباتهم الفادحة تهدئة لهم ، فغدوا أقوياء يعزلون الموظفين أو يغيرونهم كما يهوون . فأصبح الشاكون يطلبون النصفة من زعماء

[يونيه ١٤٥٥ م]

---

(١) يبتدىء الإنسان يلحظ أن الخليفة لم تكن لهحرية الآن أكثر من قبل فحسب، بل أنه كلما كان موالياً تحسن مركزه لدى الناس جميعاً ونال شرفاً أكبر ونفوذاً أقوى مما كان له في عهد المماليك .

(٢) اتهم المماليك تجاراً من كرمان أن لهم يداً في الحرائق فأساءوا معاملتهم فهاج ذلك نفوس الكرمانيين وأغاروا على مصر اغارة مر بك ذكرها .

المماليك الذين كانوا يهددون المتهم ويضيقون عليه حتى ينال الطالب مراده ولا يذهبون إلى الحاكم .

وكانت النساء عرضة للمعاملة السيئة حتى في جامع عمرو ، ولم يجسر السلطان على دفع الأذى عنهن . وقد رزئت البلاد بطاعون مفزع ، [١٤٥٨ م] ولكن وطأته الشديدة لم تحل دون فظائع هؤلاء ، فان الثوار لم يكتفوا بمهاجمة المارة في طريقها بل نهبوا أملاك الموتى واغتنوا بضياعهم ـ وأخيراً وصل الوباء إلى القلعة فاغتال جماهير كثيرة من الظالمين المبغضين داخلها وخارجها . وهذا قصاص لأعمالهم المرذولة وأمان وقتي للسكان[١] .

ولم يك نفوذ المماليك مقصوراً على الشئون الداخلية بل تخطت [١٤٥٩ م] طلباتهم المجحفة إلى الشئون الخارجية ، ولدينا مثال في قبرس التى كانت خاضعة إذ ذاك لمصر ، فان «جيمس» الثاني رئيس أساقفة نيقوسيا والابن غير الشرعي للملك المتوفي ثار على الملكة شارلوت ثم هرب إلى مصر فاستقبل فيها بحفاوة . وكان السلطان في أول الأمر يميل إلى معاضدته ، ولكن بعد [١٤٦٠ م] أن برهنت الملكة على حقها وعرضت أن تزيد في الجزية عدل عن رأيه وأصدر مرسوماً بتثبيتها على الملك ، فاستاء المماليك[٢] وتجمع الرعاع حول رسلها ، وهاجو هياجاً خطراً حتى رأى إينال حين لم يستطع المقاومة أن يجهز أسطولاً ليجلس جيمس على العرش فكان نجاحه في هذا قليلاً لأن البابا وولاية سافوى ساعدا شارلوت . وفي أثناء تجهيز حملة أخرى مات [١٤٦١ م] السلطان . وفي آخر الأمر احتفظت الملكة بعرشها وبقيت الأحوال كما كانت من قبل تقريباً . وكانت علاقة اينال بالدول الإسلامية التي حوله حبية جداً وخاصة مع أمراء آسيا الصغرى وحدود أرمينيا . وقد وصل رسول من قبل «الوير الأبيض» ينبىء بنصره على «الوير الأسود» الذي كان رئيسه قد أساء إلى مصر اذ أكرم حاكماً عاصياً لها . وكانت هذه هي الغزوة الوحيدة في

(١) ذكر هذا أبو المحاسن هاجياً .

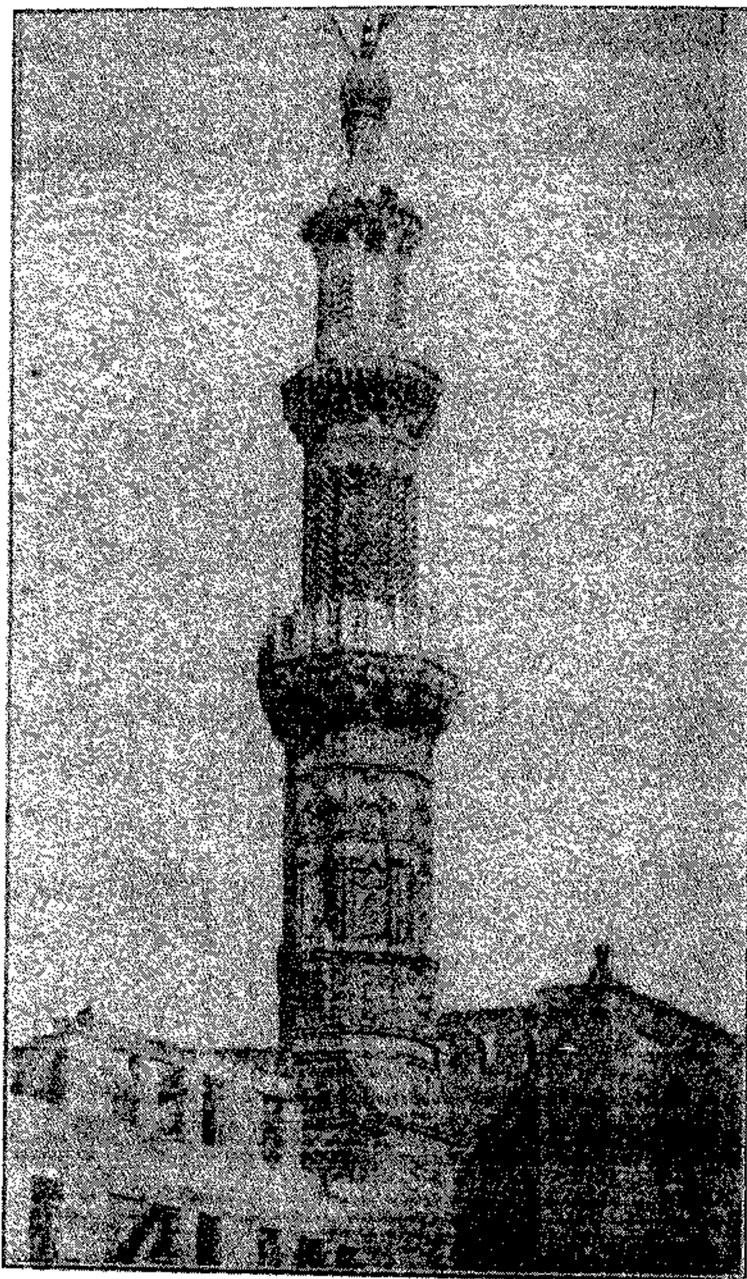
(٢) فعلوا هذا لظنهم أن جيمس ابن شرعي للملك باعتباره ابن جاريته والدين الإسلامي يقر حق ابن الجارية .

خلال هذا الحكم ـ عدا غزوة قبرص وعدا معاقبة عصابات البدو الذين أغاروا [١٤٥٧ م] على مصر السفلى ـ ضد رئيس كرمان الذي اعتدى على حدود سورية واستولى على أطنه وطرسوس ، وعلى هذا أرسل جيش إلى آسيا الصغرى فحاصر قونية وقيسارية وخرب أرضهما ، ولم يبق على مسجد أو مدرسة ، فسلمت كرمان من غير قتال وأعيد السلم إلى نصابه في العالم التالي .

[٢٩ مايو ١٤٥٣ م] وفي أثناء ذلك كانت قد سقطت القسطنطينية وصارت عاصمة الحكومة التركية ، فكان خبر سقوطها والنجاح الذي ناله العثمانيون عقب سقوطها في الصرب باعثاً على الفرح الشديد في القاهرة ، واحتفل له الناس عدة أيام حفلات فخمة ، ولم يدروا أن سيكون الأتراك في القريب العاجل ألد أعدائهم . وقد سارت الوفود بين الدولتين تحمل الهدايا عدة مرات . ورفع إينال إلى محمد الثاني ، لقهره البوزنطيين ، التهانى في قصيدة ملكية ، ومعها رسالة ممتعة .

وكان حكم إينال يعد فشلاً محزناً في داخل البلاد لكثرة عنف المماليك الذي لا جامح له . ومما لا شك فيه أن الظلم والتعذيب والقتل قد قلّ على يد السلطان وعماله عما كان عليه قبل ، ولكن لم يأمن أحد على نفسه من المماليك . وكان اللصوص الحقيقيون والسارقون يتزيون بزيهم كي يمكنهم أن يسرقوا ما شاءُوا وهم آمنون ، فنشأ عن ذلك لأول مرة أن بدأ الأغنياءُ والفقراءُ يحافظون على أمتعتهم وأموالهم بحفر الخنادق أو ببناء الأسوار حولها . وقد ذم شعراء العصر حكم إينال وبالغوا لأنه لم يكن شحيحاً فحسب بل كان أمياً جاهلاً . وقد ترك أسرة من زوج واحدة ، (وهذا استثناء غريب في هذا العهد) ، لم يكن لها أي منافس . ويجب أن يسدل القناع على حياة السلطان وغاشيته من الوجوه الأخرى لأنها مخزية لا تسطرها الأقلام .

وحين شعر إينال بدنو منيته استدعى الخليفة والعلماء ، ولما لم يستطع [١٤٦١ م] الكلام غمغم بالتركية مشيراً إلى أن ولده أحمد الناضج السن يجب أن يكون خليفته . وعلى ذلك قدمت له الطاعة في الحال في قاعة الإجتماع . وهكذا قضى إينال نحبه وهو في سن الثمانين بعد أن حكم ثماني سنوات .



(مئذنة مقبرة السلطان إينال)

الفصل السابع عشر
أحمد بن إينال ـ الظاهر خشقدم
(١٤٦١ ـ ١٤٦٧ م)

[فبراير ١٤٦١ م]

كان صعود أحمد ، الملقب بالمؤيد ، على العرش مقبولاً في كل مكان ، ومبشراً بمستقبل حسن . كانت سنه ثلاثين سنة ، وإذا قرناه بغيره من سلاطين مصر نجده مستقيماً فاضلاً . ومع هذا كان حكمه قصيراً كثير الارتباك . وقد يستطيع الإنسان أن يقول إن فضائله الحقة ، في عصر ساد فيه المنكر ، لم تعمل شيئاً غير استعجال المصائب . ولما كان همهُ الإصلاح رفض ، لدى توليته الحكم ، طلبات الشطط التى طلبها مماليك قصره ، فثار ثائرهم لهذا ونسوا عندها تنافس أحزابهم ، وانضموا إلى الأحزاب الأخرى في الأتمار بخلع سلطانهم . وكان الأشرفيون يميلون كثيراً إلى أن يكون «جانم» نائب سورية وحاكم دمشق السلطان الجديد ، وقد فضل الظاهريون «خشقدم» نائب القصر . ولما كانت الأخبار لا تصل إلى أحمد الاّ قليلاً ، بقى لا يحرك ساكناً لما يجري ، وفقد تدريجاً مؤازرة غاشيته له . ولما قلق أخيراً ، استدعاهم إليه ولكنهم خافوا ما يرمي إليه ، وبدلاً من الحضور عنده اجتمعوا في بيت «خشقدم» ، ولما نضج مابيتوا هاجموا القلعة ، وعند ذلك استقال أحمد بعد أن حكم أربعة أشهر ، فأرسل إلى الإسكندرية حيث بقى فيها مصفداً ، ولكنه أطلق سراحه في آخر الأمر ، فعاش في عزلة عدة سنوات عيشة فاضلة ، وبينما كانت القلعة محاصرة أغرى «جانى بك» أحدُ الأمراء النابهين ، حزب الأشرفيين من شيعة «جانم» أن يعلنوا تعيين «خشقدم» سلطاناً للمحافظة على النظام في تلك الأثناء ، وأخبرهم أنه لدى

وصول «جانم» يسلم إليه العرش في سلام .

ويهذا انتخب «خشقدم» سلطاناً بلقب «الظاهر» . وأصله مملوك السلطان «شيخ» اشتراه من خمسين سنة خلت ، فجعله غلاماً له ، وارتقى تدريجاً حتى صار حاكم دمشق وقائد الحملة على «كرمان» . ولما كان أحمد يكرمه باعتباره رئيس بلاطه لم يشترك مطلقاً في الأتمار به ، ثم نال مركز سيده المنفى . وهو أول سلطان لا يتطرق الشك إلى اغريقية أصله . وقد كان الجراكسة قد مضى عليهم وهم على العرش أكثر من ثمانين عاماً[1] . ولقد سبب هذا الخبر هياجاً كبيراً في دمشق وانحازت الغالبية إلى جانب السلطان الجديد ، غير أن «جانم» الذي وثق من استدعاء أصحابه الأشرفيين ، سافر إلى القاهرة ، فذعر لذلك «خشقدم» ووقفه في الطريق . ولما رأي جانم أن الوقت قد فات ، خضع للسلطان الجديد الذي ثبته في ولاية دمشق ترضية للأشرفيين ، ولكنه منعه نيابة سورية . وبما أنه كان لا يزال يخشى الأشارفة ضيق عليهم ، فكان هذا العمل سبباً في قيام ثورة لمصلحة أمير قوي هو «أتابك» ، وبمساعدة الظاهرية تغلب على الخطر ولكنه هاج السلطان لدرجة أنه خلع «جانم» ، فخشى هذا من منازلته مرة أخرى فلجأ إلى «أوزون حسن» صاحب الوبر الأبيض . ولما توسط هذا الأمير في العفو عنه ولم يفلح ، انحاز إلى جانبه ، وأغار على حدود سورية . ولما كان السلطان يخشى عودة جانم جهز قوة لاقتفاء أثره ، ولكن في تلك الأثناء كانت أخبار وفاته سبباً في وقف الحملة التي لم تعد ضرورية[2] . [١٤٦٣ م]

---

(١) يقال أن «لاجين» كان اغريقياً . ولكن فريقاً يتشكك في هذا . وقد رأينا أن عدة سلاطين كانوا من أمهات إغريقيات ؛ ولكن ليس غير السلطان الحالى أحد جيء به صغيراً مملوكاً من بلاد اليونان . أما أسمه ففارسى معناه «حسن الحظ» .

(٢) حاول أبو المحاسن ، وقد رأينا أنه كان محبباً إلى البلاط ، أن يطمئن السلطان عندما أفزعه خبر هذا الهجوم فأخبره بأنه إذا كان عرشه أقل ثبوتاً مما هو عليه إذ ذاك فان جانم أو غيره لا يمكنه مهاجمته ، فهم بالاحرى لا يمكنهم أن يقوموا بذلك الآن .

وقد رأينا أن خشقدم كان مديناً برقيةٌ لمصاحبته جانى بك الذي تفوق بمهارة على أنصار جانم . ولما كان هذا الأمير قد شغل مركزاً سامياً في «جدة» فإنه كان محترماً عند أمراء بلاد العرب بل أمراء الهند أيضاً . ولعدله وكرمه وسماحته كان ذا مكانة عظيمة . ولما تفانى الناس في محبته كانت كلمته قانوناً في كل شئون القاهرة الداخلية .

وكان كلما خرج راكباً احتشد حوله جمع كبير من أصحابه الظاهريين وأتباعه المعجبين به ، غير أن هذا لم يفد إلا في إسعار نار كراهية المماليك السلطانية له ، وغيرة سيدهم منه . وقد قلب الآن خشقدم ظهر المجن لصاحبه الذي كان مديناً له بالعرش : ففي ذات يوم عند دخوله القلعة انقض عليه مماليك السلطان وضربوه على رأسه ، وطعنوه في ظهره ، ولما كانت لا تزال فيهه بقية من الحياة سحبوه من رجليه إلى القصر (البلاط) وهشمت دماغه بالحجارة الكبيرة ، ثم تبعوا رفيقه حاكم المدينة وذبحوه بنفس هذه الوحشية ، وكان خشقدم جالساً في البهو الأعلى وعالماً بما يجرى . ولما سأل عن الخبر كان الجواب : كل شيء على ما يرام ، فقال : لننزل الآن . وعند ما نزلوا أمر باحضار درجين فقط وأمر أن تغسل الجثتان وتدفنا ، فلم ينس الناس قساوته هذه ، لأن جانى بك على احسانه كان يقيم ولائم لا تقل فخامة عما كان يقيمه هرون الرشيد من الولائم ، مما حببه إلى الناس في أرجاء المدينة .

ولم يتحسن مركز خشقدم بعد التخلص من صديقه فلم يلبث حتى رأى عاقبة أعماله السيئة فأن الظاهريين غضبوا لموت زعيمهم ، وعلى هذا قبض عليهم ، وعذبوا وسجنوا في الإسكندرية . وقد حدث ما لم يكن يتوقعه السلطان ، ذلك أن الحزب الآخر من الأشرفيين والإينالين الذين كان يظن أنه يرضيهم باضطهاد أعدائهم الظاهريين ـ أتمروا بقتله ، ليعينوا واحداً منهم مكانه . فلما تبين له خرق خطته أرسل إلى «قايتباى» زعيم الظاهريين ، فجاءه يحرسه عدد كبير من حزبه ، فاستقبله السلطان بكل كرم واحتفاء

وعانقه ورجاه ان يتناسى الماضي واعداً بالعفو عن جميع من أرسلوا إلى السجون . فكان هذا العمل مسيئاً إلى الأشرفيين الذين سرهم من قبل سقوط الظاهريين ، والذين لم ينسوا ما أصاب «جانم» . وكانت هذه فرصة مفيدة لخشقدم استخدمها في ضرب حزب بآخر وصارت سياسته بعدُ ترمي إلى تكثير أحزاب المماليك والعطف على هذا الحزب مرة وعلى ذلك مرة أخرى ليوغر صدور بعضهم على بعض وليزيد في منافساتهم ليضرب الواحد منهم بالآخر[1] كي تخضض شوكتهم ويبقى هو قوياً . وعلى الرغم من هذا كان خشقدم لا يزال ألعوبة في أيدي مماليكه ومماليك السلاطين السابقين الذين هم حراسه ومعتمده ، فكان يترك حبلهم على غاربهم ، حتى في مظالمهم وغلوهم . وكثيراً ما كانوا يأخذون أجمل الجياد المعروضة للبيع من غير أن يدفعوا فيها ديناراً واحداً . ولذا كانت الأسواق تهجر كثيراً[2] ولم تزد هذه الأعمال الحال إلاّ حرجاً . وعلى ذلك أراد أن يجعل نفسه محبباً لدى القضاة والطبقات ذات النفوذ ، ليكسب مساعدتهم في تهدئة الأهالي ، فجعل ينفذ القوانين الموضوعة ضد المسيحيين بكل صرامة ولكن لما تقوت حكومته ألغاها .

وقد أرسل السلطان عدة حملات إلى قبرس ليساعد الملك «جيمس»[١٤٦١ - ١٤٦٣ م] من جانب ، وليتخلص من المماليك الذين كان يخافهم من جانب آخر ، بل أن الأخير كان أهم غرض لديه . وقد عاد بعض هؤلاء بدون ، اذن ، فأساء

---

(١) لم يكن هناك حزب الاشرفيين الأقدمين فقط (حزب برسباى) بل كان هناك أيضاً الأشرفيون الجدد المنتسبون إلى «إينال» . وكان هؤلاء ناقمين من العطف الذي يبديه السلطان نحو الظاهريين لينال ولاءهم ، مع أنه أساء اليهم قبلاً ليرضي الإشرفيين . وكان الظاهريون أقوياء لانهم عماد الخيالة من الجند وكان الإيتاليون أشداء أيضاً . أما حزب السلطان «المؤيدون» فكان عددهم قليلاً بالنسبة إلى أولئك .

(٢) عندما أرسل الجنود إلى الصعيد لاجلاء البدو الذين أغاروا عليه ، أخذوا معهم كل عربات المياه التي في المدينة فجهد الناس كثيراً عدة أيام ولم يحصلوا على قطرة من الماء .

إليهم كثيراً ، ورجع الآخرون لأنهم غضبوا لما أصاب «جانى بك» فتغاضى عنهم ، وقد عامله أحد القواد المصريين باحتقار فأثار كراهيته وهاجمه وقتله وقتل معه جنوداً مصريين كثيرين ، وانتهزت الملكة «شارلوت» هذه الفرصة للتقرب من السلطان ولكن الملك بقى مسالماً للنهاية فبقيت الحال بينهما كما بدأت .

وقد بدأت العلائق تتوتر في ذلك الحين بين مصر والباب العالى ، فإن رسول «محمد الثاني» الذي جاء حاملاً رسالة مفرغة في أسلوب عده «خشقدم» شاذاً رفض أن يقبل الأرض بين يدي السلطان عندما اقترب من حضرته معتذراً بأنه قد انفلت من صلاته الآن ولا يستطيع أن يسجد لمخلوق بعد أن سجد للخالق . وفي فرصة أخرى تلت هذه ، أدى الرسول المراسيم المتبعة ، فسر السلطان كثيراً ، وقدم له الهدايا للباب العالى ، فرفض الرسول قبولها بدعوى أن مقام السلطنة يتطلب أن ترسل هذه الهدايا مع بعث خاص . وأظهر السلطان عدم رضاه عن تعيين والٍ لكرمان قد كان وقع في تعيينه خلاف ، وذلك لأن الباب العالي كان يعضد طلب ابن أميرة عثمانية لولاية «كرمان» ، و «خشقدم» يعضد ابناً آخر من مملوكة ، وكان هذا قد هزم أخاه بمساعدة «أوزون حسن» ، ولكن ابن الأميرة العثمانية طرد في آخر الأمر منافسه المتطفل بمساعدة «محمد الثاني» الذي كانت قد امتدت فتوحاته في هذا الوقت إلى قلب «أرمينية» . ومن هنا لم يظهر أحد البلاطين محبة نحو الآخر ، مع أنه لم تنشب بينهما حرب فعلية . [١٤٦٤ م]

[١٤٦٢ م] ولم يكن السلطان متبعاً سبيل الحكمة أو الأمانة في معاملته ولايات آسيا الصغرى التابعة له . فبينما هو يغرى «أوزون حسن» بالاستيلاء على خربوط ، تراه ينهى سرًّا أصلان زعيم «الأبلستين» عن تسليمها . وبعيد ذلك مات أصلان بخنجر من يد فداثى أرسله السلطان ، فنشأ الهياج عند هذا في «الأبلستين» ، لأن إخوة الأمير المقتول شقوا عصا الطاعة . وكان الحزب الذي تعطف عليه مصر يقاومه «الشاه سيوار» صاحب «ذي الغادر» الذي

يعضده الباب العالي فجهز جيشاً ضد الشاه ، ونتيجة عمله تخص حكم سلطان آخر .

وإذا استثنينا غارات البدو المستمرة على مصر العليا والسفلى ، نرى السلام كان ناشراً لواءه في جميع أرجاء السلطنة . وقد حافظ «خشقدم» على سيادته من الأول إلى الآخر ، بمهارته في المحافظة على تكافؤ قوة الأحزاب المختلفة . غير أن المماليك ، وخصوصاً أتباعه منهم ، كما رأينا ، كانت أيديهم مطلقة في الأموال والأنفس ، وأتوا فظائع وحشية لا مثيل لها . وقد عظم دخل الدولة ببيع المناصب . وقد بيعت نيابة «دمشق» بخمس واربعين ألف دينار .

أما العدل فكانت حرمته منتهكة وكان المتهمون كثيراً ما يباعون ويسلمون إلى المدعين . ولدينا مثال على ذلك أن وزيراً سلم لأعدائه ، في مقابل دفع سبعين ألف دينار ، فعذبوه حتى مات . وليس لنا أن نعجب من أن إدارة أساسها حب جمع المال ، ومكروهة كهذه ، سببت التذمر العام وأدت إلى ثورات كثيرة قام بها الناس عن طيب خاطر .

[سبتمبر ١٤٦٧ م]

وحوالى ختام حكمه سببت جيوش البدو ذعراً وسوء نظام ، ليس في مصر فحسب بل في سورية وبلاد العرب أيضاً ، حيث نهبوا كل شيء حتى قوافل الحجاج . وقد ذهب الجيش لمقاومة «سيوار» فجمع جيش غيره في الوقت الذي أصيب فيه السلطان بانزلاق البطن ، وانحطت صحته إلى حد أنه كان يفقد الرشد أحياناً .

ولما سمع بأن أخبار موته انتشرت في الخارج ، كان على وشك معاقبة مماليكه الأشرفيين الذين اتهمهم بالعصيان ، فأدركه الموت في اليوم التالي ، فشيعه إلى القبر عدد قليل من حاشيته . ولم يكن محبباً إلى أي طبقة من الناس وخاصة لظلم مماليكه الذين لا رادع لهم ، ولحكمه المشهور بالرشوة وغصب المال والفساد . ولم يكن يتردد مطلقاً للحصول على أغراضه في التعذيب بالخنجر أو السم . وقد ظلت ذكرى «جانى بك» باقية إلى النهاية . وقد ترك خشقدم ولدين لا نسمع عنهما شيئاً .

الفصل الثامن عشر

بلباى ـ تمربغا ـ الأشرف قايتباى

١٤٦٧ ـ ١٤٩٦ م[1]

[اكتوبر ١٤٦٧ م] ظلت القاهرة في خلال الشهرين التاليين لموت السلطان مسرحاً للدسائس الدائمة بين الأحزاب المتنازعة . وقد جلس على العرش أولاً «بلباى» الجركسى ثم «تمربغا» الأغريقى ، وكلاهما نشأ بالطريقة العادية ، ثم ارتقيا إلى مقام السلطنة بنفوذ حزب الظاهريين . وخلع الأول بعد شهرين ، وأرسل أسيراً إلى القلعة . والثاني الذي أعقبه كان من بيئة أرقى ، ولو ملك الوسائل التى يرضى بها الأحزاب السيئة الكثيرة التى حوله لاحتفظ بمركزه ، لكن الخزانة كانت خاوية ، وإذا لم يُرْشَ المماليك كان قيام المؤامرات محتوماً . وقد نادى المؤيدون بواحد منهم سلطاناً وهو السلطان «خير بك» ، ولكن الظاهريين ظهروا عليهم ، وأجلسوا على كرسى السلطنة «قايتباى» . وقد أرسل «خير بك» في الأصفاد إلى الإسكندرية ، في حين أن «تمربغا» الذي حكم شهرين أكرم ومنح مسكناً لائقاً به في دمياط .

[يناير ١٤٦٨ م] كان «قايتباى» الذي افتتح دولة طويلة ، من أصل جركسى ، وهو مولى السلطان جقمق اشتراه غلاماً بخمسين ديناراً . ولما كان فارساً ممتازاً

---

(١) في حكم قايتباى مات المؤرخ أبو المحاسن سنة ١٤٧٠ وبموته تقل عندنا مصادر المعلومات قلة تذكر ، وتقل التفاصيل ويعتورها النقص . ومن ذلك الحين يصير ابن أياس مصدرنا المصرى ، وقد عاش حتى شهد سقوط أسرة المماليك وبقى بعد سقوطها نحو ثمانى أو تسع سنوات .

قرب في البلاط وقد ارتقى إلى عرش السلطنة من وظيفة أتابك . وبصفته حاكماً شجاعاً قادراً حافظ على حياته بغاشية كبيرة جداً من المماليك المخلصين له ، وبهم استطاع أن يعامل أحزاب المماليك كيف أراد . وكانت تنتاب البلاد من حين إلى آخر الثورات المعتادة ، ولكن الأحزاب كانت متكافئة فنجت الحكومة ، وكان الداء العضال مسألة المالية . ومع أن قايتباى منع اعطاء الهبات المعتادة التى كانت توزع عند التتويج كانت الحكومة في حاجة ماسة إلى المال في بادىء الأمر لصد غارات البدو ، ولمقابلة الأخطار المهددة لآسيا الصغرى . وكانت طريقة جمعه مقدمة لما كان سيقع بعد ، فرئيس الحكومة المعتبر مسئولاً ، اغتصب منه كل ما يملك ، ثم فرض عليه مبلغاً ، فلما أظهر عجزه عن دفعه جلد في حضرة السلطان . ولما لم يجد هذا نفعاً ، أخذ السلطان بنفسه العصا في يده ، وما زال يضرب الأمير التعس حتى تطاير دمه على الواقفين . ولما رضى الوزير المبرح به الضرب بدفع مائتى ألف دينار ، أطلق سراحه ، وخلع عليه خلعة الشرف . وهكذا كانت وحشية رجال «قايتباى» المتقلبة .

كانت مصر حينذاك في حرب مع «سيوار» صاحب «ابلستين» وخليفة «أصلان» الذي قتل ـ كما رأينا ـ بيد السلطان السابق . وبمساعدة الباب العالى له استطاع أن يطرد الجيوش المصرية ، وغزا أراضى الحدود حتى بلغ [١٤٦٧ م] «أنطاكية» و «طرسوس» ثم رغب «سيوار» بعد ذلك في الصلح ، فأرسل إلى القاهرة جميع الأسارى المصريين مع بعث حبى ، ولكن السلطان ، الذي غضب لهزيمة جنده ، بدلاً من أن يجدد الصلح ، أرسل جيشاً آخر إلى «عينتاب» فاستدرج إلى ممر ضيق ، ثم هزم هزيمة مخزية ، وارتد إلى حلب . ولما استولى الذعر على قايتباى لجأ إلى طرق قاسية منكرة في جمع الأموال لاعداد حملة أخرى[١] . وبعد جهد جهيد ومدة طويلة أرسل جيشاً

---

(١) مثال ذلك أنه جلد قاضى القضاة بنفسه وعذب الوزير حتى حصل على المال المطلوب .

ثالثاً فلم يك حظه بأحسن من سابقيه ، وقد بدأ سيوار يظهر بمظهر الملوك ، وسمى نفسه سيد سورية . فلما أحس قايتباى حرج مركزه لجأ إلى الباب العالى الذي قطع معونته عن سيوار بناء على رجاء السلطان . فلما رأى سيوار تخلى خلفائه عنه تراجع إلى معقلة في «ابلستين» ، وهناك عرض أن يسلم كتابع للسلطان . وحين وعد أن يخلع عليه خلعة الشرف ، طوق عنقه بالسلاسل بدلاً من الخلعة ، أما أتباعه ففريق قتل ، وفريق سيق معه أسارى إلى مصر . وعند دخولهم القاهرة تبعهم ، في موكب فخم ، المغنون والمغنيات وأصوات السخرية ، وأخذ هذا الأمير الذي تظهر عليه سمة العز ، فالبس سخرية منه لباساً ملكياً وأركب جواداً ، إلى حضرة قايتباى ، فقابله بترحيب ممزوج بالسخرية ، وأمر بتمزيق ما عليه من الملابس الملكية ، ثم عرى رأسه هو وأقاربه ، ووضعت السلاسل في أعناقهم ، ثم حملوا على الجمال إلى باب المدينة حيث شنقوا وبقيت جثثهم معروضة للجمهور يومين . وقد انتحل السلطان ، لخيانته الفظيعة علة واهية ، وهي أن «سيوار» عامل زعيماً سورياً هذه المعاملة . وهكذا كان خلق هذا العصر الوحشى .

وكانت مصر لا تزال تخشى الشر من هذه الجهة ، وذلك للنجاح العظيم الذي أحرزه «أوزون حسن» في كل الشرق ، وأرسل الوفود تلو الوفود ، تظاهراً بالخضوع لمصر ، ومع أحدها رأس زعيم «قره قيون» وكان قد انتصر عليه نصراً مبيناً . ولما مدَّ فتوحه في بلاد الفرس حتى أواسط آسيا ، أرسل إلى القاهرة رأس ملك سمرقند ، التى عندما رآها قايتباى ، أمر أن تغسل وتدفن بكل احترام ، بدلاً من أن يعلقها كباقي الرءوس على أبواب المدينة . ولما عاد أوزون حسن في ذلك الوقت إلى آسيا الصغرى ، غامر مع الجيوش العثمانية فاستولى على «توقات» وغزا «كرمان» التى فرَّ زعيمها إلى الباب العالى ، فقام «محمد الثاني» عند ذلك على رأس جيش قوى وأمكنهُ ، بوساطة مدفعيته ، وكانت معروفة قليلاً في الشرق إلى ذلك العهد ، أن يوقع الهزيمة الفادحة بأوزون ، ففرح السلطان لهذا لأن جيوش

[١٤٦٧ - ١٤٦٩ م]

[١٤٧١ - ١٤٧٣ م]

«أوزون» المشتتة ، والتى كانت في حرب مع الجنود المصرية ، ما انفكت [١٤٧٥ - ١٤٧٦ م]
تنزل التخريب بالحدود السورية . مات أوزون بعد ذلك بقليل ، غير أن ابنه
وقف موقف المعادى ، وضرب الجيش المصري عند محاولته الاستيلاء على
«الرها» وشهر برأس قائده في كل ولايات الحدود اشارة إلى ظفره ، فجهز [١٤٨٢ م]
«قايتباى» ، لهلعه ورعبه ، جيشاً آخر لحماية حلب ، ولكن لم يمض وقت
طويل حتى رجع السلم إلى نصابه . [١٤٨٣ م]

فرح السلطان بهذا لأن الحرب بينه وبين الباب العالى لاح وميضها في
الشمال ، وكانت اسباب توتر العلائق بين الدولتين متوافرة ، وقد نشأت من [١٤٨١ م]
نزاع دويلات آسيا العدة بعضها مع بعض واستصراخ الواحدة منها مصر
والأخرى تركيا . وفي هذه اللحظة وقع ما أسعر نار الخلاف بين الدولتين ،
فانه عند جلوس «بايزيد الثاني» على العرش نازعه فيه أخوه الأمير «جم» ،
ولما هزم فرَّ ووجد لدى قايتباى كرماً يليق بالأمراء وسيَّره حاجاً إلى مكة بعد
أن ترك أسرته في رعاية السلطان .

وقد سعى ، بمساعدة كرمان له ، مرة أخرى في الإستيلاء على العرش
العثماني . ولما هزم ثانية نزل ضيفاً على رئيس فرسان رودس (المولى
الأعظم) الذي اضطره بايزيد والبابا وقايتباى ، كل لغرض في نفسه ، إلى
تسليمه إليه ، وأخيراً رجع إلى «روما» حيث استقبله البابا استقبالاً فخماً لأنه
كان يتوقع حرباً صليبية جديدة . وقد أراد قايتباى ثانية أن يكون هو رده
الأمير جم ، ورغب أن يسترده إلى مصر فأظهر استعداده للتنازل عن كثير
للبابا حتى ـ كما يقال ـ عرض تسليم بيت المقدس . ولكن البابا الذي رشاه
الباب العالى ، والذي يئس من قيام حرب صليبية احتفظ «بجم» في روما [١٤٩٥ م]
وأبقاه فيها حتى مات مسموماً .

وكان احتفاء مصر بالأمير «جم» سبباً في زيادة شعور بايزيد بالكراهية
لها ، يضاف إلى ذلك أسباب أخرى مثل تعطيل قايتباى إصلاح مجاري الماء
في دروب مكة ، ومثل نهب بعث هندى كان يحمل خنجراً من الماس

النفيس هدية إلى بايزيد . وقد أعاد قايتباى الخنجر وأرسل كذلك هدايا ورسالة ود ، ولكن رسوله أسيء استقباله فبدأت الحروب ، أغار العثمانيون على الحدود السورية بدون انذار سابق ، واستولوا على «طرسوس» و «أطنه» وغيرهما من المدن ، وتلت هذه حرب سجال . وفي آخر الأمر أحرزت مصر النصر في موقعة دموية قريباً من «أطنه» وحمل المصريون عدداً كبيراً من الأسرى ، ودخلوا القاهرة ظافرين يحملون رءُوس القتلى . وبعد ذلك بقليل بدأت الحرب ثانية ، وعند ذلك وقع الخلاف في ولاية «ذى الغادر» بين زعيمها وأخيه ، فعاضد قايتباى الزعيم وعاضد الباب العالى أخاه ، وعند هذا دخل جيش مصرى قوى آسيا الصغرى وأنزل بالأتراك ثانية هزيمة ساحقة لدى «قيسارية» ، ثم عاد بعدها إلى القاهرة ، ودخلها بالفرح والسرور ، حاملاً أعلام الأعداء منكسة ، ووراءه صف (طابور) طويل من الأسرى في السلاسل ، ومع هذا كان قايتباى لا يزال خائفاً جدَّ الخوف لئلَّا ينتقم منه بايزيد . ولما كانت خزائنه خاوية جداً ، والمماليك يطلبون مطالب باهظة ، هددهم ذات مرة بأنه يستقيل وقد انتشر كذلك القحط ، الذي زاده شدة عسف الباب العالى في فرضه الضرائب على مرور الحاصلات والمنسوجات ، وكذلك المماليك ، من الحدود السورية . وفي أثناء ذلك بدأت المخابرات بين البلاطين ، وخف غضب بايزيد لوصول وفد إليه ومعه أسارى الحرب والهدايا الملكية ، فعجَّل بالصلح ، لأنه كان في ذلك الوقت يتطلع إلى فتح بلغراد ، وبهذا تأخرت الحرب القاضية قليلاً .

[١٤٨٤ ـ ١٤٨٦ م]

[١٤٩٠ م]

[١٤٩١ م]

كان «قايتباى» مثل بيبرس ، مولعاً بالسفر ، وكان يصرف كثيراً من وقته في أنحاء مصر المختلفة ، وسافر إلى حلب وإلى نهر الفرات ، وأقام مدة في دمشق ولكنه لم يقد جنده مطلقاً ، وقد كان على وشك القيام بذلك مرة . وعلى أنه كان شحيحاً في الداخل قد بدد موارد الدولة على الأمكنة المقدسة في الخارج ، وعلى مدارسه في أمهات مدن الأقاليم . وقد بكى عند سماعه بتدمير مسجد المدينة بالبرق وصرف على عمارته من جديد مائة ألف دينار . وكان يعطف كثيراً على عرب اسبانيا ، وقد أراد أن ينجيهم مما

هم فيه من خطر ، فأرسل رهبان «كنيسة القيامة» كوفد إلى فردينند يهدده بأنه إذا لم يبق على غرناطة ، فان كنائس الشرق تهدم ، والحجيج إلى الأرض المقدسة يعطل . وفي نحو هذا الوقت خرج «قايتباى» حاجّاً الى مكة في موكب فخم ، واستقبل لدى عودته بالافراح الملكية ، ثم زار بعد ذلك بقليل الأماكن المقدسة في «حبرون» وبيت المقدس حيث فتح مدرسة . وقد استقبل استقبالاً ملكياً عند عودته إلى القاهرة حين افتتاح قلعته المسماة «قلعة قايتباى» في الإسكندرية ، ففرشت الطرقات بالبسط واستقبلت السلطانة زوجها العائد بفرش الطريق من باب القلعة إلى عتبة القصر بالحرير الموشى بالذهب ـ وفي هذا تناقض محزن لما فيه الناس من تعس شامل .

أما الأيام الأخيرة لقايتباى فمع أنها كانت سلماً في الخارج كانت أيام بؤس في الداخل ، فالطاعون ، شجا مصر ، نزل بالقاهرة بشكل مروع ، حتى مات بسببه في يوم وليلة اثنا عشر ألفاً ، وفقد السلطان المسكين زوجه الوحيدة وابنته أيضاً في يوم واحد ، وقد قضى على ثلث المماليك وارتجت المدينة لهوله ، وبعد عامين من هذا أهلك الطاعون قطعان الإبل التى هي قوام الإمبراطورية . وكان أشد المصائب التى نزلت في السنوات الأخيرة من حكم «قايتباى» النزاع الشديد الذي نشأ بين المماليك بقيادة قائدين متعاديين هما قانصوه «خمسمائة» واكبردي . وكانت القلعة مشهداً دائماً للقتال [١٤٩٤ والهياج واستولى اكبردي على أزمة الحكم ، ولكنه لما غلب على أمره ١٤٩٥ م- أخيراً ، فرّ بحياته إلى غزة ، فأخذ مكانه قانصوه ولما رأى قايتباى ظلام المستقبل ، وكان قد بلغ السادسة والثمانين من عمره لزم فراشه ، ورغب في [يوليه أن يكون ولده محمد ، وهو شاب في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من ١٤٩٦ م] عمره ، سلطاناً . ثم مات عقب ذلك بعد أن حكم تسعة وعشرين سنة ، [اغسطس] وهي أطول مدة بعد أيام الناصر .

وهو مدين بسلطنته الطويلة الأمد لسرعة جوابه ، ولمهارته في الإكثار من المماليك المخلصين حوله ، وقد قيدتهم بساحته مصالحهم الخاصة .

ولقد ارتكب قساوة وحشية في معاملاته : مثال ذلك أنه جلد بنفسه قائد قواته وسجنه في سجن ضيق بالقلعة حتى مات . ولم يجرد اليهود والنصارى من أموالهم فحسب ، بل تناول الأغنياء من أهل دولته بذلك . وكان أيضاً يأخذ من مال الأوقاف لسد حاجة الدولة ، وقد حاول إصلاح ذلك بفعل الخيرات في جهات أخرى . وبالاختصار كان سلطاناً عظيماً ومع أنه كان يقسو ويظلم أحياناً ، فهو على العموم مثال للمسلم الورع . وكانت له زوج واحدة وكثيرات من الجواري . وقد كانت أم ولده الذي خلفه على العرش جارية جركسية .

الفصل التاسع عشر
الناصر محمد الثاني ـ قانصوه الأشرفي ـ قانصوه جنبلاط ـ العادل طومان باي
١٤٩٦ ـ ١٥٠١ م

[اغسطس ١٤٩٦ م] نذكر الآن صحيفة كثيرة الإضطراب ، لأنه في مدى خمسة الأعوام التالية توالى على العرش خمسة سلاطين ، حكم منها محمد الثاني ابن السلطان المتوفي عامين ، وكان قاسياً خليعاً ، وقانصوه خمسمائة[1] (اشترى بخمسمائة دينار) بعد أن ألجأ خصمه «أكبردى» على الفرار كما رأينا وقد كان ، باعتباره أتابكا ، هو الحاكم الحقيقي . ولكي يتخلص من مقاومته أعلن العفو فصدقه الناس ودخلوا إليه ، فأمر بالقبض على الزعماء وأغرقهم في النيل .

ولما تخلص بمثل هذه الوسيلة وغيرها من حزب «اكبردى» كله ، تطلع بعد أشهر قليلة إلى العرش وجعل نفسه سلطاناً ، ولكنه لما حاول الإستيلاء على القلعة ردته عنها المقذوفات من فوق أسوارها وجرج ، ولما فشل كذلك في هجوم آخر فر هو وأتباعه إلى فلسطين فقابله «اكبردى» عند غزة ، وكان قد استدعى إذ ذاك إلى القاهرة ، وبعد قتال شديد بينهما كان النصر أولاً في جانب «قانصوه»ولكن ما لبث «اكبردى» بعد مساعدة السوريين

(١) عدد الأمراء الذين يسمون بهذا الأسم يدعو إلى شيء من الإرتباك . فهذا الذي نحن بصدده يسمى الخمسمئوى ثم يليه قانصوه الاشرفي وبعده بقليل يرد أسم السلطان قانصوه الغوري . وهناك آخر اسمه قانصوه الألفي الذي ساعد الخمسمئوى في مهاجمة القلعة . وهناك عدة غيرهم ، لأن الاسم كان محبوباً في ذلك الوقت .

له حتى تغلب عليه ، ففر ولم يعد يُرى فظن أنه قتل . ولكن لما لم يعثر على جثته ظلت القاهرة بضع سنين قلقة لورود أخبار بظهور هذا الطاغى المنتظر .
ولما أصبح أكبردى ثابت المركز ، دخل إلى القاهرة في وسط الأفراح العظيمة ، ولكنها أفراح لم تدم طويلاً ، لأن أسباب العداء بين الحزبين انتعشت واتخذ كل منهما علماً ملكياً لنفسه ، ونشب القتال بينهما بفظاعة ، واستمر عدة أسابيع كان النهب فيها عاماً ، والقتل كثيراً . ولما استفحلت الثورة هرب أكبردى فاقتفى أثره إلى سورية حيث كان يهاجم دمشق ، ولما عومل أخيراً معاملة الثائر لجأ إلى أحد أبناء «سيوار» في الشمال . [١٤٩٧ م]

أما السلطان فانه عندما صار شاباً بدأ حياة الخلاعة المتهتكة ، وكان المغنون والمغنيات هم رفاقه وصحبه في حفلات ليلية على النيل ، وكان هو ورفاقه ومماليكه يطوفون في الشوارع ، ويهاجمون الرجال في مرورهم ، ويدخلون البيوت تحت جنح الظلام . حتى اضطر الناس الى إنارة ابواب دورهم. ولم تكن المخدرات بمأمن من شرهم ، وبهذا فقد كل احترام واعتبار . وكان يغتصب المال من الناس بالسياط والتعذيب والكى ، كي يوفى به طلبات جموع رعاع المماليك الذين حوله . وفي آخر الأمر ، حين سئم محمد إفراطه هذا فكر في الهرب واللحاق بأكبردى ، ولكنه نُمَّ عليه ، وأخذت الهجين التى كانت تنتظره عند باب داره ووضعت عليه الرقابة كسجين ، في حين أن المماليك استمروا في طغيانهم وعسفهم بدرجة مفزعة حتى لم يأمن رجل على حياته . ولما كان ذلك السلطان الفتى مستهتراً بالنظام عاكفاً على دعارته الليلية انقض عليه «طومان باى» رئيس المالية في احدى الليالى ، وقطعه إربا ، وتركت جثته وجثث أتباعه في الطريق . وكان قد أقصى كل الطبقات من حوله ، فمات غير مأسوف عليه من أحد[1] .

---

(١) من المفيد أن تلاحظ في مقدمة (ويل) الجزء الخامس ص ٢٢ ان أحد الكتاب المعاصرين يمتدح هذا الشاب لكرمه ولفضائل أخرى . ولعل هذا لأن الكاتب ناله فضل كرمه . أما التفاصيل التى أوردها ابن أياس وغيره فانها لا تترك مجالاً للشك =

[اكتوبر ١٤٩٨ م]

خلف محمداً عمه قانصوه الأشرفي وهو مملوك جركسى كان اشتراه السلطان قايتباى ، ومن عجيب أمره أنه وجد بعد شرائه أنه أخ لزوج السلطان المسماة (أصيلباى) أم محمد . كانت سنه في هذا الوقت خمساً وعشرين سنة . ولما كان فوق طبقة المماليك العادية ، تمتعت القاهرة أكثر من المعتاد بالسكينة في حكمه القصير ، ولكنه أعوزته القوة التى يكافح بها الأمراء الغلاظ المتحزبين الذين حوله ، فقضى عليه بسرعة . ولقد عاضده حيناً صديقه «طومان باى» ، ولكن هوجمت القلعة في آخر الأمر فهرب في زى امرأة ، ثم قبض عليه في النهاية وأرسل إلى الإسكندرية سجيناً .

[يونيه ١٥٠٠ م]

أما السلطانان التاليان فكانا من أصل جركسى كسابقيهما ، وقد حكم كل منهما أشهراً قلائل . كان «جنبلاط» في سن الخامسة والأربعين ، وقد ناله شرف التزوج من أصيلباي[1] ، وقد حكم نصف سنة إلى أن زحف طومان باى قائد سورية على العاصمة ،واستولى على القلعة بعد قتال كبير وحيي بتحية السلطنة ، وعندها أرسل جنبلاط أسيراً إلى الإسكندرية ، وهناك جاء أمر طومان باى بجز رأسه .

[ابريل ١٥٠١ م]

انقلبت المحبة والاحترام اللتان كانتا لطومان باى في قلوب الناس من قبل إلى كراهية وذعر من جراء قسوته التى ارتكبها عند اعتلائه العرش . ومن الأمثلة على ذلك أنه خلع قاضى القضاة السابق الذي أقرّ ارتقاء السلطان المتقدم من عمله وشهر في الشوارع عارياً نصفه ، ثم غرم غرامة فادحة[2] .

= في حياة التهتك التى عاشها . وأنه إذا امتدحه أي كاتب معاصر فأنما يكون ذلك برهاناً على الهوة العظيمة التى سقطت فيها الأخلاق في ذلك العصر .

(١) كانت اصيلباى جارية في حريم قايتباى ؛ ولما ولدت له ابنا صارت أم ولد أو عتيقة والذي يذكر عنها أكثر من المعتاد ذكره عن نساء المماليك أنها كانت مثرية بدرجة أن استخدم في نقل متاعها إلى مسكنها الجديد ، مئات من البغال . وبعد موت جنبلاط سرقت أموالها وسيئت معاملتها على يد طومان باي .

(٢) استحلف جنبلاط عند ما سمع بعصيان طومان باي من جديد الأمراء والمماليك أمام الخليفة والقضاة على مصحف عثمان . وهذا أول ذكر صادفته لهذه النسخة =

وكذلك شتت الكثيرون وأغرق آخرون . وقد تزوج طومان باى من أرملة أخرى لقايتباى في احتفال فخم ، ولكن الفرح كان قصير الأمد ، ذلك لأن الأمراء انقلبوا عليه تدريجياً ، وهاجموه في القلعة ، ففرّ وعثر عليه مستخفياً في بيت أحد أصدقائه .

في هذه السنوات القليلة لا نجد ما نقوله سوى قصص القساوة واغتصاب الأموال والمظالم الدائمة والثورة في القاهرة وتكرر العصيان في سورية . وقد جاء أهم خطر من ناحية الغارات الدائمة التى قام بها البدو المغيرون الذين جعلوا مصر وسورية في ذعر دائم . وفي إحدى الفرص ، عندما نالوا ظفراً هددوا حتى القاهرة ، ولكن طومان باى ، قبل اعتلائه العرش ، اقتفى أثرهم في مصر العليا ، وقبض على قائدهم بطريق الخيانة وقطع رأسه . وبعد ذلك بقليل أجبر الجيش على الفرار وعاد ومعه ثلثمائة أسير شنقوا جميعاً وبيعت نساؤهم بيع الرقيق .

= المخطوطة بيد عثمان والتي وضعت بأمره في القاهرة كتلك التى فقدت اخيراً في المسجد الاعظم .

الفصل العشرون

قانصوه الغورى

١٥٠١ ـ ١٥١٦ م

[ابريل ١٥٠١ م] ذعرت المدينة عند اختفاء العادل طومان باي حين شاع ذكر ظهور قانصوه (ذي الخمسمائة دينار) ذلك السر الغامض . ولم تمض بضعة أيام حتى اختار الأمراء والمماليك قانصوه الغورى ، وهو مملوك جركسى ، خدم «قايتباي» كغلام وتابع له . وقبل أن يصير (رئيساً لعشرة) كانت سنه تزيد على الأربعين ، وبعد ذلك رقى بسرعة إلى قيادة «طرسوس» و «حلب» و «ملطية» ، ثم صار أميراً لألف ثم كبير الأمناء ، ثم رئيس الوزراء . وقد رفض العرش في أول الأمر ، ولكن الأمراء ألحوا عليه بقبوله بعد أن أقسموا له على الإخلاص في خدمته ، فقبله أخيراً ، وكانت سنه إذ ذاك ستين عاماً ، غير أنه كان لا يزال ثبتاً شديداً ، ولم يلبث أن أظهر للأمراء أنه ليس بالشخص الذي يخضع لأي واحد منهم .

بدأ حكمه كالمعتاد بطرد شيعة «طومان باي» . ولما كانوا خطراً يهدد العرش قبض عليهم وسجنوا أو نفوا ، وصودرت أملاكهم . ثم وهب الحرية والقوة للحزب المعادي لهم ، وعينهم في الوظائف . وقد وجُد «طومان

---

(١) عندما نقترب من نهاية تاريخ هذا العصر تعوزنا تفاصيل المقريزى وابي المحاسن الممتعة ونحن مدينون على كل حال لابن أياس الذي يقص أخباراً واضحة ولكنها ليست مسهبة مفصلة مثل أخبار سابقيه . وتوجد أيضاً مخطوطات عربية وتركية تكمل تاريخ هذا العصر ولكنها ليست مجزوما بثقة مصدرها .

باي» في مختبئه يدبر المكائد للسلطان الجديد . وبعد بضعة أسابيع خانه أصدقاؤه وأمكنوا منه مماليك أمير كان قد قتله ، فقتلوه ، وبهذا نجا «قانصوه» من الخطر من غير أن يثير كراهية شيعة سلفه ، وأحضرت أيضاً من الإسكندرية وفاة «جنبلاط» الذي قتله «طومان باي» ، ودفنت بالقاهرة باحتفال ملكي .

ولما زال الخطر الذي كان يهدد «قانصوه» وقتئذ ، التفت إلى تدبير موارد الدولة وأراد أن يملأ الخزانة ، ففرض ضرائب اجبارية على كل أنواع الممتلكات كانت نسبتها تبلغ ما يساوى دخل مدة تتراوح بين سبعة أشهر وعشرة ، ولم يستثن أملاك الوقف أو الخيرات . ولم يعرف هوادة ولا رفقاً في سبيل جباية هذه الضريبة ، ليس من اليهود والنصارى فحسب ، بل من كل الطبقات ، فولد ذلك الثورات في المدينة ، وصار جامع الضرائب في القاهرة يرشق بالحجارة ، وقد ذبح حاكم دمشق في إحدى المشاجرات . وعلى ما كان يجبى من ضرائب التجارة المرهقة والبضائع ، نقصت قيمة العملة الفعلية . وفرضت رسوم ثقيلة على الموتى حتى كان الذي يتبقى لقرابة الميت قليلاً . وقد ارتأى أحد المستشارين قصيرى النظر فرض ضريبة على المماليك ، فوافقه السلطان عليها أولاً ، ولكنه أسقطها عنهم عندما ثار ثائرهم وأزعجوه ، ولم يكتف باسقاطها بل سمح بقطع لسان مبتدعها الذي جرد من ملابسه ووضع على جمل وشهر ، ثم جلد ورجم حتى أشرف على الهلاك . وفي هذا دليل واضح على الوحشية السائدة وعلى غلظة كبد السلطان ، وعلى نظر المماليك بعضهم إلى بعض ، ومكانة الواحد منهم عند الآخر .

أما الأموال التى جمعت من الناس على الوجه المتقدم فكانت تصرف بسخاء ، في أول الأمر على المماليك الذين ساعدوا في جمعها ، ثم بعد ذلك على شراء عدد كبير من المماليك الذين كان يثق بهم السلطان كثيراً ، لأنهم حديثو عهد بالبلاد . ثم صرف كثيراً من المال على الإصلاحات العامة ، وتحصين الإسكندرية ورشيد وغيرهما ، وعلى مجاري الماء في

مصر ، وبناء مسجد فخم ومعهد في القاهرة ، وإقامة مباني جديدة في القلعة كانت وقتذاك تحاط بالاشجار الكثيرة والازهار الواردة من سورية . وكذلك كان يصرف من إيراد الدولة الشيء الكثير على تجميل «مكة» وزيادة المياه في طريق الحاج ، وعند القبور المقدسة . ولكن كل هذه النفقات لم تكن شيئاً مذكوراً بجانب فخامة «بلاط» ذلك المملوك الذي اشترى بالأمس من النحاس ، وبذخه وبهائه .

وقد ظل هذا البلاط على أحسن ما يكون فخامة وأبهة في الأثاث والرياش والخيل وكل ما يحيط به . وقد استعمل الذهب الدقيق الصنع ليس في مائدة السلطان فحسب بل في كل أرجاء القصر ـ وكما يقال ـ حتى المطبخ . أما لباس السلطان وأداة زينته فقد جملت بكل ما غلا ثمنه وجمل ، هذا إلى الشعراء والمغنين والموسيقارين والقصاصين الذين احتشدوا في البلاط ونعموا على حساب اليتامى والفقراء[1] .

وليس هناك شيء كثير جدير بالذكر عن السنوات الأولى من حكمه ، ولا بد أن تكون مظالم مماليك السلطان قد أصبحت لا تحتمل ، لأنه حدث مرتين أنه عندما حلف له أمراؤه يمين الطاعة ، أقسم قانصوه نفسه على مصحف عثمان بأنه لا يسمح لمماليكه بايذائهم . وكذلك نقرأ عن خيانة ظن أنها وقعت ، فكان العقاب عليها يفوق وحشية وقسوة كل ما سبق من أنواع الجزاء[1] . ولم يحدث شيء كثير من القتال إلى آخر عهد المماليك ، وغاية ما يقال أن البدو قاموا بغاراتهم المعتادة ، فهاجموا «الكرك» و «بيت المقدس» ، ولكن أمراء «سورية» ردوهم على أعقابهم وقد دعت الثورات في

[١٥٠٤ ـ ١٥٠٥ م]

(١) هكذا يقول ابن إياس الذي شاهده بنفسه . وعلى هذا يمكن الإعتماد عليها مع ما عساه يكون فيها من بعض المبالغة .

(٢) قد مات أحد الضحايا تحت التعذيب الأليم الذي أوقع به كي يتعرف بأشياء أكثر مما اعترف بها . وقد لف نسيج مغمور في الدهن حول أصابعه وأحرق . وقد عصبت جبهته بشدة حتى جحظت عيناه ، وهلم جراً .

[١٥٠٣] مكة «وينبع» وتنافس الأحزاب فيهما ، إلى أخذ الأهبة لمعاقبة الحكام واعادة النظام . وقد بذل السلطان اهتماماً كبيراً في اعداد أسطول لحماية البحار الشرقية من غارات البرتقاليين .

وكان ذلك هو الوقت الذي عبر «فاسكو دا جاما» ، بعد أن كشف في عام ١٤٩٧ الطريق حول «رأس الرجاء الصالح» وحصل على ملاحين من ساحل «زنجبار» ، المحيط الهندي إلى شواطىء «ملبار» و «قاليقوط» وهاجم الأساطيل التى كانت تحمل المتاجر والحجاج من الهند إلى البحر الأحمر ، وأوقع الرعب في قلوب حكام تلك الجهات . وهنالك طلب أمراء «جوزيرات» واليمن المساعدة من مصر فجهز السلطان أسطولاً عدد وحداته خمسون ، بقيادة أمير البحر «حسين الكردى» . وقد سخر الناس في تحصين «جدَّة» لتكون ملجأ من البرتقاليين وحمى بلاد السعيدة والبحر الأحمر . ولكن بقيت الاساطيل التي كانت في المحيط تحت رحمة العدو . وقد وقعت معارك مختلفة ، أخذ في إحداها البرتقاليون سفينة مصرية تخص قانصوه ، كما أخذوا في العام التالي أسطولاً مكوناً من سبع عشرة سفينة بعد معركة هائلة ، واستولوا على حمولتها ، وذبحوا التجار والحجاج ، وأحرقوا السفن . وقد استاء السلطان وغضب لمهاجمتهم البحر الأحمر ، وضياع المتاجر والضرائب ، ولتعرض مكة وميناَئها للمهانة ، وفوق كل هذا لما أصاب سفينته ، ونذر أن ينتقم من البرتغال شرَّ انتقام . ولكنه في بداءة الأمر هدد البابا بواسطة رئيس كنيسة بيت المقدس بأنه إذا لم يقف «فردينند» ومانويل عن اعتدائهم على البحار الهندية فإنه يدمر كل أماكنه المقدسة ، [١٥٠٨ م] ويعامل المسيحيين كما يعاملون هم المسلمين . ولما فشل في طلبه هذا قام [١٥٠٩ م] بالاستعداد بمشروع بحري بكل همة ونشاط ، فنجح بعض النجاح إذ أنه في [١٥١٣ م] إحدى المعارك غلب «لورنزو الألميدي» وقتل ، ولكن في العام التالي انتقم البرتقاليون لهزيمتهم من أسطول المصريين انتقاماً مروعاً . وبعد بضع سنين أخذ «الفونسو البوكرك» «عدن» وحاقت المصائب بالجيوش المصرية في اليمن ، وعند ذلك أعد «قانصوه» أسطولاً جديداً لمعاقبة الأعداء ولحماية

التجارة الهندية ، ولكن قبل ان تُعلم نتيجة هذا الاستعداد فقدت مصر سيادتها وصارت «مكة» والبحر الأحمر وجميع مصالح البلاد العربية إلى أيدي العثمانيين .

وكان نجم السلطان حينذاك آذناً بأفول . ولم يكن هناك ما يجدر ذكره عن الباب العالى . ومع هذا كانت الضربة القاضية قريبة جداً .

انتهت الحرب الأخيرة (١٤٩٠) كما رأينا بهزيمة الجيوش العثمانية ، ثم رجع السلم بين الدولتين ، واستؤنف ارسال الوفود بالهدايا الغالية ، ومع هذا كانت أسباب النفور منذرة ، إن قريباً وإن بعيداً ، بخطر محدق بسبب مساعدة هذه الحكومة أو تلك للأمراء المتنافسين في آسيا الصغرى وعلى حدود سورية . وبينما كان «بايزيد الثاني» لا يزال مشتغلاً في أوربا ، إذ ظهر سبب جديد لمعاداة مصر ـ نشأ هذا السبب من علاقات الدولتين بالأسرة «الصفوية» في الشرق ـ ويجب علينا أن نعرج عليها الآن :

كان السبب المباشر في قطع العلائق هو «الشاه إسماعيل الصفوي» وهو من سلالة صفى الدين ، وإليه ينسب ، ومنه أخذ الإسم ، وهو صوفى بلدة «إردبيل» المشهور . وقد انتشرت تعاليمه الصوفية خاصة في القرن الرابع عشر في إذربيجان . وقد نال بيته بسرعة نفوذاً كبيراً . ولما طاردهم أهل قبائل «الوير الأسود ـ قره قيون» التركمانيون أعانهم أهل «الوير الأبيض ـ آق قيون» أي الشاة البيضاء التركمانيون أيضاً الذين ارتبطوا معهم برابطة الزواج حتى أن إسماعيل الشاة كان سبط «أوزرن حسن» زعيم « آق قيون» ولما بدت العداوة وقتل والد اسماعيل في معركة مع «الوير الأبيض» وكان إسماعيل إذ ذاك لا يزال طفلاً فحمل مع الأسرى إلى «اصطخر» ومنها هرب إلى «الحيجان» حيث بقى مستخفياً بين قرابته ، وأشرب قلبه مذهب أجداده فاعتنقه بغيرة حماسية حتى صار رئيساً لطائفة الصوفيين ، ثم جمع شيعة حوله وصمم على الإنتقام من قتلة أبيه ، فقاتل زعيم «الوير الأبيض[1]»

(١) يمكن أن يستخلص التعصب الشديد في مذهب إسماعيل من قصة مؤداها أن جثة أحد =

وهزمه ، ثم استمر في فتوحه وصار ذا سطوة عظيمة في فارس وخراسان ، وكذلك في بلاد ما وراء النهرين . ولما عاد إلى أذربيجان صار خطراً يهدد الدولة العلية ، ليس بفتوحه على حدودها بل بتغالى شيعته في معتقدهم . وكان «بايزيد» قد قبض على كثير من الصوفيين في بلاده وسجنهم أو نفاهم لأنهم كانوا خطراً على حكمه . وقد التمس الشاه إسماعيل من بايزيد أن يسمح لشعبه بالعبور من البسفور إلى أوربا بدل قتلهم ونفيهم ، فرفض بايزيد هذا الملتمس رفضاً باتاً ، فأرسل «إسماعيل» بعثاً إلى البنادقة يدعوهم إلى مشاركة جيوشه في استرداد الأقاليم التي أخذتها منهم الدولة العلية .

وقد غضب بايزيد من السلطان . واظهر مر الشكوى من أنه سمح لذلك البعث بالمرور من سورية ، فأراد «قانصوه» أن يترضاه فسجن البنادقة الذين كانوا إذ ذاك في مصر وسورية . ومع أنه أطلق سراحهم بعد سنة لخوفه من إنتقام البندقية ، بقيت العلائق بين مصر والدولة العلية سليمة حيناً ما .

ولما جلس سليم (العثماني) على العرش تغيرت الحالة ، وأخذت مجرى آخر ، إذ كان موقف إسماعيل مهدداً جداً ، وكان سليم نفسه فارساً معلماً محباً للحرب أكثر من أبيه ، يضاف إلى ذلك أن قام «إسماعيل» الذي حاول عبثاً أن يستميل «قانصوه» لمؤازرته ، يعضد «أحمد» الذي ادعى العرش بعد أن ائتمر بسليم أخيه . وزيادة على ذلك خاف «سليم» رعاياه الشيعيين الذين كانوا يميلون إلى متعصبي الصوفيين ، وعدَّهم خطراً على العرش فقبض عليهم وقتلهم . وقد رأى إسماعيل أن في قتل شيعته معرة له فأخذ ينتقم لهم ، وصار لا مناص من الحرب ، فخرج إليه سليم ونازله في معركة «قرب تبريز» ، وقد أبدى الشيعيون المتعصبون بأساً شديداً وشاركهم نساؤهم في الحرب ، ولكن لم يجدهم ذلك شيئاً أمام فرسان الأتراك ومدافعهم ، وشدة بطشهم ، فهزم رئيسهم إسماعيل هزيمة مخزية وهرب . [١٥١٣ م]

= أعدائه حمرت (شويت) وأكلها أتباعه . ويقال أيضاً أنه أمر بتربية خنزير سماه «بايزيد» وهو أكبر احتقار عند المسلمين .

أما سليم فقد أعوزته الميرة فقفل راجعاً نحو الغرب وأشتى في «أماسية» . [١٥١٤ م]
وفي الربيع عاد إلى الميدان وهاجم صاحب «ذى الغادر» الذي وقف على [١٥١٥ م]
الحياد لأنه تابع لمصر ، فقتله وأرسل رأسه مع أخبار انتصاره إلى قانصوه .
ثم انصرف «سليم» عن الشاه الذي كان قد عاد أدراجه إلى «تبريز» وحاول عبثاً أن يعقد الصلح ، واكتسح «ديار بكر» و «الجزيرة» وأخذ «الرّها» و «نصيبين» و «الموصل» وغيرها من المدن .

ولما كان سليم الآن بمأمن من «إسماعيل شاه» فكر في الاقدام على مشروع عظيم هو فتح مصر ، ورأى وجوب البدء بغزو سورية . وبما أنه لم يكن هناك ما يشغله من جهة الشمال ، رأى أنه من المستطاع أن يتقدم آمناً ، ولذلك جهز لهذا الغرض جيشاً عظيماً منظماً في ربيع عام ١٥١٦ م. وأراد أن يخدع مصر فتظاهر بأن ما يقوم به من الإستعداد إنما هو لاتمام القضاء على «إسماعيل» . وكان الواجب على «قانصوه» أن يتيقظ للخطر من قبل ، لأن أسباب توتر العلائق بين تركيا ومصر زادت كثيراً ، ذلك لأن أخاً آخر لسليم خرج عليه ثم التجأ إلى مصر فقبلته ، ولأنه بعد وفاة أحمد أمدَّ السوريون ابنه الصغير ومعه حاشيته الخارجون بما يلزمهم ، ولأن الامراء التابعين لمصر كانوا قد أخرّوا ورود المدد للجيوش العثمانية في حربهم مع الفرس ، وفوق هذا قد تم الإتفاق سراً بين سلطان مصر وبين إسماعيل وإن لم يكن في معاهدة علنية . لم ينتبه قانصوه بل أضاع على نفسه الفرصة ، لأنه لو ساعد الأمير الصوفي بسيفه من أول الأمر لكان خيراً له ولجاءت النتيجة على عكس ما وقع بعد ، ولكنه من غير شك لم يكن يرد بذلك الأتفاق الذي عقده مع إسماعيل أن يشجع المذهب الذي يكرهه كل العالم الإسلامي . وقد كان قانصوه قد أسَنَّ واعتمد على الأحزاب المحيطة به فلم يكن بأي حال قادراً على الحرب .

وأخيراً انتبه قانصوه إلى الخطر الذي يتهدده ، فقضى شتاء عام ١٥١٥ وربيع عام ١٥١٦ في اعداد جيش قصد أن يسير به إلى أطراف آسيا الصغرى

الثائرة ، وبذا أصبح متأهباً لكل الطوارىء . ولما كان على وشك الخروج بجيشه جاءه وفد من لدُنْ «سليم» يعده بشكل ودى ، أنهُ يسمح له أن يعين حاكماً مصرياً لولاية «ذى الغادر» ، وأن يستأنف فتح الحدود كما كانت لمرور التجارة والمماليك .

وقد خرج «قانصوه» من القاهرة بجيشه الكبير المجهز بجميع المعدات عدا المدافع في حمارَّة الصيف ـ بعد أن ترك «طومان باى» حاكماً على المدينة ـ في أبهة ، تتقدمه الموسيقى والأغانى والأفراح ، وتبعه خمسة عشر أميراً لألف ، عدا كثير من الأمراء الذين هم أقل مقاماً من هؤلاء ، وخمسة من مماليكه مع عامة الجيش وكان ينضم إلى هذا كله أثناء المسير فرق كثيرة من البدو والسوريين ، وعلى هذا لم يكن الجيش في حاجة إلى المزيد من الجند(١) ، وكذلك خرج في موكبه وزراء الدولة والخليفة والمشايخ ورجال الحاشية ومعهم المؤذنون والأطباء والموسيقارون .

[١٨ مايو ١٥١٦ م]

وقد ضم إليه في الطريق ابن «أحمد» العثماني المطالب بالعرش المتوفي واحتفل به ، على أمل أن يستميل المحبين له من الجيوش العثمانية . وتقدم على مهل ودخل دمشق في أبهة ، وقد فرشت في طريقه البسط في حين أن التجار الأوربيين نثروا الذهب على المحتشدين حوله . وبعد أن أقام أياماً تقدم نحو حلب متباطئاً ، واستقبل في «حمص» و «حماه» بمظاهر السرور . وجاءه في تلك الأثناء رسول آخر من معسكر العثمانيين ، وقدم له ، على سبيل التغرير به ، هبات غالية له وللخليفة أيضاً ولكبير الوزراء . ثم عرض أن «سليماً» يطلب شيئاً من السكر المصري والحلوى . ثم أشار من طرف خفي إلى أن الذي ألجأ «سليماً» إلى الاستعداد للحرب ثانية والنزول إلى ميدان القتال هو صدور فتاوى شرعية ضد «إسماعيل»

---

(١) وتقدر قوة الجيش المصري العادي بنحو ٢٦ أميراً لألف عدا مماليك أمراء المائة وأمراء العشرة . ويقال أن قانصوه اشترى ثلاثة عشر ألفاً من المماليك ، ترك منهم في القاهرة الفين لحماية القلعة .

المرتد ، فأرسل قانصوه وزيره «مغله بك» في وفد بهدايا في مقابل تلك ، ولكن في اللحظة التي وصل فيها إلى المعسكر العثماني كان «سليم» قد خلع رداء السلم وأعلن غرضه الحقيقي ، ولما أراد أن يظهر احتقاره للمصريين عامل الوفد معاملة مشينة ، ورد الوزير مقصوص الشعر ، محلوق اللحية ، راكباً حيواناً أعرج بشعاً ، والباقين سائرين على الأقدام .

وقابله في «حلب» «خير بك» الحاكم مقابلة فخمة جداً لأنه أراد أن يخفى خيانته وهي انضمامه سراً إلى الباب العالي ، ومع أن السلطان وصله نبأ هذا من حاكم «دمشق» لم يصدقه . أما الأهلون فقد غضبوا كثيراً من المماليك لما أتوه في مدينتهم من المظالم . عاد «مغلة بك» في حالة مشعثة وأخبر السلطان بموقف «سليم» العدائى ، وباقتراب الجيوش التركية سريعاً ، فزال عندئذ كل شك في موقف العثمانيين . واستحلف قانصوه الأمراء وكبار القضاة والمماليك السلطانية على الطاعة من جديد ، ووزع عليهم الهدايا أيضاً فاستاء جد الإستياء المماليك الآخرون الذين لم يعطوا شيئاً . ثم حذر السلطان ثانية من خروج «خير بك» قائلاً له إن هذا العمل في هذا الوقت خطر جداً ، فلم ينفذ عزمه[1] . تقدم عند ذلك الجيش وعسكر في اليوم العشرين من شهر أغسطس في سهل «مرج دابق» على مسيرة يوم شمالي «حلب» وانتظر قدوم العدو . وفي ذلك السهل كان سيتقرر مصير الأمبراطورية المصرية . وقد قاتل المصريون قتال الأبطال ، عدا المماليك السلطانية الذين أراد السلطان أن ينجيهم من هول ذلك اليوم بتأخيرهم عن الصفوف الأولى . وقد تحرج كثيراً في وقت ما موقف الترك حتى إن «سليماً» فكر في التقهقر ، ولكن لتفوق العثمانيين في العدد والمدافع نالوا النصر في آخر الأمر ، وقد عجل بهذا النصر تقهقر «خير بك» بجيشه فولى المصريون الأدبار نحو دمشق لأن أبواب «حلب» قد أوصدت في وجوههم . أما

---

(١) مع أنه قتل بعض الأمراء الذين خدموا «سليماً» على كره منهم ثم فروا من جيشه عندما امكنتهم الفرصة . وقد كان موقف «خير بك» خطراً جداً .

الخليفة وبعض كبار الأمراء فقد انحازوا للعدو . وقد قتل «قانصوه» في هذه المعركة وحمل رأسه إلى الفاتح[١] .

وقد دخل «سليم إلى «حلب» ظافراً ، فرحّب به الناس باعتباره منقذاً لهم من مظالم المماليك وعسفهم . وقد أكرم مثوى الخليفة ، ولكنه وبخ القضاة ـ الحنفية وحدهم هم الذين فروا ـ لعدم إمكانهم وقف فوضى المماليك . ثم أخذ معه «خير بك» وضباطاً مصريين آخرين وتقدم نحو القلعة التى قد هرب منها قائدها واللاجئون إليها ، وهنا أراد أن يظهر احتقاره لرجال حاميتها فأرسل أمامه جندياً أعرج ومعه عصا ففتحت له الأبواب في الحال .

وقد وجد في القلعة نفائس كثيرة كان قد وضعها السلطان والأمراء خوفاً عليها ، فأصبحت لا حارس لها[٢] ، ثم سار سليم وسط أفراح واحتفال إلى المسجد الكبير فدعى له فيه في الصلاة . ثم سار مظفراً من حلب إلى دمشق حيث انتشرت أشد حالات الذعر بين الناس الذين لم يحاولوا عمل شيء لمقاومة العدو ولحماية المدينة أكثر من إرسال الماء في السهل الذي حولها . وقد شل سير أعمالهم تنازع الأمراء فيما بينهم ، كما هو دأب أمراء المماليك ، وقد فكر بعضهم في تولية «جان بردي» عرش السلطنة ، وفكر آخرون في إجلاس «ابن قانصوه» . ولكن عند اقتراب العثمانيين ذهب فريق إليهم وفر فريق إلى مصر ، ودخل «سليم» المدينة حوالى منتصف اكتوبر ، وقد اغتبط به السكان من عظيمهم لحقيرهم اغتباطاً لا يحيط به الوصف ، وخضعوا بسرعة للفاتح العثماني تخلصاً من عسف المماليك .

---

(١) وتختلف الروايات في هذا ؛ فقد أذاع «خير بك» خبر موته ليزيد في فرار المصريين وقيل أن السلطان وجد حياً في الميدان فقطع رأسه ودفن منعاً لوقوعه في يد العدو . ورواية العثمانيين أن الذي قطع رأسه تركي فأراد سليم أن يقتله ولكنه عاد فعفا عنه .

(٢) المبلغ العظيم الذي يذكرونه هو مائة مليون قطعة من الذهب .

حكم قانصوه ما يزيد قليلاً على خمس عشرة سنة . ولسنا نعرف الكثير عن حياته الخصوصية وإدارته الداخلية ، لأننا عندما نصل إلى الأيام الأخيرة للسلطنة المصرية تقل لدينا التفاصيل بدرجة لا يصح الحكم بموجبها . وما يقال في غير مصلحته أقل جداً مما يقال عن أكثر السلاطين السالفين ، وذلك رغم قسوته واغتصابه الأموال كما رأينا .

الفصل الحادي والعشرون
الأشرف طومان باي
١٥١٦ ـ ١٥١٧ م

[سبتمبر اكتوبر ١٥١٦ م] وصلت أخبار الهزيمة وموت «قانصوه» إلى القاهرة في أوائل سبتمبر ، غير أن النتيجة المخزية التي كانت قريبة لم يدركها الحكام أو الأهلون الاّ بعد وقوعها ، وعندما وقعت لم يفلح «طومان باي» الأمير الحاكم بعد صعوبة كبيرة في إيقاظ المماليك وتنبيههم إلى الخطر المحدق بالأمبراطورية ، حتى بارشائهم كي يقوموا بواجب الدفاع عنها . وهذا يدل على فقدان الوطنية في هؤلاء المماليك . وقد انسلخ شهر قبل أن تتحد الإجراءات لانتخاب خلف لقانصوه ، وذلك لانتظار عودة أمراء سورية ، وأخيراً وقعت الخيرة على «طومان باي» فرفض هذا المنصب مدة طويلة ، ثم أقنعه بوجوب قبوله شيخ شريف كان مقيماً بقرب المدينة ، بعد أن جعل كل الأمراء يقسمون له على الطاعة ويقرون له بالخضوع . وطومان باي ، مثل أسلافه ، كان في ميعة شبابه مملوكاً في القصر[١] وارتقى تدريجاً إلى أمير مائة ثم إلى رياسة الوزراء وبقى فيها إلى خروج قانصوه للحرب فعهد إليه بالقاهرة وحكم مصر ، وإذ [١٧ اكتوبر] كان الخليفة تخلف مع سليم أقرَّ ابنه على السلطنة «طومان باي» ولكن بدون احتفال أو أي مظهر من مظاهر الأبهة ، لأن الخاتم الملكي قد فقد في المعركة . وقد كان منصباً مظلماً لا يستحق الشكر هذا الذي ناله طومان باي وهو في سن الأربعين ، لأن سورية قد ضاعت ، ولأن الجيوش تفرقت ،

---

(١) وبما أنه كان مملوك السلطان المتوفي فقد سمي بابن قانصوه .

والأمراء شتتوا والمماليك كانوا فئة طاغية ، ومع هذا حكم حكماً حسناً في المدة التى قبض فيها على صولجان الملك ، وكان محبوباً في البلاد جميعها .

[نوفمبر وديسمبر] وعلى توالى الأيام وصل إلى القاهرة من «دمشق» الأمراء الهاربون ومعهم «جان بردي» ، ومضى شهر آخر قبل أن يلتئم شمل الجيوش المشتت ، وفي تلك الأثناء سقطت في أيدي الأعداء «طرابلس» و «صفد» وغيرهما من المعاقل السورية ، وقد حل أول ديسمبر ولم تخرج للقاء العدو القوة التي جمعت في القاهرة بقيادة «جان بردي» «كي تنفذ غزة» وكان قد اخرّ مسيرة هذه القوة ، ونقّص عددها الطلبات الجشعة التي طلبها المماليك . وقبل ان تصل هذه الحملة الى حيث قصدت كانت غزة قد سقطت ورد الجيش على اعقابه مهزوماً . وفي خلال غياب «جان بردي» وصل وفد من قبل «سليم» يطلب إلى السلطان أن يعترف بأن تكون السكة المضروبة باسمه وبالدعاء له في الصلاة ـ وقد فعل ذلك معتزاً بتعلق الخليفة به ، وبانضمام القضاة والقواد الذين إنحازوا إليه ـ وقد قال على لسان وفده : «افعل هذا تسلم مصر ، وإن لم تفعل فسآتي لأزيلك أنت ومماليكك معك من وجه الدنيا» . ومع أن هذا الوفد لقى سخرية وأذى في المدينة ، كان السلطان يميل إلى إجابة طلب الدولة العلية ، ولكن غلبه على حكمته أمراؤه المفتونون ، فقتل رجال الوفد .

وعند ذلك تعاقبت أخبار المصائب الواحدة بعد الأخرى ، وشمل المدينة الفزع والرعب واليأس ، وقد كانت خيانة «خير بك» وكثير من الأمراء الآخرين سبباً في جعل الموقف حرجاً مظلماً ، وقد جاء سكان «غزّة» نبأ كاذب بانتصار المصريين ، فهاجموا الحامية التركية فأمر سليم بذبح كثير منهم . وقد زاد الظلام حلوكة خبر الخيانة التي ارتكبها «جان بردي» ، وأسوأ من هذا كله أنه ، بعيد ظهوره ، عزا الهزيمة إلى كثرة الأعداء وإلى جبن رجاله المدربين في حين بدأت في هذه اللحظة تتجلى الشكوك المحيطة

بأمره . وعند ذلك عقد السلطان العزم على أن يخرج بنفسه إلى «الصالحية» ليقابل الأتراك الذين أنهكهم سيرهم في الصحراء . وفي آخر الأمر خضع لرأي أمرائه الذين رأوا أن يخندقوا عند «الريدانية» التي تبعد عن المدينة قليلاً .

وفي هذا الوقت وصل العثمانيون إلى العريش وتقدموا عن طريق الصالحية وبلبيس إلى «الخانقاه» من غير أن يلقوا مقاومة . وفي اليوم العشرين من شهر يناير وصلوا إلى «بركة الحج» وهي على مسافة ساعات قليلة من العاصمة . وبعد يومين من ذلك اعترضت صلبَ الجيش الخنادق المصرية ، في حين إن فرقة من العثمانيين جاوزت تلال المقطم واكتنفت المصريين فنشبت معركة قاتل فيها طومان باي قتال الأبطال ، وبلغوا خيمة السلطان ، ولكن في آخر الأمر بوغت المصريون ، وزحزحوا من مواقفهم ففروا مسافة ميلين نحو الجنوب ازاء النهر ، فدخل العثمانيون المدينة من غير أن يلقوا مقاومة ، واستولوا على القلعة وذبحوا رجال الحامية الجركس جميعاً ، في حين أن كل الشوارع كانت مسرحاً للهياج المفزع . وقد احتل «سليم» بنفسه جزيرة قرب بولاق . وفي اليوم التالي دخل وزيره المدينة ، وحاول أن يوقف فظائع الجند . أما الخليفة الذي جاء في بطانة سليم فقد أقام الصلاة العامة ودعا لسليم[1] .

وقد استمر النهب والهياج . ووضع الأتراك أيديهم على كل ما وصلوا إليه ، وهددوا الناس بالموت إذا لم يدفعوا لهم فداء كبيراً . وقد اضطهد الجراكسة في كل ناحية ، وذبحوا بدون رحمة ، وعلقت رءوسهم حول ميدان القتال . وبعد أيام دخل «سليم» المدينة ومعه الخليفة الذي بدأ حينئذ

---

(١) قد أورد ابن إياس دعاء الخليفة ومؤداه ما يلي : ياالله أحفظ السلطان ملك البرين والبحرين وهازم الجيشين وملك العراقين وحامي حمى الحرمين «الشريفين» المولى الأعظم «سليم شاه» وآته اللهم معونتك ونصرك ياإله الدنيا والآخرة يامن له ملكوت السماء والأرض .

تأثيره يظهر إذ وقفت بمساعيه الفظائع الوحشية ، وبدأ السكان يشعرون ببعض الطُّمأنينة .

وفي الليلة التالية ظهر «طومان باي» واستولى هو وحلفاؤه من العرب على المدينة التى لم تكن محصنة تحصيناً تاماً ، وطردوا العثمانيين في رابعة النهار بعد أن كبدوهم خسائر عظيمة . وقد كانت الخنادق محفورة عند الطرق المؤدية إلى المدينة . وفي يوم الجمعة دعي في الخطبة باسم سلطان مصر ثانية . ولما جن الليل وكاد ينتصف عاد العدو في جموع كثيرة وشتت شمل المماليك حتى انزووا في مخابئهم ، فهرب السلطان عبر النهر إلى الجيزة ووجد له ملجأ في صعيد مصر .

ولما قنع سليم بهذا الظفر عاد إلى جزيرته ، ورفع فوق خيمته راية حمراء بيضاء ، اشارة إلى العفو عن الناس جميعاً إلاّ المماليك ، وقد أمر باقتفاء أثرهم ، وأصدر إعلاناً ينذر فيه بقتل كل من يؤويهم إليه ، فكشف بهذه الوسيلة عن ثمانمائة حزت رءوسهم . وقد عُفى عن كثير من أهل المدينة لشفاعة الخليفة لهم ، وكان مركزه الآن أهم من مركز كل خليفة في عهد السلطنة المصرية . وقد استقبل «سليمٌ» ابنَ قانصوه استقبالاً ممتازاً ، ومنحه المدرسة التى بناها أبوه لتكون له مسكناً . وبعد ذلك بقليل وسع عفوه الأمراء المستخفين ، فلما ظهروا وبخهم ثم وزعهم على غرف سجن القلعة ، ولم يستقبل من المماليك أحداً بإكرام كما استقبل «جان بردي» الذي قاتل باستبسال في معركة «الريدانية» والذي ارتمى الآن على أقدام سليم ، ثم جعل له القيادة في مقاتلة البدو[1] . ثم حصن سليم القلعة واتخذها مسكناً له بعد أن جعل على مدخل بابها الكبير فصيلة من الجند لحمايتها .

(١) يوجد خلاف كبير بين المؤرخين : هل انضم «جان بردى» إلى العثمانيين علانية أو أنه انضم إليهم لاصطدامه معهم . والمفهوم أنه ظل مخلصاً حتى معركة الريدانية ؛ ولما رأي أن الفشل واقع بالمصريين حتماً ، انحاز إلى جانب الترك حوالى ختام شهر يناير .

وقد وقف «طومان باي» موقف المهاجم ثانية ، وأصبح موقفه مهدداً خطراً بفضل مؤازرة المماليك والبدْو له ، وقطع ورود المدد والذخائر من الوجه القبلى إلى العثمانيين . وفي آخر الأمر حين ملَّ طول النزاع عرض على «سليم» رغبته في الإعتراف بسيادة الباب العالى إذا جلا الغزاة عن الديار المصرية ، وعلى ذلك أوفد إليه «سليم» الخليفة وأربعة من القضاة مع مندوب تركي ، للاتفاق معه على شروط ، ولكن الخليفة كره القيام بهذا الأمر ، وأرسل نائبه بدلاً عنه . ولما سمع «طومان باي» الشروط المعروضة عليه أظهر سروره ورغبته في قبولها ، ولكن أمراءه الذين لم يثقوا بوعود سليم غلبوه على رأيه ، وذبحوا أعضاء الوفد الأتراك وواحداً من القضاة[1] ، ووقفوا ، بخرقهم ، المفاوضات . وعند ذلك انتقم سليم لنفسه بارتكاب عمل وحشى كهذا وهو قتل الأمراء المسجونين في القلعة البالغ عددهم سبعة وخمسين .

عاد السلطان بعد ذلك إلى الجيزة ومعه كثير من الأتباع ، فأراد سليم الذهاب إليه ، ولكنه وجد صعوبة كبرى في عبور جنوده النهر إلى الجيزة فاضطرَّ لبناء قنطرة من السفن في عرض النيل[2] ، وجمع «طومان باي» جموعه عند الأهرام فالتقى الجيشان هنالك حوالى ختام شهر مارس ، ونشبت معركة استبسل فيها الفريقان سحابة يومين ، غلب في نهايتهما طومان باي ، على الرغم من امداد قائده «شادى بك» اياه امداداً حسناً ، وفر «طومان باي» إلى أحد مشايخ البدو ، وكان قد أحسن إليه قبلاً بتخليصه من الموت ، ولكن البدوى نسى ذلك الجميل وخفر ذمة اللاجىء إليه بتسليمه

(١) كان هذا القاضي اتهم أحد المماليك بتهمة لدى سليم فقضى عليه بالموت .

(٢) يقال أن «سليماً» سئم النزاع فأرسل ثانية أحد الأمراء عله يوفق إلى شروط حسنة ، ولكن مقابلة ذلك الأمير مع القائد «شادي بك» كانت سيئة العاقبة ، إذ نشبت بينهما معركة بدلا من الإتفاق ، وفي هذه المعركة جرح الأمير وفر هو واتباعه . وعلى كل حال فابن أياس لم يذكر هذه الحادثة غير المحتمل وقوعها .

إلى الأتراك[1] فحملوه إلى سليم في الأصفاد فوبخه على إصراره على معاداته ، وعلى قتله رسله . فوقف السلطان الأسير موقفاً مشرفاً وانكر ذلك القتل الشنيع ، وتكلم في غير وجل عن عدالة حقه في القتال لأن الواجب يحتمه عليه بحكم منصبه ، احتفاظاً بشرف أهل البلاد واستقلالهم ، فمال سليم إلى عدم قتله وأراد أن يأخذه معه إلى القسطنطينية ، غير أن الخائن «خير بك» بل أيضاً «جان بردي» ألحا على سليم في قتله بقولهما إن حكم العثمانيين في هذه البلاد سيظل محفوفاً بالمخاطر ما عاش طومان باي ، فكانت حجتهما قائمة . وعلى ذلك زج السلطان السيء الحظ في السجن ، ثم شنق بعد قليل عند باب المدينة[2] باعتباره مسيئاً . وبقيت جثته معلقة ثلاثة أيام ، ثم دفنت . وقد أصاب شر الخيانة «شادي بك» أيضاً فقتل في الوقت نفسه . وقد ولّد موت طومان باي المحزن ، شعوراً غريباً جداً حتى حاول أحد الأمراء وطائفة من أتباعه المخلصين ذبح «سليم» غيلة في الليل ، غير أن حرّاس القصر كانوا حذرين ، ولولا ذلك لتم هذا المشروع الخطير .

وقد بلغ طومان باي من العمر أربعين حجة ، لم يحكم منها غير ثلاثة أشهر ونصف شهر ، ولم يخلف وراءه أسرة . وقد عذبت زوجه ، ابنة «اكبردي» ، من أجل أموالها . وقد برهن طومان باي في كل من عهدَي نيابته عن قانصوه وسلطنته ، أنه شجاع كريم عادل . وقد شمل الحزن لموته كل البلاد المصرية . وهو أحسن رجال هذه الأسرة مع أنه آخرها ـ وهكذا انتهت أسرة المماليك انتهاء محزناً بموت طومان باي .

---

(١) وقد كوفىء البدوى (حسن بن مرعى) على خيانته ؛ ولكنه بعد ذلك قتل فشرب الجراكسة من دمه ؛ وعندما ما علق رأسه في المدينة أقام أصحاب السلطان السابق معالم الزينة .

(٢) هو باب زويلة . وقد بكاه الناس بكاء مراً .

الفصل الثاني والعشرون
سليم والخليفة المتوكل

[١٥١٧ م] مكث سليم في القاهرة بعد موت «طومان باي» مدة لم يفعل في خلالها شيئاً غير زيارته للاهرام وذهابه إلى مدينة الإسكندرية ، وقد حل فصل الخريف قبل أن يرجع إلى القسطنطينية ، وقد منح «خير بك» حكومة مصر جزاء ما قدمه من صالح الخدمات ، ومنح «جان بردي» ولاية سورية غير أن القلعة التى هي مفتاح القاهرة اسندت قيادتها إلى الباشا التركي (الوالى) وكان شديد الحذر .

ولما أزمع السلطان سليم الخروج من الديار المصرية استصحب معه الخليفة وجمعاً غفيراً من الناس كان من جملتهم كثير من أبناء السلاطين والعلماء والفقهاء والأمراء ورجال الحكومة ورؤساء الصناعات الماهرين والقضاة السابقين ، ولم يقتصر على ذلك بل عمد الى تجريد المدينة من نفائسها فانتزع أنواع الرخام الذي كان بالقصر وكذلك أخذ كثيراً من اللوحات الفضية وأدوات الزخرف والسلع النفيسة فكان كل ذلك حمولة ألف بعير ، هذا إلى ما سلبه رجاله الكثيرون من باشوات وضباط وجنود من البلاد فقد حرموها خيراتها وبركاتها إذ لم يبقوا على شيء من جيادها وبغالها وحميرها ، ولم يذروا نفيسة من نفائسها .

---

(١) ابتداء من هذا الفصل إلى آخر الكتاب تصرفنا في الترجمة تصرفاً ليس بالكثير .

انحطت القاهرة إلى درجة مدينة عادية تابعة ، بعد أن كانت مدينة ملكية سائدة ، وقد شعر الناس بعد خروج «سليم» من البلاد بتكشف غمة عنهم ، لأنه في غضون ثمانية الأشهر التى أقامها في مصر أصاب الناس الجهد . وقد ترك مقاليد الأمور في أيدي وزرائه وموظفيه ، وصرف وقته في سن الأنظمة الإدارية . وقد أقام بجزيرة الروضة ، وبُنى له بها بجانب المقياس في طرف الجزيرة الجنوبي جوسق من الخشب ، أقام به بقية مدته إلا زمناً يسيراً أقامه ببيت الأشراف «قايتباي» المطل على بركة الفيل .

أما ابن «أحمد» المطالب بالعرش البوزنطى فقد كان مختفياً في القاهرة منذ هزيمة «قانصوه» ، ولما ارتحل سليم ، نَّم عليه مماليكه ، فقبض عليه «خير بك» لكنه خشى قتله مخافة هياج محبيه ، فقيده بالأصفاد ، وأدخله إلى القلعة متنكراً فشنق فيها . وقد كان «خير بك» في أول الأمر غير محبب إلى الأمراء والمماليك ، ولكنه مع توالي الأيام صادقهم ، فاستطاع بمعونتهم أن يكبح جماح الأتراك الإنكشارية الذين عاثوا في الأرض فساداً . وقد استدعاه الباب العالى مرة أو مرتين لمحاسبته على ما يفعل ، مع أنه لم يكن يستحق هذه المعاملة ، ثم أخذ ابنه إلى القسطنطينية ـ رهينة . وقد كانت إدارة خير بك حسنة عادلة ناجحة تستوجب الاطراء . وقد تواطأ «جان بردي» ، وكان لا يزال حاكماً في الشام ، وخلف «خير بك» وثار على الباب العالى ثورة باءت بالخيبة والفشل فجنى على نفسه بنفسه .

وقد بقيت سورية ، كما كانت ، مقسمة إلى حكومات منفصلة . أما مصر التى ظلت ولاية واحدة فكان الوالى فيها يستبدل به غيره من قبل القسطنطينية سنة يعد سنة . وكان المستولي على القلعة هو قائد الجيوش ، ولم يتدخل في شئون البلاد إلا وقت الأزمات بعد مشاورة «ديوان» مؤلف من القضاة وغيرهم من العلماء . ولم يكن في تغيير الحكام نجاة للناس من الأرهاق والظلم اللذين ذاق الناس مرارتهما من قبل . والحق أن البلاد ساءت حالها عما كانت عليه في الماضي لأن خيرات الأرض وثمرات جهود

الفلاح صار يؤخذ منها الشيء الكثير إلى الشواطىء الشمالية بعد أن كانت تستهلك داخل البلاد .

* * *

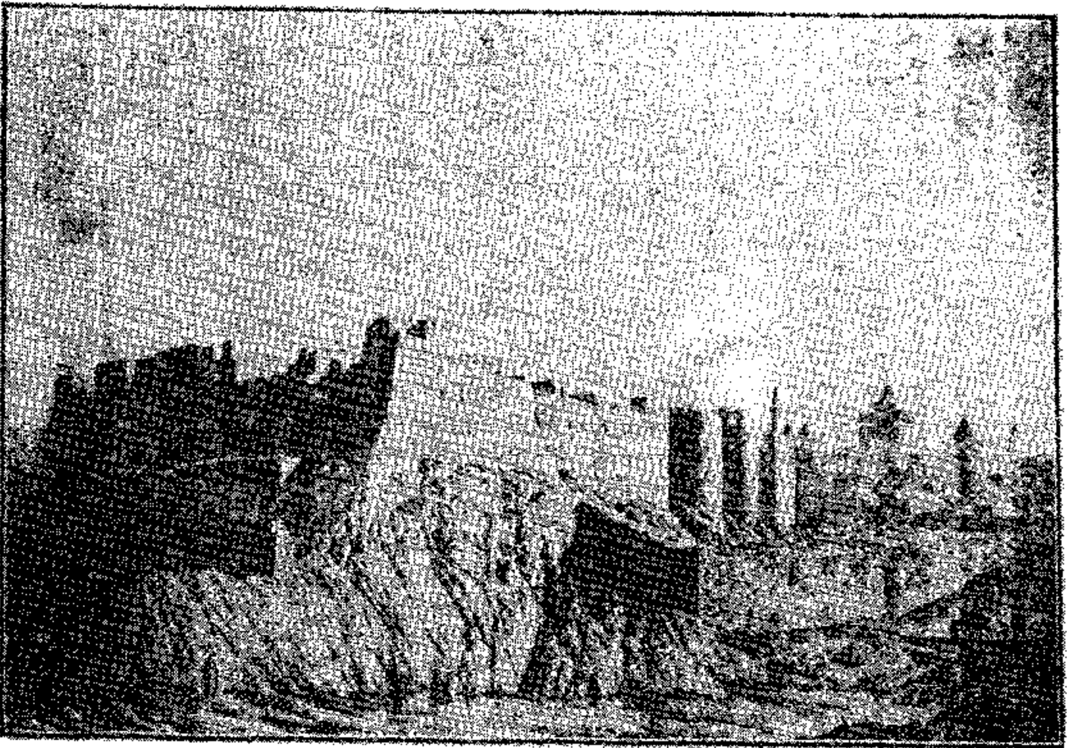
ذكرنا أن الخليفة «المتوكل» آخر الخلفاء ذهب إلى القسطنطينية في حاشية سليم وقد عامله في أول الأمر باحترام كثير ولكن هذا الإحترام لم يلبث أن تغير وانقلب إلى امتهان ، ذلك لأن سليماً اتهمه بأنه لم يحرص كل الحرص على أموال اليتامي والأرامل التى عهد بها إليه أثناء الهجوم على القاهرة ، وسجنه في حصن «القلاع السبع» ظاهر القسطنطينية فبقى فيه حتى مات سليم . ولما ولي السلطنة «سليمان» أذن له في العودة إلى القسطنطينية ، حيث بقي مدة عائشاً على وظيفة يومية مقدارها ستون درهماً . ولما تنازل في آخر الأمر عن لقبه ووظيفته إلى العثمانيين سمح له بالعودة إلى القاهرة ، ولم نعد نسمع عنه شيئاً سوى اشتراكه في ثورة قامت في مصر . وقد قضى نحبه عام ١٥٣٨[١] .

* * *

منذ تنازل الخليفة «المتوكل» عن الخلافة صار سلاطين العثمانيين هم الخلفاء ، واتخذوا لأنفسهم جميع حقوق الخلافة الإسلامية ، ولا تزال فيهم إلى اليوم .

---

(١) لم يذكر ابن أياس في تاريخه عودة الخليفة إلى مصر مع أنه بقى فيها حتى رأي بعينيه كثيرين يعودون من القسطنطينية ، وعلى ذلك لابد من أن عودة الخليفة كانت بعد عام ١٥٢٢ م وهو العام الذي ينتهى فيه تاريخ «ابن أياس» .



منظر القلعة من المقطم

الفصل الثالث والعشرون
طائفة المماليك

أوردُ هنا ملاحظات ختامية لا بد من ذكرها بياناً لمركز المماليك الإستثنائي وحكمهم مصر زماناً طويلاً : لا نجد في تاريخ العالم نظيراً لعصر المماليك ـ فطالما بأن العبيد والأرقاء في ثوراتهم يسودون مواليهم سيادة لا تلبث أن تتقشع سحبها ، ولكنا لم نسمع مطلقاً ، ولا نكاد نصدق لأول وهلة ، أن طائفة من الأرقاء المشترين بالأموال من أسواق آسيا يكثّر عددهم ويؤويهم أرقاء مثلهم ثم يحكمون قطراً غنياً كمصر ، ويضعون أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر ، ويصبح مملوك اليوم منهم حاكم الغد . ولكن مماليك مصر يعطوننا هذا المثال في غضون القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

لقد بينا في الفصل الأول من هذا الكتاب أن نهوض هذه الطائفة لم يكن إلاّ لما سار عليه الخلفاء العباسيون من استدعائهم قبائل همجية من التركمان إلى بغداد لتساعدهم ، فسنوا بذلك سنة سيئة نحا نحوهم فيها الفاطميون في مصر ، وقفّى على أثر هؤلاء صلاح الدين وأتباعه فكانت نتيجة ذلك كله أن ثل المماليك عرش الدولة الأيوبية . على أن القياس على حالة بغداد قياس لا أساس له ، لأن القبائل الهمجية التى نزلت هناك اختلطت بالناس وأصبحت جزءا منهم . أما الحالة في مصر فكانت على نقيض ذلك ، وهذا هو موضع العجب ، فمماليك مصر لم يختلطوا بأهلها

بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم ، فكانت حكومتهم «أوليغرقية» على رأسها الأمير أو السلطان ، في حين أن باقي المماليك كان لهم سلطان نافذ لا ينازعهم فيه أحد ، وإذا التمسنا لهم عذراً في ابتعادهم عن الأقباط لمخالفتهم إياهم في الدين فإننا لا نجد سبباً يبرر ابتعادهم عن المسلمين في جميع أنحاء الإمبراطورية سواء في مصر أو سورية أو حدود أرمينية وآسيا الصغرى . وهذه العزلة والترفع انفرد بهما المماليك حتى كانا يعدان ميزة لهم وفارقاً بينهم وبين غيرهم ، ولعلهما كانا من الأسباب التى دعت إلى طول مدة حكمهم .

وليس لدينا ما نستدل منه على عادات المماليك وحياتهم المنزلية غير مصادر تافهة سقيمة ، ولم يعرف عن ذلك شيءُ أكثر من اسم ملكة من زوجاتهم أو جارية من جواريهم . ومما لا شك فيه أن الجوارى كنَّ يؤتى بهن من آسيا أو بلاد اليونان ـ وذكر هذا قليل كذلك ـ وكان النساء اللائى يسبين في الحروب يؤتى بهن إلى مصر فيحتفظ بهن المماليك أو يبيعونهن .ولم يكن هؤلاء السبايا مع بناتهن كافيات لأن يكن زوجات للمماليك لكثرة عددهم . والمماليك على كل حال لم يتزوجوا من نساء مصر إلاّ قليلاً جداً فتزوج بعضهم من بنات القضاة وكبراء المسلمين في القاهرة ولم يتزوجوا من المسيحيات مع أن الإسلام يبيح التزوج منهن . ولكن زواجهم هذا لم يغير من عادة العزلة فيهم ولم يدعهم إلى الإختلاط بغيرهم . وقد يستطيع المرءُ أن يذكر الصعوبة دون شرحها أو تفسيرها . ومع ما كان من ابتعاد المماليك عن الناس ومع ما اشتهر عنهم من الإنقسام في داخليتهم كان يخافهم كل من عداهم .

ومن أشهر ما انفرد به المماليك ـ على رغم ابتعادهم وترفعهم عن الناس ـ انقسامهم إلى أحزاب وشيع لكل حزب منها زعيم ، وكان المملوك شديد التمسك بالسلطان أو الأمير الذي ابتاعه فكان عظيم التقيد بحزبه وبأسرته حتى بعد وفاته ، بل بعد أجيال عدة ، والدليل على ذلك الأشرفيون والظاهريون والمؤيدون وغيرهم ممن تسموا بأسماء سلاطينهم وقوادهم .

وقد كان النزاع والخلاف الذي يقع بين الأحزاب المختلفة سبباً في تعكير صفو إدارة الحكومة ، ولكنه في الوقت نفسه ولد في المماليك روحاً مستقلاً أظهروا به الشجاعة وشدة البأس فخافهم الناس .

ومما يجب ذكره أن المماليك كانوا ينالون في الغالب قسطاً كبيراً من التعليم ، فكانوا يربون في مدارس الحرب ومعاهد السلم ، فكانوا في حداثة سنهم ينبغون أحياناً في الفلسفة والفقه والعلوم وفي الفروسية واستعمال الأسلحة فيصيرون جديرين بالوظائف السامية وولاية الأمور . على أن الحال لم تك دائماً كما ذكرنا فقد ظهر من بين السلاطين من لم يستطيع كتابة أسمه ، ومن بين هؤلاء من استمسك باستعمال لغته التركية أو الجركسية .

وهناك صفة أخرى اختص بها المماليك وهي عدم عنايتهم بالوراثة فكان المملوك المحبوب يخلف سيده على العرش وأحياناً يسمى نفسهُ «ابن سيده» . وفي أغلب الأحوال كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم ، فلا يلبث أن يخلعه «اتابكه» أو أمير آخر يكون قد تآمر عليه . ولم نر واحداً فيمن مرَّ بنا ذكرهم قد استمرَّ التاج في بيته سوى «الناصر» ، إذ حكم بعده أبناؤه وأحفاده سنين عدة . وكان التاج في الغالب يؤول إلى أقوى الأمراء نفوذاً وأسوئهم مكراً وأعظمهم احتمالاً ، بل أحياناً إلى أقساهم وأكثرهم شذوذاً عن النظام . واعتبر المماليك التاج وقفاً عليهم ، وملكاً لهم يتوارثونه ، فأدى استئثارهم به ، بدون شك ، إلى دوام الحكومة الأوليغراقية . ومن أكبر أسباب تعلقهم بمواليهم الثروة الكثيرة التى استحوذ عليها الأمراء انتزاعاً من أيدي الناس ، والأقطاعيات العظيمة التى وهبتها لهم الحكومة ، والقصور الباذخة التى أقاموها لأنفسهم ، وان بقيت هذه الأشياء كلها في أيديهم مدة فهو بقاء ليس له ثبوت إذ ربما عصفت عليها عواصف ثورات تلك الأيام فأخرجتها من أيدي مالكيها .

وباعتبار طائفة المماليك أمة نجد أن ما كمن في نفوسها من الخيانة لا يحتاج إلى استدلال ، وان ظهر من بينها حكام معتدلون صالحون محسنون ،

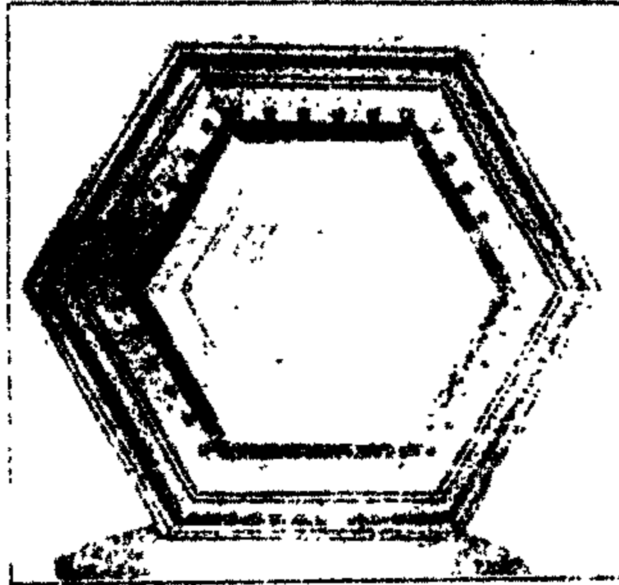
يقدرون الشرف ويتحلون به ، ويعظمون الدين ويعملون على تثبيته ، إذ تجد منهم من حبس الأموال على الخيرات ، وترقية الآداب ، وبنى المدارس والكليات يتعلم الناس فيها علوم الطب والفلسفة والفنون والعلوم الرياضية والطبيعية ، وبنى ملاجىء للأيتام ، ومنهم من خلف وراءه آثاراً من عصرهم في المباني الجميلة التى لا تزال تزدان بها هذه العاصمة ، وإن كانت قد امتدت إليها أيدي العثمانيين عند فتحهم البلاد كما امتدت إليها بالسوء أيدي بعض المماليك الذين كان من دأبهم مناوأة اليهود والنصارى . ولكن الغالبية الكبرى من المماليك ، وخاصة في أيامهم الأخيرة ، كانت عسوفة كثيرة الخيانة كثيرة المظالم لا ترقب في إهراق دماء الناس إلاًّ ولاذمة ، ويعذبونهم بالجلد والكى ، ويدسون لهم السم ، كل هذا رغبة في التخلص من شرورهم أو للحصول على أموالهم بدون جرم أتوه .

وخلاصة القول اننا نعجب أشد العجب من أن نيراً أجنبياً يثقل كاهل الناس ويخوفهم طويلاً ثم هم لا يحاولون القضاء عليه قبل اشتداد وطأته . والحق اني لم استطع فهم السبب في استمرار هذا الحكم ، اللهم إلا إذا كانت حالة الأقباط السيئة إذ ذاك هي التى ساعدت عليه ، لأن الإقباط وحدهم كانوا هم الفئة القادرة على مناهضة ذلك ووقف تيار سيادتهم، إذ أن الخليفة كان العوية في ايديهم . وكان رؤساء المسلمين مع إنهم القابضون على المناصب العلمية شرعية كانت أو غير شرعية ـ خاضعين ، وكان عددهم بالنسبة إلى عدد الأقباط قليلاً لا يتسنى لهم به تنظيم مناوأة المماليك ومعاداتهم . ولا يستطيع أحد تعليل فشل الفاطميين من قبل في تكوين هيئة إسلامية قوية في الإسكندرية أو القاهرة أو فلسطين .

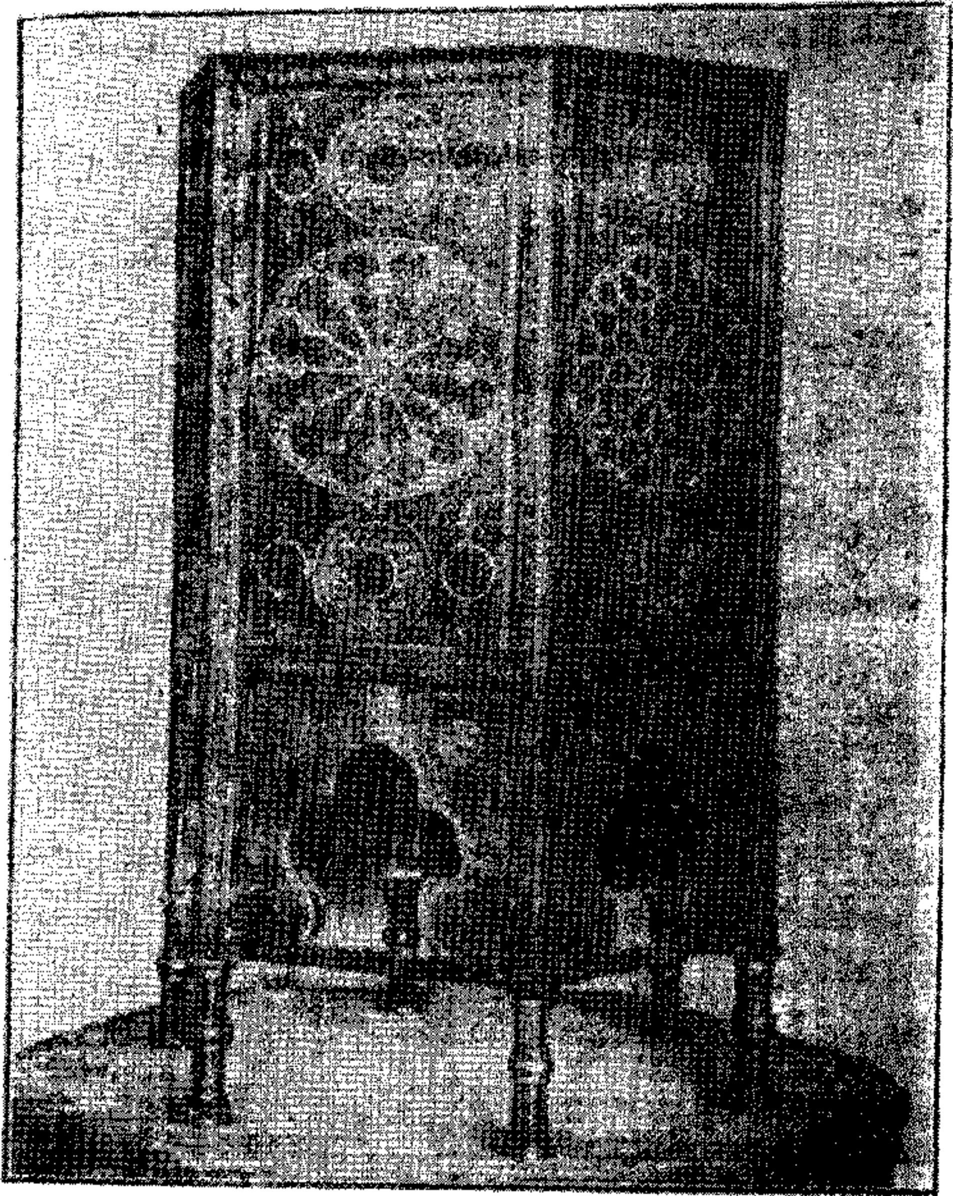
وكذلك من العسير أن نجد سبباً لخضوع سورية خضوعاً تاماً ولكن لكونها «ميدان حروب العالم» لم تكن تستطيع أن تسير على خطة سياسية مستقلة متحدة ، إذ كانت حاميات المماليك مستحوذة على القلاع ، وكان حكام من المماليك يحكمون البلاد ، ولم يفكر أحد مطلقاً في جعل هذا

الحكم في أيدي وطنيين . ومما لا شك فيه أن البدو كانوا أمة مستقلة ولكن عاداتهم البدوية ، عادات الظعن والترحال ، لم تجعلهم يتخذون لهم مستقراً ومقاماً في أي صقع من الأرض ، ولا أن يشتركوا طويلاً اشتراكاً فعلياً في أمر واحد ، بعكس ما كان كان عليه المماليك فانهم ـ على رغم كراهية بعض أحزابهم لبعض ، ومع حروبهم وأحقادهم الداخلية ـ كانوا متحدين اتحاداً تاماً بالنسبة إلى من عداهم ، الخارجين عن بلادهم . ومع أنهم لم يكن أصلهم ثابتاً في البلاد كما كانوا في بلادهم الأصلية ، ملكوا على مر الأيام كل شيء نفيس فيها ، ولم يترددوا مرة في إشباع خزائنهم على حساب معاشريهم من أهل البلاد . ولذا كان غنائم وقوتهم وحزمهم مساعداً لهم على استعباد الناس استعباداً لا نزاع فيه .

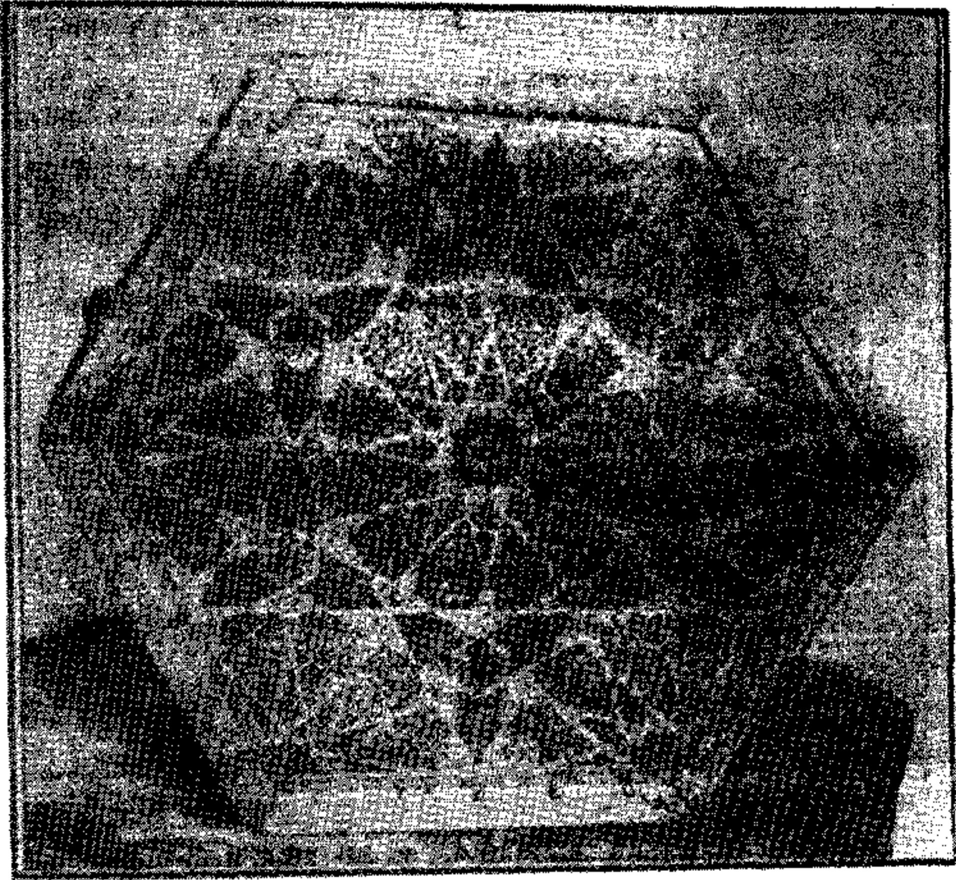
وكل هذه الإعتبارات المتقدمة تساعدنا إلى حد ما في تفهم السبب الذي جعل سيادة المماليك على مصر طويلة ، على أن هذه السيادة لا تزال ظاهرة من الظواهر الغربية التى تجل عن الإستقراء في هذه البلاد الكثيرة العجائب .



سطح كرسي مرصع بالفضة وجد في مسجد شعبان بن الناصر
ومحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة



ظهر الكرسي الذي في الصورة السابقة



كرسي من البرونز مرصع وموشى بالفضة وجد في مسجد الناصر بن قلاوون
ويظهر أنه صنع في زمنه وهو محفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة

الملحق الاول

نظرة مختصرة في المماليك
تحت حكم العثمانيين
١٥١٧ ـ ١٨١١ م

ظل المماليك واضعين أيديهم على مصر طوال الحكم العثماني إذ أنه كلما كان يتقلص مجد الباب العالي من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاته في مصر فيزيد نفوذ البيكوات المماليك تبعاً لذلك . بقى المماليك على عهد العثمانيين ـ كما كانوا من أجيال عدة ـ طائفة منفصلة لا تختلط مع من يساكنونهم الديار . ولم يزالوا يكثرون من عددهم بشراء مماليك جدُد كانوا يفدون على مصر من سيبريا وبلاد الجركس وما جاورها من البلدان ، وصار رؤساء المماليك يسمَوْن باسم «شيخ البلد» ، وكانوا كثيراً ما يتنازعون ويتقاتلون للحصول على هذا اللقب . فيتلو ذلك هياج يعم البلاد جميعها ، وكان «الشيخ» إذا عاضده الأمراء يستفحل أمره فينزل الباب العالي وواليه في مصر على إرادته ، فكأنه هو الحاكم الفعلي للبلاد .

ولما كان الباب العالي مشتغلاً بحروبه مع الروسيا في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، نبه ذكر شيخ البلد«علي بك الكبير» ، واستطاع كسر شوكة الإنكشارية الذين كانوا عدة العثمانيين إذ ذاك في مصر ، وأخذ يزيد في عدد المماليك في بلاطه حتى بلغوا ستة آلاف . وعندئذ اتخذ موقف المستقل وطرد الوالي العثماني إلى القسطنطينية ، ثم توجه بجيشه إلى سورية فأخضعها وأخضع البدو كذلك ، فاعترف شريف مكة بسيادته على البلاد

المقدسة ، ومنحه لقب سلطان . وبعد أن حكم حكماً زاهراً أئتمر به جماعة وذبحوه غيلة في سورية .

كان إبراهيم بك «شيخ البلد» عند ما استولى نابليون على مصر لحماية مصالح فرنسا . ولما اضطر نابليون إلى الخروج منها باتحاد الباب العالي مع انجلترة عليه ، عاد «إبراهيم بك» إلى حكم البلاد بعد فراره منها إلى الوجه القبلي . ولا ضرورة هنا إلى تتبع مجرى الحوادث إلى الوقت الذي أحرز فيه محمد علي السيادة العليا على مصر .

خشى محمد علي شر المماليك فاتخذ لنفسه الحيطة وصمم على التخلص منهم فأوقع بزعمائهم بعد ست سنوات من تصميمه ، بأن دعا البيكوات والأمراء إلى وليمة في القلعة . ولما أرادوا الإنصراف أغلقت الأبواب الخارجية وسدت عليهم مسالك الفرار ، وأطلقت عليهم البنادق فماتوا جميعاً . ويقال إن عددهم بلغ «٤٧٠» . وبعد ذلك عملت تدابير أخرى كانت نتيجتها القضاء على بقية المماليك بالقتل أو الطرد . وقد هرب منهم عدد إلى بلاد النوبة . ويقال إنهم لاقوا حتفهم هنالك ، والعدد القليل الذي بقى منهم في القاهرة اندمجوا في أهل البلاد وصاروا منهم .

هكذا انتهى حكم المماليك الذين سادوا مصر أجيالاً عدة فاستراحت منهم القاهرة راحة لم تعرفها من قبل .

الملحق الثاني

مذكرة حررها سعادة يعقوب أرتين باشا عن علاقة المماليك بأهل مصر
(وهي إجابات عن أسئلة سأله إياها المؤلف)

تسألني في خطابك عدة أسئلة ، وإني لمورد هنا الإجابة عنها جهد الاستطاعة .

١ ـ «دخل المماليك في طاعة الباب العالي عام ١٥١٧ م. وإني لأظن أنهم ظلوا إلى ذلك العهد أمة ذات شخصية ممتازة لا اختلاط لها بالسكان . فماذا ترون ؟» .

نعم ، كان الأمراء كذلك ، ويجب على المتتبع لتاريخهم ألاّ ينسى أنهم لم يدعوا مطلقاً أنهم يكوّنون بالزواج والمصاهرة أمة مختلطة منهم ومن أهل البلاد ، وكذلك لم يريدوا أن ينشئوا أسراً ظاهرة متميزة أو طبقة ارستقراطية بزواجهم من جوار من بنات جنسهم . ومن أظهر خواصهم الخلقية والإجتماعية أن الطفل منهم كان لا ينبغي له أن يخلف والده ، بل كان المملوك يخلف سيده المملوك فيصبح وليّ أسرته ووصيها . ولدينا أمثلة كثيرة على أنه كان يضم أزواج سيده إلى حريمه وإذا لم يقتل الأطفال عاملهم معاملة تودي بحياتهم . وفي آخر عهد دولتهم كانوا أمة جندية ديمقراطية .

٢ ـ «وبعد ذلك أظلوا بمعزل عن الناس كما كانوا من قبل ، أم أنهم اختلطوا بالناس من عرب وغيرهم من سكان البلاد ، أو بالذين جاءوا من سورية أو آسيا الصغرى وغيرها ؟» .

كلا ! إنهم ظلوا في عزلة لأنهم ، لما كانوا يحرصون جد الحرص

على بقائهم أمة جندية حاكمة للبلاد ، تمسكوا بمبدئهم وهو عدم الاتحاد والإختلاط ، وكان أهم ما تصبو إليه نفوسهم في الحياة الحروب يشنونها ولو على أنفسهم ، أو على أهل البلاد ليكسروا من شوكتهم ويخضعوهم لطاعتهم . ولما كانت هذه هي حياتهم كان تكوينهم لأسرات قريباً من المستحيل . وقليل من هؤلاء الفرسان من مات حتف أنفه وهو على فراشه في سن التسعين أو نحوها ، وكثير منهم مات ميتات شنيعة وهم لم يجاوزوا من العمر ثلاثين أو خمساً وثلاثين سنة . وعند موتهم كانت تؤول بيوتهم وأمتعتهم وأموالهم وجواريهم ومماليكهم وأطفالهم بل كل شيء يملكونه ، إلى سادتهم ، أو إلى قاتليهم ، أو إلى الحكومة التي كانت في الغالب أقوى هيئة . وفي الحالة التى كانت فيها الحكومة أقوى هيئة كان كل ما يخص الميت ، بما في ذلك أبناؤه ، يباع لمصلحة «بيت المال» . وفيما عدا ذلك كان أقوى زعيم في المماليك هو الذي يستولي على كل ذلك . أما المماليك الذين عاشوا في عزلة عيشة مدنية وتزوجوا وصار لهم ذرية فقد اندمجوا ، بعد جيل أو جيلين ، في المصريين ، وكان أولادهم يسمون «المولدين» وكانوا في عرفهم لا يليقون بأي حال للجندية أو الإدارة . وإنك لتجد في كتاب «تاريخ الجبرتي» أمثلة عدة لهذا التوليد . ولعل أشهر هؤلاء «عبد الرحمن الكخيا» مولى «علي بك» «النصف الثاني من القرن الثامن عشر» .
والمثال الثاني أسرة رجل يعرفه أهل هذا الجيل وأعنى به «محمود باشا سامي البارودي» وهو الآن في جزيرة سرنديب «سيلان» مع عرابي باشا ، وهو يقول إنه من سلالة السلطان الغوري . ولكن المعروف عن نسبه أنه حفيد مملوك لعلي بك عهد إليه بالترسانة التى أنشأها التي في «بولاق» . وقد بقى هذا المملوك في منصبه حتى بعد موت «علي بك» لخبرته ودرايته بصناعة البارود وصهر البرونز اللازم لعمل المدافع وغير ذلك ، ومن هنا سمى «البارودي» وقد تمسك ابنه بهذه الجنسية وتزوّج جارية جركسية رزق منها ابنة تزوجت مملوكاً جركسياً ولد له منها «محمود سامي باشا» (رب السيف والقلم) وقد تزوج من حفيدة ابنة أخت «محمد علي باشا الكبير» ، ولا يزال له منها ذرية

باقية . إنا قد أوردنا هذا المثال لأنه يرينا أسرة يرجع أصلها إلى مملوك عمرت في البلاد نحو مائة وخمسين عاماً ، وبقيت بمعزل عن بقية السكان في المصاهرة ، ولم يخالف أحد من هذه الأسرة عادة الزواج بجارية أسيوية سوى محمود باشا سامي إذ تزوج من غير جارية ، كما ذكرنا ، وإن لم تكن مصرية . والأمثلة التى تشبه هذا المثال قليل علمها عندي . أما أمثلة الأسرات التى يقل تاريخها عن مائة عام أي بعد فتح محمد على الكبير للبلاد فكثيرة . وعلى الجملة نجد أن كل الأجانب الذين هم من دم أجنبي صرف يفضلون أن يكونوا ممتازين عن المصريين السمر اللون . على أن هناك كثيراً من الأمثلة على اختلاط دم المصريين بهؤلاء الأجانب ولكنه اختلاط على غير قاعدة ، بل ينشأ في الغالب من الصعوبة في العثور على زوج من جنس المتزوج أو المتزوجة أو في درجتهما الإجتماعية ، أو ينشأ عن الرغبة في الإختلاط بحكم طول المعاشرة أو تنازع البقاء . وعلاوة على ما تقدم قد غير الخديو «إسماعيل باشا» منذ ثلاثين عاماً اللغة الرسمية التركية باللغة العربية فكان لذلك تأثير عظيم في ميول الأتراك والجركس ، أو على العموم ميول المسلمين الأجانب ، فجعلهم يتقربون من المصريين ، فخففوا من غلوائهم معاملة النظير لا معاملة السيد للعبد ، بل ودوا لو قبلهم المصريون كمصريين . وقد بولغ في إظهار هذه العاطفة إبان الثورة العرابية عام ١٨٨٢ م إذ رأيت بعينى رأسى أناساً ليس في دمهم قطرة عربية يدعون أنهم من سلالة النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) . وهذا الروح آخذ في الإنتشار ، وفي يقيني أنه لن يمضي ثلاثون عاماً حتى لا يكون في البلاد تركي قح أو جركسي صميم ، فان جميع الأسر الموجودة الآن ستصير مندمجة في المصريين ، بل ان الدم المصري ، من غير شك ، سيتغلب على غيره كما تغلب في كثير من الظروف من قبل . وإنا لنجد أن الإغريق والسوريين والأرمن والمسيحيين الأجانب الذين يتزوجون من أقباط يتلاشون في الجنس المصري بعد جيل أو جيلين (زيجة أو اثنتين متتاليتين) .

يظن بعض الناس أن الأجانب في مصر لا يمكن أن يكون لهم ذرية أو

أسرة خاصة بهم محتفظة بجنسيتهم بعد مرور الجيل الثالث على أصل هذه الأسرة ، ولكن هذا خطأ فان لدينا أمثلة تاريخية تدل على أن البطالسة الذين جاءُوا من مقدونيا وأقاموا بهذه الديار ، ظلوا أقوياء عدة قرون رغم تزوجهم من أخواتهم . وبياناً للصعوبة التى نشأت في تكوين أسرات في مصر من وقت أن آلت مقاليد الحكومة إلى المماليك الترك يجب أن ننظر أولاً لنظامهم الحربي ، ثم إلى حياتهم الكثيرة الهياج والإضطراب ، وما كانوا يلقونه من أشنع الميتات ، وإلى زواجهم ـ إذا اتفق أن طال عمرهم ـ من زوجات مصريات كنَّ يصبغن أولادهن من هؤلاء بالصبغة المصرية . وإني على يقين من أن جو هذه البلاد له تأثير في الأجانب أحسن من تأثير أجواء البلاد الجنوبية كلها فيهم .

وقد قيل لى إن أسرة «قايتباي» وبعضاً من سلالة العباسيين لا يزالون باقين في هذه البلاد ، ولكن مجرد النظر إلى هؤلاء يرى أنهم مصريون ، للون بشرتهم وملامح وجوههم . ويجب على كل إنسان أن يصغى بحذر إلى أي شخص يدّعى أنه من ذرية السلاطين السابقين أو من نسل أي مملوك من مشاهير المماليك بحجة أن له نصيباً في أوقاف حبسها هذا السلطان أو ذلك المملوك ، إذ أن هذه الحجة لا تقوم دليلاً كافياً على نسبته إلى ذلك الواقف فان عيون الوقف كانت تحبس على العموم على الأبناء والوالدين والمماليك والعبيد من ذكور وإناث وكذلك على الخادمين والخادمات وذرياتهم بل على ذرية الذرية دواليك . ومن هذا ترى الصعوبة الكبرى في تتبع نسب أي إنسان من أهل هذا العصر ولا في الحكم بصحته بمثل هذه المعلومات القليلة ، وخاصة إذا راعيت أن تاريخ مصر قد توالى عليه ، في غضون القرون الستة التى خلت ، عصورٌ كلها ثورات وانقلابات .

٣ ـ «في عام ١٨١١ ذبح في القلعة بأمر «محمد علي الكبير» عدد كبير من المماليك . فهل هرب من المماليك عدد كبير غير من قتلوا ؟ ومن ذلك العهد هل بقى أي أثر يدل على أن المماليك ظلوا ممتازين عن غيرهم ؟» .

لم يقتل في مذبحة القلعة غير زعماء المماليك واتباعهم . ولكنى لا

أستطيع تحديد عدد القتلى منهم ، وكل ما لدى من المعلومات التى حصلت عليها أنهم لم يجاوزوا المائتين ، وهؤلاء الرؤساء جميعهم جراكسة . أما أتباعهم الذين كانوا يتولون خدمتهم فمن المصريين . أما من سكن الأقاليم من المماليك فلم يحلّ بهم ما حل باخوانهم وكثير من المماليك الذين كانوا في القاهرة كانوا أعواناً لمحمد علي ، ولذا نجوا من العاصفة . ويحتمل أن بضعة الوف منهم هربوا من البلاد فخرج بعضهم إلى سورية وبعضهم إلى الوجه القبلي ، وذهبوا إلى دنقلة ، ومنها إلى شندي حيث هلك بعضهم . وخدم آخرون في جيوش محمد علي التى ذهبت إلى السوادن عام ١٨٢٤ م . وقد أخذ «محمد علي» الفين من المماليك الذين لم تبلغ سنهم الثامنة عشرة ، وكانوا تابعين للمماليك الذين هلكوا ، بموجب قانون كان نافذ المفعول حينذاك ، ومؤداه : أن كل ما للعدو يصبح ملكاً لقاهره . وهذا القانون له نظير في التوراة (داود وابنهُ) . وهؤلاء الأحداث انتظموا في أول الأمر في حرس «محمد علي» الخاص ، والتحقوا بمدرسة القلعة ثم صاروا ضباطاً في الجيش النظامي الذي أنشأه محمد عام ١٨١٥ م في قلعة القاهرة ، ثم نقل بعد ذلك في عام ١٨١٨ م إلى اسوان عندما ثار الجيش الألباني على الجيش النظامي . وكان هؤلاء الأحداث أساس الفرق الأربع التى تم تكوينها إلى عام ١٨٢٤ م. ويقال إن عدد جنود المماليك بلغ عشرين ألفاً في أول حكم محمد علي ، وكان عددهم أربعين إلفاً قبل حملة «بونابرت» على القاهرة وقبل أن ينفوا أو يقتلوا . ولا يغيب عن الذهن أنه قد قلّ ورود المماليك من الشمال لكثرة الحروب والثورات في مصر بين عامي ١٧٩٨ و ١٨١١ م. وكذلك يجب ألاّ ننسى أن النخاسين لم يجدوا فائدة لهم من توريد مماليك جُدد لافلاس زعماء المماليك ، ولهذا لم يكن في مقدور هؤلاء الزعماء لعدة سنين أن يكوّنوا جنداً من المماليك قبل أن يقضي محمد علي رابطتهم في عام ١٨١١ م قضاء مبرماً . ومن عام ١٨٢٤ م إلى هذا الوقت كان قواد الجيش من الأجانب ، وكان نصفهم على الأقل من المماليك الجراكسة التابعين لأسرة الوالي . وإنك لتجد آخر ذكر لهم سنة

١٨٨١ م عندما أراد «عرابي» أن يطردهم جملة من الجيش . ومعظم هؤلاء الجراكسة اشتراهم الخديو إسماعيل باشا بعيد قبض الروس على «شامل» عظيم الجراكسة وآخر زعيم لهم ، إذ إنه بعد موت هذا الزعيم هاجر عدد كبير من الجراكسة إلى تركيا ومصر وباعوا أبناءهم فاشترى منهم «إسماعيل باشا» عدداً كبيراً ، كما ذكرنا ، وأرسلهم إلى مدارسه ، ورباهم تربية حربية حسنة حتى صاروا ضباطاً مدربين .

ولا تجد من عهد أن أبطلت تجارة الرقيق مماليك يباعون في مصر . ولا يزال عدد كبير منهم على قيد الحياة يشغلون مراكز في الأعمال العامة . وهم على العموم من سلالة آرية من الأغريق والجركس والأرمن وأهل جورجيا وغيرهم . وهم ينعمون بالحرية التى يتمتع بها الأحرار من الناس .

إنك لا تجد في أي جهة من جهات مصر أن الدم الأجنبي هو الغالب في السكان ، وأول قادم إلى مصر عندما ينزل إلى الدلتا يلاحظ لاول وهلة أن لون البشرة في أهل السواحل أنقى منه في الداخل ، ثم يأخذ يضرب السمرة في الجنوب حتى القاهرة التى فيها خليط كبير من مختلف الألوان . والذي أراه أن الدم المصري قد امتزج بالدم السامي أكثر من امتزاجه بغيره قديماً وحديثاً . وإلى الجنوب من القاهرة يزيد لون البشرة سمرة حتى إذا بلغنا اسوان وجدناه أشبه شيء بلون الزنوج . وشمالي القاهرة يصفو اللون لامتزاجه بالدم السوري والإغريقي والتركي . وليس الآن في مصر جنس مصري خالص في مصريته ولذلك كان عسيراً على أي إنسان أن يحدد ماهية اللون المصري . وعلى قدر مبلغ علمي أقول إن هناك مكانين جديرين بالاعتبار هما : (أولاً) شواطىء بحيرة المنزلة حيث يجد الإنسان جنس الهكسوس إذ ـ كما يتبين من الآثار ـ نجد لهم خدوداً ناتئة وعيوناً صغيرة وجباهاً عريضة وأنوفاً كبيرة ولحية غير كثة ، و (ثانياً) الجزء الشمالي الشرقي من مديرية الدقهلية فيما يلي الصحراء السورية حيث يجد الإنسان الجنس السامي الصميم والقريب من الصميم وخاصة في النساء . وفيما يختص

بالجنس المصري ـ كما هو ظاهر في الآثار ـ فان الإنسان يجد له أثراً من جنوبي بني سويف إلى الشلالات .

وإني لأعتقد إني أديت ما يجب علي نحو أسئلتك ، وإني أخشى أن أكون قد أطلت ولكني أرجو منك المعذرة إذ أنك تعلم الصعوبة التى يلقاها من يتبادل مثل هذه الموضوعات بايجاز .

القاهرة في ١١ سبتمبر ١٨٩٥ **يعقوب ارتين باشا**

فهرس الصور

فهرس مواد الكتاب

الجزء الثاني ـ دولة المماليك البرجية

هذه السلسلة تضم :